جولة في جزائر البحر الزنجي

أو

حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي

رحلات

إلى موريشيوس وريينون وجزر القمر وزنجبار وسيشل

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

جولة في جزائر البحر الزنجي

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

المطابع الأهلية للأوفست
الرياض - شارع عمر بن الخطاب
ص.ب ٢٩٥٧



جزائر البحر الزنجي تقع جهة الشرق من القارة الإفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ؛

أما بعد : فهذه قصة رحلات إلى عدة جزر في البحر الزنجي ، وهي جزر كان بعضها عربياً بحكامه وثقافة المثقفين فيه ، وبطائفة من أهله . وكان بعضها عربياً لأن العرب هم أول أناس في التاريخ المعروف وصلوا إليه ، واكتشفوه . وبعضها جزر إسلامية كان الإسلام قد دخلها منذ عصور مبكرة حتى أصبح الإسلام هو دين أهلها كلهم مثل جزائر القمر وزنجبار .

أما اللغة العربية في بعض هذه الجزر فقد أصبحت كلماتها تتقاسم لغة التخاطب فيها مع لغاتها الوطنية القديمة فتأخذ اللغة العربية من تلك الكلمات النصف أو يزيد .

وإذا تركنا التاريخ القديم جانباً ــ ونحن لا نستطيع أن نتركه إلا إلى حين ــ فاننا نجد أن حاضر تلك الجزر بدأ يتطلع إلى البلاد العربية وبخاصة مهبط الوحي ومهد اللسان الفصيح : المملكة العربية السعودية يريد بذلك تجديد العلاقات ، وتقوية الصلات . وهي علاقات كانت قديمة . وصلات ذات أواصر تحتم على من يقدرون أهمية العلاقات بين الدول والشعوب أن يقووها وينموها .

بل إن بعض الدول والشعوب تسعى إلى إنشاء علاقات جديدة ليس لها جذور من تاريخ ، ولا وشائج من دين أو لغة لأن هذا العصر هو عصر التعاون بين الدول والتعارف بين الشعوب . وإن أولى الدرجات للوصول إلى التعاون

المثمر المنشوذ هي الحصول على القدر الممكن من المعلومات ، والتنويه باحياء القديم من الصلات .

وهذا مما حدا بالمؤلف إلى تدوين هذا الكتاب أو على الأدق هذه المذكرات عن هذه الجزر .

وهو يتضمن فيما يتضمنه قدراً من المعلومات المختلفة النواحي ، المتشعبة الميادين إلا أنها تستوي في كونها معلومات تكاد تكون جديدة على القارىء العربي بل تكاد تكون غريبة على معظم القراء ، وهي مبنية على المشاهدة ، والبحث الميداني .

لذلك رأى المؤلف في نشرها ما قد يفيد دارساً ، أو يرشد باحثاً ، أو يشبع نهم قارىء يلذ له أن يقرأ كتاباً في الرحلات أي كتاب وأية رحلات .

إن هذا الكتاب يتحدث عن زنجبار بجزيرتيه : زنجبار والخضراء أو بمبا . وجزيرتي موريشيوس ورينيون ، وجزر القمر ، وجزر سيشل وهي كلها واقعة في البحر الزنجي .

ولاشك في أن هذه التسمية (البحر الزنجي) هي غريبة على قراء العربية ، ولكن ذلك لا ينفي كونها عربية أصيلة وهي إلى أصالة عربيتها فإنها صادقة الدلالة وهي أفصح وأوضح وأصدق من التسمية الإفرنجية التي تبعهم عليها مثقفونا وهي (المحيط الهندي) ولم يكتف بذلك العرب المحدثون الذين نسوا أو تناسوا بدافع من الإهمال والاسترخاء عن جمع المعلومات في أول الأمر ، ثم بدافع الجهل عندما أصبح الجهل داءً ألفوه فيما لم يعرفوه ولم يسعوا إلى معرفته .

بل إنهم تابعوا الإفرنج على غلطهم الذي ارتكبوه .

ذلك بأن التسمية العربية (البحر الزنجي) مأخوذة من التسمية العربية

القديمة لتلك البلاد الواقعة في الساحل الإفريقي الشرقي (بر الزنج) التي أصبحت بعد ذلك مقتصرة على جزيرة أو جزيرتين في هذا البحر وحرفت في قوالب اللغة السواحلية إلى (زنج بر) أو زنجبار.

فالبر في ذلك الساحل هو بر الزنج والبحر الذي يليه هو بحر الزنج تماماً مثلما تقول في جنوب الجزيرة وعمان بر العرب أو ساحل الجزيرة وتقول في البحر: (بحر العرب) أو (البحر العربي).

والعرب عندما أطلقوا تلك التسمية (بحر الزنج) وعلى اليابسة التي تليه (بر الزنج) لم يكونوا يقصدون من ذلك الغمز أو اللمز أو التمييز باللون أو الشكل. لأن الزنجي عندهم هو الذي يكون من أهل تلك الناحية، وليس هو من يكون أسود اللون كما هو الشائع عند المتعلمين من عرب اليوم الذين أخذوا مصطلح (زنجي) للشخص الأسود من اصطلاح الأوروبيين.

إذ هناك أقوام ممن لونهم السواد لم يكن العرب يسمونهم زنوجاً، ولم يكونوا يسمون بلادهم بلاد الزنج مثل الأحباش والسودانيين والنوبة والتكرور والكانم إلخ .. وعلى هذا كانت تسمياتهم للبحار والبلدان في أول عهدهم بالفتوحات حتى البحر الأبيض المتوسط الذي كان في زمن الازدهار العربي إسلامي السواحل كانوا يسمونه كما كان العرب الأوائل يسمونه: (بحر الروم).

ولكن عند ما عرف الأوروبيون بحر الزنج هذا وقد جاؤا إليه أول ما جاؤا من جهة جنوب القارة، من رأس الرجاء الصالح، وكانوا قد جاؤا يبحثون عن طريق إلى الهند فظنوا عندما وصلوا إليه أنهم قد وصلوا إلى بحر قريب من الهند فأسموه (المحيط الهندي) وقد تابعهم العالم على هذه التسمية رغم كون البحر هذا هو بحر الزنج وليس فيه من أهل الهند أحد، ولا حتى وصل إلى

سواحله نفوذ لأهل الهند .

تماماً مثلما تابع الناس ومنهم بعض المثقفين من العرب غلط الأوروبيين في مكان آخر هو البحر الكاريبي بين الأمريكتين : الجنوبية والشمالية . فقد كان كريستوفر كلولمبس ومن معه ومن جاء من بعده في عهد يقرب من عهده قد توجهوا مع المحيط الأطلسي بحثاً عن طريق قريب يوصلهم إلى الهند عن طريق الغرب بدلاً من الشرق ، فلما وصلوا إلى جزر البحر الكاريبي ظنوا أنهم قد وصلوا إلى الهند فأسموا تلك الجزر (جزائر الهند الغربية) وتابعهم العالم على تلك التسمية حتى أصبحت اسماً باقياً حتى الآن . مع أن ما بينها وبين الهند أبعد مما بين الهند وبين إسبانيا التي انطلق منها كريستوف كلومبس من مسافة .

لذلك جعلت عنوان الكتاب من باب إحياء هذا المصطلح العربي القديم الذي كان أثراً من آثار البحث العربي القديم عن المعرفة على هدي من الجهود العربية الخالصة فأسميته : (جولة في جزائر البحر الزنجي) .

ولعلمي بأن هذا غريب على الاسماع بعيد عن الأفهام لأول وهلة ، فقد وضعت أسفله اسماً مستوحى من الخطأ الشائع يسعف من يقرأ عنوان الكتاب بفهم عاجل حتى يقرأ الاسم العربي الأصيل . وهو (أو : حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي) .

الرياض : ٢٠ المحرم ١٤٠١هـ
٢٨ نوفمبر ١٩٨٠م .

المؤلف
محمد بن ناصر العبودي

يوم الخميس ١٩ محرم ١٣٩٨هـ (٢٩ ديسمبر ١٩٧٧م)

إلى جزائر البحر الجنوبي ، أو إلى بلاد السندباد :

يصح أن تسمى الجهة التي تتجه إليها رحلتنا الآن بهذا الاسم لأنها كلها في البحر الجنوبي بالنسبة إلى جزيرة العرب فهي إلى جزر القمر و(مدغشقر) و(موريشيوس) ورينيون وزنجبار وكلها جزائر واقعة تجاه سواحل أفريقية الشرقية الجنوبية .

ويصح أن نقول إلى (بلاد السندباد) لأن السندباد إستوحى رحلاته التي كان يقوم بها . إنْ كان قام بها بالفعل إلى جهة الجنوب من خليج البصرة فهو إذا خرج من الخليج فانه لا بد من أن يتيامن إلى جهة بلاد الزنج وإقليم سفالة الذي هو ساحل موزمبيق وشرقي أفريقية أو أن يتياسر إلى بلاد الشرق الأقصى أو الشرق الجنوبي وعلى أية حال فإن الذي وضع قصصه سواء كان أصلها قد رواه السندباد إن كان السندباد نفسه حقيقة واقعة أو رواها من كتبها بعده فانه كان لتأثير ما في نفوس واضعيهـا عن البحر الجنوبي وبلاد الزنج وما بعدها أثر كبير .

وإذا لم يكن السندباد أو من اّستوحيت قصصه من رحلاته يتجه إلى هذه الجزر وما قرب منها إذا لم يتجه إلى الشرق فإلى أين يتجه بقصده أو بخياله إن كان الأمر في قصصه كلها خيالاً في خيال ؟ أتكون وجهته إلى إيرلندا أو أيسلندا ؟ أو تكون في ترينداد وما قرب منها من البلاد ؟ إن ذلك غير وارد .

لندع السندباد ومازار من البلاد ولنقص قصة هذه الرحلة إلى هذا الركن النائي بجانبه عن بلادنا في الشرق الأوسط أو لنقل إلى تلك الزاوية المجهولة لدى أكثر السكان في البلدان العربية حتى إن أسماء بلدانها لا يعرفها إلّا بعض المثقفين . أما ما وراء ذلك من الحقائق عنها فهو إلى أن يلج باب المجهول أقرب

من أن يكون فيه شيء من المعلوم .

وسيكون الطريق في الذهاب والإياب إلى نيروبي أو دار السلام — إذاً ستكون هذه الرحلة والطريق المقصود منها إلى بلاد النصف الجنوبي من الكرة الأرضية وهو نصف ليس بذي حظ عظيم عند بني الإنسان وليس أدل على ذلك من أنهم قد جعلوه أسفل الأرض عندما صوروها كرة مجسمة متدحرجة وعندما رسموها على الورق كرة ذات خطوط لطولها وعرضها .

وليس هذا الأمر من فعل المحدثين وإنما هو عريق قديم فالمسعودي المؤرخ رحمه الله تكلم على إقليم سفالة التي تعني الإقليم الأسفل ويريد به بعد ما كان يسمى بسواحل بحر الزنج ، ولا غرو في ذلك لأن الذين وضعوا القسم الشمالي في أعلى العالم ووضعوا القسم الجنوبي في أسفله هم كانوا أهل النصف الشمالي كما حكى عن بعض النساء اللاتي كن يسمين المناديات بمساواة المرأة بالرجل في مصر في منتصف هذا القرن الميلادي الحالي كن يقلن يجب إلغاء نون النسوة لأن الذين وضعوها في اللغة هم الرجال إذ لم يكن من النساء لغويات كما في الرجال وليس المقام هنا مقام إيراد ما رد به بعض الرجال على النساء من قولهم حتى إذا محونا نون النسوة من اللغة فماذا نصنع بما خصت به النساء مما ليس في اللغة ؟

لندع هذا الأمر جانباً ولنقل إنّ للشماليين أي سكان النصف الشمالي من الأرض أن يقولوا إن النصف الجنوبي منها لم يساهم في الحضارة الإنسانية بما ساهم به النصف الشمالي ففي ميدان الفلسفة والمذاهب الاجتماعية لم ينتشر في الأرض مذهب أصله من جنوبها كما انتشر فيها مما هو أصله شمالي ولا قريب من ذلك .

وحتى الأنبياء أو الرسل أصحاب الرسالات المشهورة لم ينقل أن أحداً

منهم هو من جنوبي الأرض بعد خط الاستواء .

والمذاهب الاجتماعية المعاصرة كالرأسمالية الغربية والديمقراطية البرلمانية والاشتراكية كلها أصلها من الشمال حتى النفط (البترول) الذي يسير المدنية أكثره من النصف الشمالي من الأرض والذي في النصف الجنوبي منه قليل هذا بالنسبة للنفط نفسه أما بالنسبة للانتفاع بالنفط أي : استخراج ما ينفع الناس منه فان النصف الشمالي من الأرض هو الرائد في هذا الأمر ولا يزال له القدح المعلى فيه .

والاختراعات الفاصلة من الطائرات إلى السيارات بل إلى تفجير القنبلة الذرية والصواريخ التي هبطت براكبيها على القمر كلها من صنع النصف الشمالي .

وللجنوبيين أن يقولوا إن هذه المقارنة بين الشمال والجنوب يصح أن تصدق على المقارنة بين العالم القديم والعالم الجديد في أمريكا الشمالية منذ مائتي عام ويصح أن يكون العالم القديم هو الرابح فيها في ذلك الحين ، ولكن أنظروا الآن إلى ما حدث ان العالم الجديد يتقدم في الفنون العلمية الحديثة وفي الأمور المادية . وهذا قد يصدق على عالمنا الجنوبي بالنسبة إلى العالم الشمالي فيما يأتي من الأيام .

ولكن ما علينا نحن الزائرين العابرين بإذن الله من هذا الأمر وإنما لنا من هذه الأقطار أن نأخذ منها ما يمكننا أخذه لمصلحة ديننا الإسلامي الحنيف بالدعوة والمساعدة على نشره .

لنأخذ ما نجده من صداقات مخلصة وأهداف برئية وطبيعة فطرية قل أن يوجد مثيلها في الشمال ، لنأخذ منها في هذه الرحلة لنا نحن الذين أناخ علينا البرد بكلكله في الشمال حين أطبق علينا فصل الشتاء شيئاً من دفئه ولا بأس في

أن يكون معه شيء من حرها في هذا الفصل الصيفي المناقض لفصل الشتاء في بلادنا .

من جـدة إلى نيروبي :

لم يمض على وصولي إلى جدة من الرياض أكثر من ساعة واحدة حتى دخلت قاعة المسافرين في مطار جدة استعداداً للسفر إلى نيروبي وكنت قبل ذلك في الرياض قد أشفقت ألا أسافر إلى جدة ذلك بأنني في الرياض اخترت من الرحلات المسافرة إلى جدة واحدة هي أقربها وقتاً إلى الرحلة إلى نيروبي ولكن لشد ما أسفت حين أعلن المذيع أن تلك الرحلة قد تأجلت ساعة واحدة فاشفقت من ذلك وخشيت أن تفوتني الطائرة إلى نيروبي وهي لا تقلع مباشرة إلى نيروبي إلّا مرتين في الأسبوع وأنا ذاهب في مهمة طبيعتها محددة . وبينما كنت أراود نفسي في أن أذهب إلى المسؤولين في مطار الرياض وأخبرهم بأمري عسى أن يبحثوا لي عن طائرة أسرع إذا بي أسمع المذيع يقول : إن الرحلة ٧١١ وهي التي تقوم قبل رحلتنا إلى جدة قد ألغيت وأن على الذين لديهم بطاقات عليها أن يراجعوا مكتب الرحلات المتتابعة لأهمية الأمر ، فأيست من السفر ولكن لم يمض غير خمس وثلاثين دقيقة حتى أعلن المذيع علينا نحن ركاب رحلة (٨٩٩) المتجهة من الرياض إلى جدة أن نستعد للصعود إلى الطائرة .

وهكذا كان . وكانت طائرة الخطوط السعودية من طراز بوينج ٧٣٧ وقائدها هو سعودي اسمه (أحمد زهران) وكانت الدرجة الأولى مليئة كلها بركاب من السعوديين ما عدا كورياً واحداً . أما المضيفان فهما فتى سعودي وامرأة أوروبية أظن أنها انكليزية ولكن قامت بالخدمة كلها تلك المرأة بنفس مستبشرة ، ووجه باش هاش . ووصلنا إلى جدة في الساعة السادسة والنصف وفي الوقت فسحة .

ومن خلال مروري بالجوازات والتفتيش والخروج إلى الطائرة وركوب الحافلات لم أجد في موظفيها ما هو مصدر فخر لنا ما عدا شيئاً واحداً هو الأمن المطلق ولله الحمد . أما ما يتعلق بمعاملة الموظفين في تلك الأماكن كلها فهو إذا قورن بمعاملة الموظفين في البلدان الأخرى المتقدمة إدارياً فإنه لا يساوي في ميزان الحسنات شيئاً كثيراً .

تحركت الطائرة الباكستانية من مطار جدة الدولي قاصدة مدينة نيروبي رأساً وبدون توقف في تمام الساعة التاسعة والثلث ليلاً وأعلن المذيع فيها أن الرحلة ستستغرق ثلاث ساعات وخمساً وعشرين دقيقة .

كانت الخدمة متوسطة تقوم بها فتاة واحدة باكستانية اللباس تركستانية الملامح . أما العشاء فكان بالنسبة لعشاء الدرجة الأولى متوسطاً .

وكان الركاب في الدرجة الأولى أربعة من الأوروبيين واثنين من العرب هما كاتبه وتاجر من جدة وإفريقي واحد ولم يكن في الدرجة الأولى كلها إلا ثمانية مقاعد مع أن الطائرة من طراز بوينج (٧٠٧) .

ولم يكن معي في هذه الرحلة أحد من الرفقاء فكنت لوحدي وأسأل الله تعالى التوفيق . ولم يكن في الطيران أي متعة إذ كان كله في الليل . وعندما دخلنا مجال قارة إفريقيا أصبح الجو غائماً تحتنا ولكننا كنا نطير فوق السحاب في جو صاحٍ ، قمره ساطع ونجومه طالعة .

في مطـار نيروبـي :

في الساعة الواحدة إلا ثلثا بعد منتصف الليل هبطت الطائرة في مطار نيروبي ولم تكن أنوار المطار ساطعة بالقدر الذي كنت أعرفها به عندما تركتها لآخر مرة في عام ١٩٦٦م وكذلك الحال بالنسبة إلى داخل بناية المطار ولا

أدري أذلك حقيقي أم أنه ناشيء من كون بلادنا قطعت في هذه المرحلة أشواطاً في التقدم المادي لم نعرفها من قبل وكوني أنا قد زرت بعد رحيلي آخرة مرة من نيروبي معظم أنحاء العالم . وذلك بأن مطار نيروبي كان يبهرني في ذلك الحين أما الآن فقد رأيته صغيراً متواضعاً وإن كان لا يزال نظيفاً رشيقاً .

وأول ما دخلنا المطار وجدنا ثلاثة مكاتب متقدمة كتب على كل واحد منها (مكتب الصحة) وكان حظي مع جماعة من رفقاءنا في الطائرة أن وقفنا على مكتب فيه إحدى الفتيات الإفريقيات فسألتنا : من أي مكان قدمنا ؟ فقلنا : من جدة فأخذت جوازاتنا وتركتها دون أن تنظر فيها أو في البطاقات الصحية الصفراء التي معها . وهكذا أخذت تجمع من الجوازات حتى قاربت الخمسة عشر جوازاً ولم تحدثنا بشيء فلبثنا فترة واقفين ولما سألناها فالحفنا بالسؤال أجابت : سوف نجري عليكم إجراءاً ضد الكوليرا فلم نحر جوابا ولكننا رأينا أكثر من ثلثي الركاب الذين كانوا معنا في الطائرة قد دخلوا إلى الجوازات والجمرك ، ولم تؤخذ جوازاتهم ولم يلقحوا .

أما نحن فبعد فترة ظللنا فيها واقفين جاء موظف وذهب بجوازاتنا بمرافقة تلك الفتاة عبر ممرات في المطار حتى وصلنا إلى ركن فيه حجرة للتطعيم انتظرنا على بابها أكثر من نصف ساعة دون أن يكلمنا أحد .

ثم أدخلونا وأعطوا كل واحد منا أربع حبات من الدواء أظنها مطهرة . أمروه ببلعها وكتبوا باسم كل واحد من واقع جوازه ورقة أعطوه إياها وتركوا الجوازات معهم ثم عادوا بنا مرة ثانية إلى مكتب الصحة في المطار فوزعوا علينا جوازاتنا وقد استغرقت هذه العملية أكثر من السعة ونحن وقوف خلالها إذ لم يكن يوجد كراسٍ في ذلك المكتب .

ومن مكتب الصحة ذهبنا إلى الجوازات ولم يكن على جوازي أي غبار إذ

هو جواز خاص وأنا أحمل فيه تأشيرة خاصة من السفارة الكينية في جدة ومع ذلك أعطاه الضابط المختص إلى ضابط آخر كان واقفاً حوله ، فأخذني هذا إلى ركن في المكان خالٍ وأخذ يسألني ويغالط في أشياء ثم عاد به إلى صاحبه فختمه ومنه انتقلت إلى ضابط الجمرك في المطار . وكانت المفاجأة إنه كلمني باللغة العربية مع أنه من أهل البلاد فسألني أمعك هدايا ؟ فقلت : لا ، إلا بعض التمر وإذا أردت أن أعطيك منه أعطيتك . فضحك وقال : شكراً ، وأمر أحد الحمالين أن يحمل حقائبي ويخرجها دون أن يفتش شيئاً منها .

ولكن الله سلّم :

حدثونا عن الأمن المتدهور في أكثر الأقطار الأفريقية وبخاصة في الليل .

عندما خرجت من المطار كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل وليس معي مرافق ولا يوجد إلاّ سيارات (التاكسي) التي هي نفسها خطر من الخطر إذْ ما الذي يمنع السائق إذا انتصف الطريق أن يحيد جهة اليمين أو اليسار ويهدد الراكب بأن يعطيه ما معه أو يؤذيه حتى يأخذ ما عنده ؟

ولكن لا سبيل غير ذلك وتوكلت على الله ، ودعوت الله أن يسلمني وركبت سيارة أجرة يقودها شاب إفريقي وانطلق بي وحدي ، ولم يقابلنا طول الطريق إلا سيارة واحدة قرب المطار ولم نسمع حركة ، ولم نر مروراً في الشوارع البعيدة وكانت قيادته هادئة رزينة وأنا أحب القيادة الهادئة الرزينة إلّا أنني في هذه الساعة تمنيت أن يسير بأقصى ما يستطيع حتى أبعد عن نفسي هاجس القلق الذي ساورني .

ووصل إلى المدينة واخترق ضواحيها التي أعرفها حتى وقف على باب الفندق الذي قصدته وهو فندق (نيو ستاتلي هوتيل) فقلت له ، إنني لم أحجز

لذا أخشى ألا أجد غرفة فيه فينبغي أن تدخل معي للفندق قلت ذلك لئلا أتركه مع حقائبي فقال الأفضل ألا نترك الحقائب في السيارة وأن ندخلها معنا وإذا لم نجد في الفندق مكاناً نعود بها إلى السيارة .

فسألت الموظف الذي في الاستقبال في الفندق وقد بلغت الساعة الآن الثانية والنصف بعد منتصف الليل فأجاب بأن الغرفة موجودة فأسرعت في صرف عدد من الدولارات من الفندق وأعطيت السائق الأجرة التي طلبها شاكراً له من دون أن أستنزله شيئاً وهي ثمانون شلناً كينياً أي : تسعة وثلاثين ريالاً سعودياً مع أن المسافة بين المطار والفندق لا تزيد على ١٨ كيلومتراً .

وطلب كاتب الفندق أن أدفع أجرة ليلة على الأقل مقدماً وقال : إنها ثلثمائة شلن كيني أي مائة وثمانية وأربعون ريالاً سعودياً أو أربعون دولاراً فأعطيته إياها بالدولارات طبعاً وصرف الفندق أقل من الصرف العادي ، ولما دخلت الغرفة نظرت في بيان الأجرة المقررة فإذا بها ٢٧٢ شلناً وإذا به أخذ لنفسه زيادة ٢٨ شلناً . كما أن الصراف في الفندق كان يأخذ النقود المعدنية التي تكون مع الحساب بعد أن يقدمها لي ، ولكنني رضيت بذلك بمثابة الحلوان (البخشيش) له .

ومنذ وصول المطار حتى دخولي الغرفة لم أشاهد موظفاً ولا موظفة من غير الإفريقيين السود . وهذا من التطور الذي حدث أثناء غيابي عن نيروبي إذ كانت نسبة غير السود بين الموظفين في السابق كبيرة جداً .

وأغلقت باب غرفة الفندق على نفسي وأنا أحمد الله على ذلك .

يوم الجمعة ١٣٩٨/١/٢٠ هـ الموافق ١٩٧٧/١٢/٣ م .
هل العود أحمد يا نيروبي .

منذ أن استيقظت متأخراً هذا اليوم لأنني نمت متأخراً وأنا مشتاق إلى رؤية ما تركته في نيرُوبي قبل اثنتي عشرة سنة ومن ذلك (مقهى نيو ستانلي) وهو المقهى الملحق بفندقنا هذا وكنت أتردد عليه وأنشأت فيه قصيدة ذكرت قصتها في كتابي : «**في إفريقية الخضراء**» .

فسارعت إلى الجلوس فيه وشرب الشاي ومراقبة ما جد عليه ، وما تغير فيه . ثم ذهبت مشياً على الأقدام إلى منطقة (رفر رود) التي يقع فيها الفندق الذي أعتدت أن أسكن فيه في السابق لأن صاحبه أخ عربي أمين كريم هو الأخ محمد سعيد من حضرموت .

ومن منطقة (رفر رود) قمت بجولة على بعض نواحي وضواحي مدينة نيروبي بصحبة صديقي سالم جيزان وهو عربي متجنس بالجنسية الكينية وصاحب مطاعم ومحلات للنوم في نيروبي وذلك للمقارنة بين ما كانت عليه ، وما هي عليه الآن .

وعندما عدت إلى فندق (نيو ستانلي) أخذت أقارن وذكرت وأنا أفعل ذلك في ذهني مثلاً عربياً قديماً يقول : (ما قُرعت عصا على عصا إلا حزن لها قوم وسُرَّ لها آخرون) فمن الذين حزن لوضع نيروبي اليوم ؟ ومن الذي سُرّ بذلك ؟

نيروبي في الوقت الحاضر أقلّ أمناً وأضعف إنفاذاً للقانون مما كانت عليه في عام ١٩٦٦ م بل إن الأمن بالنسبة للأجنبي الأبيض يكاد يكون معدوماً إلّا في نطاق بقعة محدودة المساحة جداً من قلب العاصمة نيروبي ، وتحت حراسة مشددة من الشرطة . لذلك لا يستطيع السائح التجول بحرية بمفرده في كل أنحاء المدينة حتى في النهار لأنه قد يقابل من يسلبه ما معه حتى ساعة يده . هذا

إذا كان حظه حسناً ولم يسلب إلا نقوده وما يحمل مما له ثمن .

والأمن بالنسبة إلى كل الناس هو أهم شيء في الحياة الهادئة المطمئنة إذْ بدون الأمن لا قيمة لما يملكه الإنسان .

ومن المتناقضات العجيبة أن رجال الشرطة في زمن الاستعمار الانكليزي لهذه البلاد كانوا مسلحين بالعصي ولم تكن الأوامر تسمح لهم بأن يحملوا السلاح . وأن الشرطة في الوقت الحاضر وقد مضى خمسة عشر عاماً على الاستقلال مسلحون بالمسدسات ومع ذلك فإن هيبة رجل الشرطة في السابق كانت أكبر ، وسلطانه أعظم ، وكان يكفي من يحاول أن يسيء إلى الآخرين أن يهدد بإبلاغ الشرطة أو برفع أمره إلى الحكومة لكي ينكص عن فعله ، ويعدل عن إساءته . أما الآن فان سمعة السلطة لا تخيف أحداً ، ورفع الأمر إلى الحكومة ، ليس له قوة الردع عن الإساءة ، مع أن السجون غاصة بالمخالفين والمعاقبين ولكن قيل لنا إن الوساطة والميل نحو القبيلة أو المجموعة البشرية التي ينتمي إليها المسيء أو من يفترض أنه سيعاقبه كل ذلك له وقعه في عدم نزاهة الأوامر والنواهي وبالتالي عدم صرامتها .

إذاً حالة الأمن تردت بالنسبة إلى ما كانت عليه فمن الذي استفاد من ذلك ؟ الجواب : لا أحد يستفيد من ذلك إلا من لا يملك شيئاً فإن ضرره يكون أقل من غيره ، وإلا من يخرج على القانون .

وهناك مقارنة ثانية : وهي النظافة في الشوارع والعناية بالأرصفة ، والنضارة في الأشجار العامة والحدائق . وترتيب زهور الزينة . فهي الآن أقل مما كانت عليه بمراحل وفي بعض الأحيان تكاد تعدم كالأزهار التي كانت موجودة في بعض الأماكن العامة .

وذلك أمر لا يستفيد منه إلا من وكل إليهم القيام عليه فهم بإهمالهم له قد

يستفيدون الراحة من عناء العمل والتعب في ملاحظته .

ومقارنة ثالثة وهي المتعلقة بألوان السكان فقد كانت نيروبي بالذات بمثابة المدينة التي تتعايش فيها الألوان تحت سلطة القانون ، دون أن يحاول لون أن يمحو اللون الآخر . فكنت ترى الأوروبي إلى جانب الأسيوي وحولهما الإفريقي أو قل إنك كنت ترى اللون الأبيض واللون الأسود وبينهما اللون الأسمر لا يطغى أحدهما على الآخر إلى درجة أن يحاول أن يمحوه من اللوحة .

أما الآن فقد كاد اللون الأسمر أن يمحى وانحصر اللون الأبيض في بقعة معينة من العاصمة لا يجرؤ على أن يمتد إلى غيرها .

وكنت أتمشى في منطقة ريفر رود التي كنت ساكناً فيها في عامي ١٩٦٤ ــ ١٩٦٦ م وكانت تكاد تكون سمراء خالصة فيها العرب والهنود وقد أصبحت الآن كلها سوداء حتى فندق (شان هوتيل) الذي كان يديره مع المطعم الملحق به أخونا محمد سعيد قد وصلته الأفرقة كما وصلت غيره وغادره الأخ محمد سعيد الحضرمي .

ولو ذهبنا نحاول أن نحصي بالأرقام الفرق بين الماضي والحاضر بالنسبة إلى أجناس السكان الذين كانوا في نيروبي لم نستطع ذلك بالضبط لأنه يحتاج إلى إحصاءات شاملة دقيقة ليس من شأن هذه الانطباعات العابرة الحصول عليها إلا أنه يمكن من باب التقريب والتقدير أن نقول :

إنه لم يبق من العرب الذين كانوا في نيروبي الا حوالي ١٥٪ ولم يبق من الهنود إلا حوالي ١٠٪ أما الأمن لهؤلاء وأمثالهم فلم يبق منه إلا أقل من ذلك بكثير .

وأما الأوربيون فقد خرجوا إلا أفراد عاملون من وراء الستار يحركون

الأحداث ، ويوجهون السياسة يعاونهم في ذلك بعض اليهود الذين يرمون إلى غايات بعيدة من النفوذ لقومهم ، ورسم الخطط التي تساعدهم في المستقبل . وما حادث الإغارة على مطار عنتبة في يوغندا ببعيد عن الأذهان فلولا نفوذ اليهود والانكليز في كينيا لما استطاعت القوة اليهودية أن تنزل في مطار نيروبي ، وتقلع منه قبل أن تنفذ عمليتها وبعدها ، بل ربما كانت تفاصيل العملية قد رسمت في كينيا .

ولنعد إلى المثل العربي القديم (ما قُرِعت عصا على عصا الا حزن لها قوم وسُرّ لها آخرون) وتفسيره : ما وقعت حادثة صغيرة أو كبيرة إلا سر لها قوم واستاء لها آخرون فنتساءل : من الذي سُرّ لاختفاء الألوان وسيء لغلبة اللون الأسود ؟

لا شك بأن الوطنيين الافريقيين سيكونون مسرورين بغلبة اللون الأسود لأنه لونهم ولأن هذه البلاد هي بلادهم ومن حقهم أن تكون الغلبة لهم ولكن : أيستطيعون وهم في هذا المستوى من عدم الخبرة العملية بشؤون الإدارة أو من عدم التربية الوطنية أن يبنوا بلادهم وحدهم ؟

لا شك في أن الإجابة ستكون بالنفي . ولذلك يمكن القول بأن البلاد قد تأخرت في بعض المجالات الإدارية ولكن يمكن توجيه السؤال وجهة أخرى ، وصوغه صياغة أعم وأشمل وهو : هل الأغلبية في هذه البلاد أكثر سعادة الآن ؟ أعتقد أن الإجابة ستكون بنعم ، فالمرء إذا تولى شؤون نفسه بنفسه يكون أسعد حالاً ولو كان العائد المادي عليه أقل مما لو تولى شؤونه غيره .

أما إذا اتجهنا بسؤالنا وجهة أخرى وهي : هل الأفريقيون الآن أكثر تمتعاً بالخيرات المادية مما كانوا عليه في الماضي ؟ فان الجواب لن يكون بالنفي أو الإيجاب بصفة مباشرة إذْ أصبح نفر محدود منهم أكثر تمتعاً بالخيرات ، والمراكز

والنفوذ أما الأكثرية فلا شك في أنهم لم ينالوا شيئاً من ذلك ، وإنما نالوا تمتعاً معنوياً بكون أبناء جلدتهم هم الذين يتعاملون معهم بصورة مباشرة ، وهم الذين يسيرون أمور بلادهم فيما يظهر لهم .

وإذاً يسقط السؤال الآخر الذي قد يتبادر إلى الذهن في هذا المجال وهو : هل رحيل الاستعمار بخبرته المادية التعميرية خير لأفريقية في هذا الظرف الذي لا يملك الأفريقيون فيه الخبرة الكافية لإدارة شؤون بلادهم أم لا ؟

إن الخيرية هنا أمر يتعلق بالشعور والإحساس ، أي بالرضا والكراهية وليس بالمقياس المادي المجرد وحده .

ويصل الأمر أو قل يصل السؤال إلى الزائرين العابرين فيقول : هل الأفضل لهم ما كانت عليه البلاد سابقاً ، أم ما أصبحت عليه لاحقاً حتى الوقت الحاضر ؟

والجواب : دون تردد أن الأفضل لهم هو ما كانت عليه سابقاً لأن الأمن كان أشمل ، والإدارة كانت أرقى وأحزم في كثير من الأحوال .

ولذلك كان عنوان هذه المقالة (هل العود أحمد يا نيروبي ؟) صحيحاً بالنسبة لهم ولأمثالهم في أكثر الأحوال .

الأهـواء المتفرقـة :

وأقرب مثل على ذلك نضربه هو أن أقطار شرقي أفريقية الثلاثة : يوغندا وكينيا وتنجانيقا كان يشملها إتحاد جمركي واتحاد للنقل واحد بل اتحاد في أمور كثيرة فكانت طائراتها متحدة تحت إدارة شركة شرق أفريقية للطيران وكنت إذا دخلت بلدا منها ثم خرجت منه إلى بلد آخر لا تفتش حقائبك حتى التأشيرة إلى بلد كانت تكفيك للبلد الآخر .

أما الآن فقد ذهبت اليوم إلى وكالة للسفر أطلب منها أن تحجز لي إلى (مروني) عاصمة جزر القمر فأخبرني الموظف أنه لا توجد طائرة تسافر من كينيا إلى مروني إلاّ مرة واحدة فقط في يوم الاربعاء ولم يكن ذلك مناسباً لي لأنني يجب أن أحضر مؤتمراً في موريشيوس يوم الخميس ولا توجد رحلة في ذلك اليوم وهناك رحلات مناسبة من دار السلام إلى مروني ولكن : كيف الوصول من نيروبي أو من ممباسا المجاورة إلى دار السلام ؟

إن ذلك أبعد من الوصول إلى بلاد أخرى في قارة بعيدة لأن جميع أنواع المواصلات البرية والجوية والبحرية مقطوعة بين البلدين حتى بالنسبة للأجانب والشركات الأجنبية .

والأسباب متعددة وكلها ناشئة عن اختلاف الأهواء أو اختلاف نفوذ الأجانب في تلك البلاد ففيما يتعلق بالطيران قيل لنا : إن كينيا استولت على أكثر الطائرات التي كانت مشتركة ما بينها وبين تنزانيا ويوغندا في شركة شرق أفريقية للطيران سابقاً ، وهذا من الأسباب المباشرة في هذه الأزمة .

أما الأسباب الناشئة عن النفوذ الخارجي في تلك الدول فان الناس يقولون : إن كينيا يسود فيها نفوذ الانكليز واليهود والأمريكيين وفي يوغندا نفوذ العرب ، وفي تنزانيا نفوذ بعض الدول الشيوعية واليسارية .

وأياً كان التعليل فان المرء لا يستطيع أن يصل من نيروبي إلى دار السلام إلا عن طريق عاصمة أجنبية مثل أديس أبابا أو **تاناناريف** عاصمة مدغشقر .

واضطررت لذلك إلى أن أغير اتجاه تذكرتي بحيث تكون من نيروبي إلى تاناناريف ومنها إلى رينيون ثم موريشيوس أما موروني عاصمة جزر القمر فسوف أحاول أن أجد وسيلة للوصول إليها بعد مورشيوس . ولكن المشكلة في أنه لا بد من التأخر يوماً عما أرغب فيه .

وبعد هذا الحديث عما كانت عليه نيروبي وما هي عليه الآن وهو بطبيعة الحال يصح أن تكون مثالاً لغيرها من الأقطار الأفريقية المجاورة من أكثر الوجوه يتبادر إلى ذهني قولة محدثة أخذت تتردد على أفواه بعض الاقتصاديين الدوليين وهي أن الدول الغنية تزداد غنى والدول الفقيرة تزداد فقراً ولكن على وجه آخر وهو أن نقول : إن الدول السوداء تزداد سواداً والدول البيضاء تزداد بياضاً ذلك بأن غير السود في الدول السوداء غادروها ويغادرونها وأن هجرة السود إلى البلاد البيضاء وبخاصة التي كانت ذات مستعمرات سوداء قد توقفت لأن السود كانوا في السابق يذهبون إليها بصفة كونهم رعايا من رعاياهم ويقيمون فيها ما شاؤا أن يقيموا وقد انتهى ذلك الآن .

وماذا عن الدعوة الإسلامية ؟

لا بد أن يرد هذا السؤال على ذهن المهتم بالدعوة الإسلامية حين يسمع ما قلناه والجواب أن ذلك في صالح الدعوة الإسلامية بلا شك بشرط أن يكون القائمون على الدعوة هم من أهل البلاد ذلك بأن الدعوة الإسلامية ، كانت **قائمة ومستمرة في زمن الانكليز ، ولم يكن الانكليز يمنعون الإنسان من التمسك بدينه أو الدعوة إليه ، ولكن كان وجودهم مشجعاً عظيماً** للدعاة إلى النصرانية لأنه كان يتوفر لهم تحت ظلهم الحماية والأمن بل والتسهيلات في ذلك ، أما بعد خروج الرجل الأبيض فان ذلك أخذ يقلّ بطبيعة الحال بالتدريج وربما يأتي عليه يوم يقرب فيه من الانقراض تبعاً لتلاشي وجود الساكنين بين السود من غيرهم من الالوان فيبقى الدعاة إلى النصرانية من أهل البلاد فقط وهؤلاء يكون تأثيرهم محدوداً لأنهم لم يهضموا الديانة النصرانية وبالتالي لا يسعون في نشرها كما يفعل البيض ، ولأن إمكانات التخطيط والإدارة عندهم أضعف من البيض بطبيعة تعليمهم . والوسيلة المثلى لنشر الدعوة الإسلامية في إفريقية في الوقت الحاضر هي أن تكون بأيدي

المواطنين الأفريقيين وذلك بأمرين :

أولها : تعليم أكبر عدد ممكن من أهل البلاد أنفسهم وتدريبهم على الدعوة لأنه لا يستطيع أحد أن يخرجهم من البلاد أو أن يحد من اختلاطهم بأهلها .

وثانيهما : وهو مهم في هذه المرحلة أن يبتعث من أهل البلاد الافريقية الأخرى الأكثر معرفة بالإسلام وتمرساً بشؤون الدعوة إلى البلاد المحتاجة فيرسل على سبيل المثال من السودانيين والصوماليين من يساعد على نشر الدعوة في كينيا أو يوغندا . ومن تشادومالي إلى جمهورية إفريقيا الوسطى والكنغو وزائير إلخ .

هذا إلى جانب تشجيع القائمين على الدعوة من أهل البلاد وهم كثير وان كانت وسائلهم محدودة التأثير من بعض النواحي فان إخلاصهم لله ومحبتهم لنصرة دينه ، ومثابرتهم على ذلك وعدم انتظارهم لعائدة مادية من ورائه مما يجعل لعملهم الأثر الكبير على مدى الأيام .

وقد حصلت الآن شواهد كثيرة على ذلك بأنْ غلبت جهود بعض الدعاة الأفريقيين في بعض المواطن جهود جماعات كبيرة من دعاة النصرانية الأوروبيين رغم إمكاناتهم الكبيرة ، وجهودهم الضخمة (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

يوم السبت ١٣٩٨/١/٢١ هـ ٧٧/١٢/٣١ م .

الأمن أيضاً :

اتصلت هاتفياً بأحد إخواننا العرب ممن يحملون الجنسية الكينية ، ويحملون معها على وجوههم شيئاً مما فعلته الشمس الإفريقية من سمرة قاربت أن تصل إلى حد السواد وهو يسكن في منطقة ليست بعيدة جداً عن فندقنا إلا

أنها في محل جميع أهله من الإفريقيين فقلت له : إنني أريد أن أحضر إليك مشياً على الأقدام فأنا ليس لدي شغل وأحب المشي للمشي ولأنه يمكنني من أن أستعيد ذكرى المرور مع هذه الأمكنة ، فاستنكر ذلك ، وقال : هذا لا يجوز أن يكون ، فسألته عن السبب ؟ فقال : إنه الأمن ، إنك رجل واضح من لونك ومظهرك أنك غريب ، ولذلك أنت معرض للاعتداء .

قلت له : بماذا ؟

قال : بالسرقة وقد يكون مع السرقة إيذاء .

قلت له : إنني لن أحمل من النقود ما أخاف عليه : فقال : هذا لا يمنع ، لأنهم قد يسرقون من الغريب ساعته ، وقد يؤذونه أيضاً .

فسألته ما العمل إذاً ؟ فأجاب أن أمر بك فأحملك بسيارتي إلى ما تريد ، وهكذا قمت معه بجولة على عدة أماكن وتأكد لي ما لاحظته من قبل وهو أن (أفرقة) الوظائف والتجارة بل الأعمال على درجة الإجمال سارت على وجه مرسوم متدرج ، حتى تم أكثرها من دون ضجة عالمية كالتي حدثت عندما أخرج الرئيس عيدي أمين الآسيويين من يوغندا وبدون ثورة مسلحة مدمرة كالتي فعلها الزنجباريون بالعرب العمانيين هناك . وسألت أخانا العربي عن عمله في ظل الظروف الحاضرة فقال : إننا نحن العرب الذين حصلنا على الجنسية الكينية قد أصبحنا في حال أحسن من الحال السابقة في عهد الإنكليز ذلك لأن الهنود والأسيويين قد خرج أكثرهم فخلا ميدان التجارة المتوسطة منهم فاقتسمناه مع الوطنيين الأفريقيين .

قال : وقد أحصيت ما عندي الآن بالنسبة لما كان عليه زمن الاستعمار فإذا بي قد زادت ثروتي أضعافاً مضاعفة واتسع ميدان العمل أمامي الآن . كما أنني لا أخشى أن أطرد من البلاد لأنني مواطن كيني ولذلك بنيت منذ أقل من

خمس سنوات بيتين جديدين في نيروبي أحدهما بالحجارة ، والآخر بالاسمنت المسلح .

قال : وأما بالنسبة للعرب والآسيويين الذين لم يمنحوا الجنسية الكينية من قبل وإنما بقوا في كينيا بالإقامة فان الأمر صعب جداً بالنسبة لهم ، ذلك لأنهم لا بد أن يخضعوا لشروط كثيرة قاسية منها ما هو مشروع ظاهر كالضرائب ، ومنها ما هو مستتر ولذلك خرج أكثرهم .

وعندما عدت إلى فندق «نيو ستانلي» الذي أسكن فيه نازعني حب الاستطلاع إلى أن أذهب وحدي إلى تلك المنطقة ماشياً على قدمي كما كنت أفعل من قبل متحدياً تحذيرات الذين حذروني فأخليت جيوبي من النقود إلا ما لا غنى عنه ولا يضر فقده ، ووضعت ساعتي في غرفتي . وقلت في نفسي : إن من يريد أن ينتهبني لن يجد معي شيئاً ، وإذاً ماذا يستطيع أن يعمل بي ؟

وخرجت من الفندق ، وبعد حوالي مائة متر تقريباً لم أعد أرى الأوروبيين وإنما المارة كلهم من الأفريقيين وفيهم عدد قليل جداً من الأسيويين ثم بعد ذلك لم أعد أرى إلا الأفريقيين فقط ورأيت المتاجر التي كنت أعهدها عامرة بالهنود قد أقفرت منهم وخلفهم عليها المواطنون الأفريقيون .

وما زلت ماشياً حتى وصلت هدفي ، ولم يضايقني أحد فضلاً عن أن يعتدي عليَّ معتدٍ وقصدت أخانا العربي سالم جيزان في فندق يملكه في أسفله مطعم يديره يسمى (ياسين هوتل) فجلست عنده برهة .

المطعم يضيق بـرواده :

لمناسبة عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية وفد على فندقنا مجموعات

من الأوروبيين في رحلات خاصة مخفضة كما أخبروني ومع شركات سياحية معينة . ولذلك أمتلأ المطعم بالذين يريدون أن يتناولوا طعام العشاء وأصبحوا وقوفاً صفوفا ثم لما تعبوا من الوقوف جلسوا ، وكل يشفق من ألا يحصل على عشاء لأن التجول والبحث عن مطعم خارج الفندق في الليل أمر غير مأمون .

وزاد الأمر أن أقيمت حفلة لأعضاء السلك السياسي في نيروبي لا أدري من أقامها ، وقد اشتملت على تناول طعام العشاء والناس وقوف طول الوقت وذلك لمناسبة رأس السنة الميلادية .

أما أنا فقد كان لي في المطعم مشكلة خاصة تلك بأنني وحدي ولذلك يكون حجز مائدة خاصة في هذا الزحام أمراً صعباً . وكان أن حل المضيف الذي ينزل الناس على موائدهم في المطعم المشكلة بأن أجلسني مع شخص أوروبي وحيد مثلي على مائدة واحدة ، وقد حدثني هذا الأوروبي عن نفسه فقال إنه دانمركي جاء إلى هذه البلاد ضمن بعثة دانمركية من خبراء الزراعة . ثم اقترح عليّ أن نشرب القهوة في مقهى الفندق خارج المطعم ونتحدث قليلاً فأجبته الى ذلك .

وعندما كنا ننتظر القهوة أخذ يتحدث عن المشكلة الفلسطينية ، وموضوع اليهود والعرب وكان متأثراً بالدعاية الصهيونية ويظهر منه ذلك ، ولما سألته أأنت يهودي ؟ أجاب : لا ، ولكنني متزوج من يهودية .

وقد سألني هذا السؤال وعلى وجهه ملامح الانتصار وهو : ماذا يفعل العرب إذا نضب البترول بعد الثمانينات ؟ فأجبته : يفعلون ما كانوا يفعلونه قبل اكتشاف البترول . إنهم قد فتحوا الفتوحات ، وتغلبوا على أعدائهم وهم كانوا في حالة مادية متدنية .

فقال ، ولكنهم لا يستطيعون محاربة إسرائيل إذاً .

فقلت له : إن الفيتناميين قد حاربوا أمريكا وهم ليس عندهم بترول . وبعض الأقطار العربية لا تعتبر من الدول المصدرة للبترول مثل سوريا والأردن في الوقت الحاضر .

يوم الأحد : ٢٢ محرم ١٣٩٨هـ ١ يناير ١٩٧٨م

الحديقة التي أجدبت :

قطعت تذكرة من مكتب في الفندق لزيارة حديقة الحيوانات الطليقة التي اسمها (ناشنال بارك) وقيمة التذكرة مائة شلن كيني أي أكثر من ضعف ثمنها في عام ١٩٦٦ هـ وهذه الحديقة كنت قد زرتها من قبل واستمتعت بتلك الزيارة وقد كتبت ذلك في كتابي «في إفريقية الخضراء» فقلت لأجدد العهد بها ولأنظر ماذا فعلت السنون الاثنتا عشرة بها من تحسين مفترض .

وابتدأت الجولة في الساعة الثانية والنصف ظهراً حيث مرت عليّ خافلة صغيرة وفيها رجلان أميركيان فقط وسارت بنا الحافلة جهة الجنوب الغربي من نيروبي وأعدت النظرات إلى ضواحيها الجميلة ، ولم أعد النظر فيما قلته من قبل من أنها بالغة الجمال .

وعندما وصلنا بوابة الحديقة أوقف السائق السيارة وقال : يمكنكم أن تذهبوا للتجول على الحيوانات المحبوسة في حظائرها لمدة نصف ساعة تعودون بعدها إلى السيارة .

فكان أول ما رأيناه (الكركدن) أو الخرتيت أو وحيد القرن كما يسمى الآن وكان الجاحظ يسميه الثور الهندي فرأيناه يأتي على بقية طعامه دون أن يشبع إذ لم يبق منه شيئاً وكان مما ساءني أنني رأيت في جنبيه قروحاً عليها أكوام من الذباب تكاد تغطيها وهذا يدل على عدم العناية به .

ثم تجولنا على باقيها وليس فيها جديد ، وإنما هي تشبه الحيوانات في بعض الحدائق المعتادة كحديقة الحيوانات في الخرطوم بل تلك أحسن منها وأغنى بالمعروضات إن صح التعبير . وكل الذي فيها هو الآتي : أسود جمع أسد وضبع ، ودب أسود اللون ونمر وفهد وحمير الزرد ونيص — وهو نوع كبير من القنافذ ذو شوك يكسو جلده — وخنزير بري ، وعدد من القرود المختلفة الأنواع ومن أهمها بعض القرود الراقية إلا أننا رأيناها كلها وهي مشغولة بأكل طعامها بعيدة عن الاستعراضات .

ثم عدنا إلى السيارة ودخلنا إلى الحديقة لرؤية الوحوش والحيوانات البرية الطليقة . ولكن لم ننل ما أردناه فرغم تجوالنا مدة تقرب من ثلاث ساعات لم نر إلا قطيعاً من الغزلان وعدداً قليلاً من الوعول ، وثلاثاً من بقر الوحش وزرافتين على البعد . وكانت الشمس صاحية حارة وان كان الهواء بارداً إلا أننا كنا نضطر إلى إغلاق نوافذ السيارة بسبب الغبار المتطاير من الطرق غير المسفلتة في الحديقة في هذا الفصل الجاف الذي هو فصل الصيف في هذه البلاد .

لن أصف هذه الحديقة فقد وصفتها في كتابي «في إفريقية الخضراء» ولكنني رأيت شاهداً صغيراً على أن الحيوانات فيها أصبحت تذار أي لا تأمن وهو أننا رأينا طائراً كبيراً واحداً كنت قد رأيت في هذه الحديقة مئات منه إن لم أقل ألوفاً في عام ١٩٦٦ م وكلها كانت آمنة لا تطير ، ولكن هذا الطائر الوحيد عندما قربنا منه أجفل وطار . مما يدل على أنه قد فقد ما كان يشعر به من أمن فيها .

وفي طريق العودة للخروج من الحديقة رأينا على البعد أعداداً كبيرة من السيارات قد تجمعت في موضع واحد فقال السائق الذي هو الدليل في نفس

الوقت : إنهم لا بد أن يكونوا قد رأوا شيئاً فقصدناه ورأينا على البعد اثنين من الأسود رابضين ، وأخذ الإمريكيان في التقاط الصور لها أما أنا فلم أبال بذلك لما في ذهني عن هذه الحديقة من صور عن الأسود التي رأيتها فيها رائحة غادية وعن قطعان الجواميس البرية والحمير الوحشية والوحوش الأخرى ناهيك بالطيور المختلفة الألوان المتعددة الأنواع .

ولقد رأيت شيئاً لم أره من قبل وهو أن سائق سيارتنا وهو إفريقي من أهل البلاد كان إذا التقى بسائق سيارة أخرى سأله بالسواحلية التي أعرف كلمات منها فيجيبه بقوله : (هاكونا) أي لا شيء . ومرة سأل أحدهم فقال (موجا) أي : واحد ولكننا لم نر حتى ذلك الواحد .

وعدنا إلى الفندق وقد قاربت الساعة أن تتم السادسة مساءً دون أن نشعر أننا أخذنا مقابلاً لما دفعناه من النقود ولذلك نزل الأمريكيان من السيارة ولم ينفحا السائق شيئاً من الحلوان (البخشيش) أما أنا فقد دفعت إليه قليلاً لا يستحقه ولكنه رضي به وشكر .

وبينما كنت عائداً من الحديقة ورد على خاطري هذا السؤال : هل هجرت هذه الحديقة الأسود ، كما هاجر عن نيروبي الأوربيون والهنود ؟ وهو سؤال لا معنى له بطبيعة الحال . إذاً ما الذي جعل الوحوش التي كانت تعيش في هذه البلاد الإفريقية منذ آلاف السنين بل ربما كانت قد عاشت فيها قبل أن يعيش فيها الإنسان ، وهي في مكان آمن في هذه الحديقة فما الذي جعلها تقل وتندر فيه ، بعد أن كانت آمنة مستقرة ؟

لا أستطيع الجزم بإجابة محددة ولكن ربما كان للإهمال أو الجفاف دخل في ذلك والمؤكد أنه إذا فقدت هذه الحديقة حيواناتها ففقدت طابعها فان كينيا سوف تخسر خسارة سياحية لا تقدر بثمن ، وان الإنسان أياً كان موطنه

سيخسر خسارة علمية فادحة وسيخسر متعة في مشاهدة الحيوانات المتوحشة وهي متعة قلّ أن يوجد لها عديل عند أكثر الناس . ذلك بأنه عدا أن يشاهد الإنسان تلك الحيوانات طليقة ويتعرف على سلوكها وحركاتها وهي كذلك فانه يستعيد في ذاكرته الأيام السالفة عندما كان الحيوان يسير طليقاً غير بعيد من الإنسان لكون الإنسان في تلك العصور لم يخترع الأسلحة التي تصيد الحيوانات من قرب .

يوم الاثنين : ٢٣ محرم ١٣٩٨هـ ٢ يناير ١٩٧٨م .

رَنَّ جرس الهاتف في غرفتي في فندق نيو ستانلي في نيروبي عند الساعة الرابعة فجراً كما طلبت منهم ذلك . فأسرعت في حزم حقائبي وغادرت الفندق عند الساعة الخامسة على سيارة أجرة كان سائقها يغط في نومه عندما نبهه عامل الفندق الذي حمل حقائبي وكان كل شيء ساكناً في نيروبي في هذا الوقت أما السائق فهو إفريقي سمح الوجه ، شعرت معه بالاطمئنان رغم أنني وحيد في سيارته ، وسيارته وحيدة في هذه الشوارع . وكان القصد مطار نيروبي للسفر إلى تاناناريف عاصمة مدغشقر . إلا أن السائق لم يستطع الإسراع في السير بسبب الضباب الكثيف الذي يلف المنطقة .

وعندما وصلت المطار كان ساكناً سكوناً يكاد يكون تاماً وذكرت الحركة السابقة التي كان عليها عندما خرجت إليه في مثل هذا الوقت من الفجر عدة مرات قبل اثني عشر عاماً .

وسرعان ما انتهيت إلى قاعة العابرين التي هي قاعة المسافرين إلى الخارج إذْ لم يكن في الجمرك ولا في الجوازات غيري بل كنت سبباً في إيقاظ المسؤولين فيها فالمسؤول عن الجمرك قال لي أحدهم إنه سيذهب إليه ويحضره فلما حضر لم يسألني عن أي شيء إلا عن المبلغ الذي معي من النقود الكينية فأخبرته أنه

أربعون شلناً فقال : أأنت ستشتري بها شيئاً من قاعة الترانزيت ؟ قلت ، نعم ، فتركها وقد اشتريت بالفعل شيئاً بها .

أما ضابط الجوازات فلم أجد في مكتبه أحداً وكان مظلماً فطرقت المكتب بيدي فإذا به نائم في الأسفل فقام والنوم ملء جفنيه . ولما رأى جوازي سعودياً فرك عينيه مرة أخرى ولا أدري السبب ثم وضعه جانباً وأخذ يسأل أسئلة لا معنى لها بالنسبة إلى عمله كقوله إلى أين أنت ذاهب ؟ ولما نفدت الأسئلة قال ، أريد شيئاً ، ولما كان لا يستحق ذلك لم أعطه وذكرني فعله هذا بما كان يفعله ضباط الجوازات في مطار بومبي في الهند إذ كانوا يختمون جواز المسافر العربي ولكنهم يمدون أيديهم إليه يريدون أن يعطيهم شيئاً قبل أن يعطوه جوازه ، وهذا أمر لم أعهده في كينيا من قبل .

إلى مدغشقر :

ركبت طائرة الخطوط الجوية المدغشقرية عند الساعة السابعة والدقيقة العشرين صباحاً وهي من طراز بوينج ٧٠٧ والمعتقد أنها قادمة من أوروبا إلاّ أنني لم أر فيها عدداً كبيراً من الركاب وكانوا يتألفون من الأوروبيين الذين أثرت فيهم شمس المحيط في مدغشقر فصبغتهم بسمرة فاتحة أما أولادهم فقد رأيت بعضهم وكأنهم من البلاد العربية وفي الطائرة بعض الهنود وامرأة مالاقاشية من مدغشقر واحدة ، ولم أر فيها إفريقياً واحداً . أما الدرجة الأولى فليس فيها غيري إلا رجلان وامرأة فرنسية .

وكان أول ما يسترعي الانتباه هو شكل المضيفين والعاملين في الطائرة فكأنهم أهل الملايو بالفعل غير أنهم أصغر أجساماً ، وأكثر سمرة في الألوان . أما أدبهم وابتسامهم فهو أدب أولئك وابتسامهم على أنني لا أحق القول فيما

إذا كان الذين في الطائرة يمثلون الذين في الأرض .

وقد غادرت الطائرة مطار نيروبي في تمام الساعة السابعة والنصف مولية وجهها شطر الجهة اليمنى من الشرق وأعلنت المضيفة أن الرحلة ستدوم ساعتين وخمساً وأربعين دقيقة . وكانت تتكلم بالفرنسية ثم بالانكليزية إلاّ أنها كانت تخرج الحروف الانكليزية من مخارج الحروف الفرنسية فكان فهم ما تقوله صعباً .

وبعد ربع ساعة من الطيران تكلم قائد الطائرة بالفرنسية ثم بالانكليزية فقال : إنكم ترون الآن جبل كليمنجارو على يمين الطائرة ، وقد رأيته رؤية واضحة وكانت هذه المرة من أعلى نقطة رأيته قبل ذلك إذْ كانت على الطائرات الصغيرة نوعاً . أما هذه المرة فمن ارتفاع أعلى . وقد بدا بقبعته الثلجية البيضاء كأنه الشيخ الذي أشابه الزمن وقد تربع فوق السحاب الذي بدا كأنه البساط الأبيض تحته .

وبعد مضي ٥٠ دقيقة رأينا مياه المحيط وعرفنا أننا قد غادرنا أرض القارة الأفريقية فأعلن قائد الطائرة أننا نطير الآن فوق مدينة (دار السلام) عاصمة تنزانيا ، وقد تطلعت من النافذة ولكنني لم أر شيئاً واضحاً بسبب إرتفاع الطائرة إلا أنني رأيت جزيرة زنجبار التي كانت مزهوة بنفسها عندما وصلتها عام ١٩٦٤ م على طائرة داكوتا قد انكمشت الآن وتضاءلت حتى بدت كأنها بساط صغير غير متساوي الأضلاع .

فوق جزائر القمر :

وبعد مضي ساعة ونصف أعلن قائد الطائرة أننا سنطير فوق جزيرة مروني في إحدى جزائر القمر وأنه يمكننا أن نراها أوضح من الجانب الأيسر من الطائرة فانتقلت إلى الجهة اليسرى في مقعد خال ونظرتها فإذا بها كبيرة متسعة

من هذا الارتفاع الشاهق ، واشتد تأثري من الخلافات الإفريقية التي منعتني من الذهاب إلى جزر القمر قبل تاناناريف كما هي تذكرني وكما رسمت خطة السير من قبل ولكن ماذا يفيد ذلك ؟

هذا وقد قدموا بعد أن مضى على دخولنا الطائرة ساعة كاملة طعام الإفطار وكان سخياً شهياً تألف من البيض والزبدة وما يسمى (الكورن فلاك) أي : رقائق الخبز اليابس مع الحليب الطازج ، إلى جانب الفاكهة ومنها عنب كبير جيد ثم القهوة والشاي ، وقد أخبرت المضيفة أنني لا أحب أن يقرب طعامي شيء مما مسه لحم الخنزير لأنني مسلم فابتسمت وقالت : لك ذلك .

فوق مدغشقر :

بعد مضي ساعتين من طيران أكثره فوق مياه البحر الزنجي المسمى بالمحيط الهندي لمحنا الشاطىء الغربي لجزيرة مدغشقر إلا أن ارتفاع الطائرة الشديد ، وغلالات بيضاء من السحاب الخفيف قد حالت بيني وبين أن أرى تفاصيل وجه الأرض ما عدا أنني لمحت نهرين جاريين لكن أحدهما ليس مليئاً بالماء مما يدل على أن الفصل ليس فصل الأمطار في هذه البلاد .

وعندما أوغلت الطائرة داخل هذه الجزيرة الكبيرة بدت الأرض من تحتنا جبلية ذات تربة حمراء تتخللها وديان خضراء الضفاف .

وقد تدنت الطائرة حتى أصبحنا نرى الأرض بوضوح فلاحظت أنها دون الأرض الإفريقية الاستوائية في الاخضرار وان كانت خضراء كما أن بعضها يبين عليه تكرار الزراعة إذ هو مجموعات من الحقول غير واسعة الانبساط .

وقبل الوصول إلى المطار رأيت الأرض تحتنا معمورة بالزراعة إلا أن المساكن فيها قليلة .

في مطار تاناناريف :

هبطت الطائرة في الساعة العاشرة والثلث بتوقيت شرقي إفريقية المساوي لتوقيت مدغشقر ولم يكن معي تأشيرة دخول إلى (مدغشقر) وذلك تهاوناً مني لأنني قلت في نفسي إنني سأحاول الدخول إلى البلاد في الذهاب فان تيسر والا أمكن أن أفعل ذلك في الإياب إلا أنني الآن حريص على الدخول لأنه بقي بيني وبين المؤتمر الذي سيعقد في موريشيوس الذي أتيت لحضوره يومان يمكن أن أقضيهما في مدغشقر فلا يضيع عليَّ وقت .

وعند النزول من الطائرة كان هناك مضيفة أرضية مخصصة لركاب الدرجة الأولى فقادتنا إلى مكتب للصحة تجاوزته بسرعة ثم أدخلونا نحن القادمين كل واحد بمفرده . وقد كانت المفتشة أمرأة من الوطنيين لا تشك إذا رأيتها في أنها من أندونيسيا أو ماليسيا فأشارت أن ضع الحقيبة جانباً ثم نظرت إلى جوازي فقالت : (دبلوماتيك) أي : سياسي فسكت إذ جوازي خاص وليس سياسياً ، ثم تركتني أمر دون تفتيش لحقائبي أو لي ، وعند ضابط الجوازات توقف برهة عند جوازي وقال : كم تقيم في البلد ؟ فقلت : يومان ولكنه نادى على شرطي فذهب وأحضر معه شخصاً آخر مقطب الوجه ، وقال لي : لماذا لم تحصل على تأشيرة ؟ فقلت : لأنه لا يوجد في بلادنا سفارة لملاقاش وقصدي هو أن أقيم يومين في الطريق إلى موريشيوس . فقال : الأوامر عندنا تقضي بعدم دخول أي شخص دون تأشيرة دخول ، قلت إنني لا أعلم بها ، وليس من المستساغ لي أن آتي من بلادي البعيدة ثم لا أستطيع الدخول إلى بلادكم ورؤيتها ، فقال : ولكنك تستطيع أن تحصل على التأشيرة من موريشيوس وفي طريق العودة تمر علينا ، ولما أيست من إقناعه تركته ، ورأيت ضابطاً آخر فسألته فإذا به لا يعرف الانكليزية فسألت أحدهم أن يدلني على ضابط يعرف الإنكليزية فقرع باب غرفة في المطار خرج منها رجل سمح الوجه فقلت :

أتعرف الانكليزية ؟ قال : نعم ، فشرحت له موضوعي ، فأجاب بأنه من المستحيل على أي كان أن يحصل على تأشيرة من المطار فليس لدينا الصلاحية لذلك ، فتذكرت أن البلاد تعيش ما ابتليت به البلاد العربية من قبل وهو المسمى بالثورة التي لا عقل لها لا سيما إذا كانت ثورة يسارية .

فقلت للضابط : إذاً أرجو أن تلاحظ أن تحجز لي على الطائرة المسافرة إلى جزيرة رينيون بعد ساعتين وأن تلاحظ حقائبي لئلا تضيع ، فقال : لك ذلك ، وأخذ مني التذكرة وقد تذكرت بهذه المناسبة أنني في عام ١٩٦٦ م في جولتي على بعض الأقطار الأفريقية كنت أحمل إلى مدغشقر تأشيرة دخول من السفارة الفرنسية كما كنت أحمل تذكرة إليها ولكنني ألغيت السفر إليها لضيق الوقت . واليوم أريد أن أدخلها فلا أتمكن من ذلك كما تذكرت أن هذه هي المرة الأولى التي أصل فيها إلى مطار أريد الحصول فيه على تأشيرة دخول فلا أستطيع ذلك رغم كثرة أسفاري .

هذا والمشكل في الأمر في هذا المطار أن الناس يتكلمون لغتين أحداهما وطنية لا يعرف الإنسان منا نحن أهل الشرق الأوسط هويتها ولا ماهيتها فضلاً عن أن يعرف معاني مفرداتها ، والثانية هي الفرنسية التي لا أعرفها . وقد أصبحت الكلمات من الانكليزية التي كنت أستصعب فهمها بالنسبة إلي كأنها من كلمات العربية الفصحى في الوضوح .

وملامح الناس هنا في هذا المطار من الموظفين والموظفات تشعرك كأنك في جنوب شرقي آسيا لولا مزيد من السمرة في الوجوه ، وليس بينهم وبين الأفريقيين الذين هم من البانتو أو من الزنوج حسب التسمية الشائعة أيّ نسب أو شبه لا في الألوان ولا في التقاطيع .

أما المنتظرون من المسافرين في قاعة العابرين التي هي مخرج المسافرين إلى

الخارج فإنهم قلة لا تزيد على خمسة أشخاص من الأوروبيين .

وصعدت إلى مطعم المطار في الطابق الأول وهو يطل على الساحة الرئيسية فيه وعلى مدارج الطائرات وخلفها تلال خضراء لكنها غير كثيفة الخضرة والحقيقة أنه دون ما ينبغي أن يكون عليه مطار دولة تملك من الأرض الصالحة للزراعة ما تملكه مالاقاش . إلا أنه مطار يكاد يعتبز في زاوية من الأرض أي ليس ممراً دولياً للطائرات ما عدا الطائرات التي تسافر إلى جزيرة (رينيون) الفرنسية أو مورشيوس ، حتى بنايته ليست بذاك من الفخامة والوجاهة .

وطلبت من عامل في المطعم أن يحضر بعض الشاي ولم يكن يعرف الإنكليزية فذكرت له اسمه بالفرنسية فأحضره عاجلاً فأعطيته عشرة فرنكات فرنسية وهي تساوي سبعة ريالات سعودية ونصفاً فجاء لي بأربعمائة فرنك مالاقاشي وأشار إلى أنه استقطع قيمة الشاي ، ولا أدري كم ثمن الشاي ولكن ربما صح الافتراض أنه مائة فرنك لأنه أحضر الفرنكات الأربعمائة أربع قطع من فئات المائة .

ولم أر في المطعم أحداً غيري مع أن عدد المقاعد فيه كثيرة ونظيفة .

أما الجو هنا فهو حار نوعاً ما رطب بعض الشيء وعندما وصلنا كانت مضيفة الطائرة قد أعلنت أن درجة الحرارة في المطار هي ٢١ درجة مئوية ولكني أظنها ارتفعت الآن ، إلّا أن حرارته ورطوبته لا تضايق المرء كما تضايقه حرارة مدينة جدة ورطوبتها مثلاً .

إلى جزيرة رينيــون :

أعطاني ضابط الشرطة في مطار تاناناريف جوازي وتذكرتي وقسيمتي الحقيبتين فإذا بهما مكتوب عليهما إلى موريشيوس ، وإذا بهم قد قطعوا تذكرتي

في الدرجة الأولى وقسموها تذكرتين إحداهما إلى رينيون والأخرى إلى موريشيوس بعدها وجعلوها في الدرجة السياحية وليس هذا بالمهم ، وإنما المهم أنهم لم يجعلوني أتوقف في جزيرة رينيون مع أنني كنت أريد ذلك وأفهمت الضابط الأول الذي أخذ جوازي وتذكرتي به وعندما أبديت له عدم ارتياحي من ذلك أجاب بأنه يمكنك أن تطلب من الشركة في رينيون أن تبقى هناك . وسلمت أمري لله وأهم ما عندي ألا أبقى في هذا المطار بدون فائدة .

وصعدت مع الصاعدين إلى طائرة خطوط مدغشقر الجوية وهي من طراز بوينج ٧٣٧ ذي المحركين ، وإذا بها كلها درجة سياحية وليس فيها درجة أولى وفهمت لماذا أعطوني بطاقة الدخول إلى الطائرة للدرجة السياحية .

قامت الطائرة في تمام الساعة الواحدة والربع حسب توقيت شرقي إفريقية ، وأول ما ارتفعت رأيت الأرض واضحة وإذا بها أراضٍ مزروعة تكسوها التلال وتتناثر فيها منازل متباعدة ذات أسقف مسنمة من الصفيح الذي ينعكس عليه ضوء الشمس ورأيت تحتنا بحيرة يطير حولها أعداد من طيور الماء البيض (الغرانيق) وفيها عدد من القوارب الصغيرة المستطيلة التي يرى المرء الناس عليها اثنين اثنين وأظنهم من صيادي السمك لأنهم واقفون ، ثم ارتفعت الطائرة فوق جبال عالية تكسوها الأشجار الخضراء .

وبعد مضي ربع ساعة من الطيران لمحنا الساحل الشرقي لجزيرة مدغشقر وما أسرع أن غابت الطائرة عن اليابسة فوق جو صاف قد التقت فيه زرقة المحيط بزرقة السماء .

هذا ومن المقرر أن يكون الوصول إلى جزيرة (رينيون) بعد ساعة وعشر دقائق كما أعلنت المذيعة من الطائرة والغريب أن الإعلان كان بالفرنسية والانكليزية أما اللغة الوطنية فلم أسمعها منها هذه المرة . أما الركاب فهم خليط

من الأوروبيين المقيمين في هذه الجزر يدل على ذلك سمرة ألوانهم ، وعدم نضارة وجوههم وفيهم عدد قليل من المواطنين الملاقاشيين .

وقد قدموا الغداء في الطائرة وهو جيد تألف من لحم الأرانب ، وبعض الأحياء البحرية إلى جانب سلطة خضار من الخس والطماطم وشيء آخر لا أعرفه ثم قطعة من الجبن وأخرى من الزبد فالشاي .

وقد لجحت الطائرة في سماء المحيط المسمى بالمحيط الهندي وهو في الحقيقة بعيد هنا عن الهند وأرض الهند وإنما هو البحر الزنجي كما كان أسلافنا العرب يسمونه ، وأصبح المنظر من النافذة ليس فيه جديد . هذا والطائرة قد ولت وجهها شطر الجانب الأيمن من الجهة الشرقية أي إلى جهة مطلع الشمس في فصل الشتاء عندنا ومازالت تمعن في المحيط وهي بذلك تبتعد عن الأماكن القديمة العمران في العالم ، وإن المرء ليشعر بشيء من الوحشة وهو يتجه وسط خضم المحيط إلى جزيرة وحيدة منعزلة في ركن منفردٍ عن العالم ، وليست على طريق أي مسافر عابر إلا من كان متّجهاً من جنوبي إفريقية إلى قارة أستراليا .

وبعد ساعة وخمس دقائق من الطيران بدأت الطائرة بالهبوط التدريجي ولكن دون أن نرى اليابسة بل كان الطيران فوق مياه صافية زرقاء هادئة . ولم نر أي أثر لسفن أو قوارب في المحيط حتى الآن إلا أننا بدأنا نواجه قطعاً متفرقة بيضاء من السحاب ما أن تدخل طائرتنا في إحداها حتى ترتعش وتهتز .

في مطـار رينيـون :

لاحت الجزيرة على الجهة اليمنى منا خضراء ذات جبال عالية تجللها الأشجار تحتها خضرة كثيفة لم أر مثلها منذ خرجت في هذه الرحلة وكان

السحاب قد تكاثف حتى صار فوقها مظلماً ثم وجدناه ماطراً .

ومن خلال نافذة الطائرة رأينا الجزيرة ذات عمارات بيضاء شاهقة . وكان اسم المطار والبلدة (سانت دنيس) وسانت معناها قديس ، وعندما كنت أشعر بالفراغ وسط لجة المحيط ونحن في طائرة سريعة وبصحبة أناس كثيرين ولمدة يسيرة ذكرت أولئك البحارة الذين وصلوا إلى هذه الجزيرة النائية وأمثالها على سفن لم يكن فيها محركات ووسط متاعب من أصعبها وأعظمها غياهب المجهول وسط ظلمات المحيط وأنوائه الهائلة لذلك عرفت السبب لكونهم سموا أمثال هذه الجزر أو أماكن فيها بأسماء دينية مثل (سانت دنيس) هذا .

على أن اسم (سانت دنيس) بالذات قد ذكرني بشيء لا قداسة فيه وهو أن أخانا أحمد المنصوري من المغرب ويقيم في باريس وكنت يومها ساكناً في فندق في الحي اللاتيني فيها أخذني إلى مطعم جزائري قال إنه يقدم طعاماً عربياً جيداً وكان ذلك المطعم في شارع اسمه (سانت دنيس) إنه الاسم نفسه ، ولكن كان ذلك الشارع في باريس مباءة — والعياذ بالله — للبغايا فكنت تشاهدهن وقد وقفن على الرصيف ينتظرن من يشير أو يصرح فيدفع الثمن ويقترف الاثم فكان أحق أن يسمى بشارع الدنس .

هذا كان في باريس أما هنا فعندما وقفت الطائرة في المطار صعد إليها بسرعة شاب فرنسي يجيد الإنكليزية وتكلم في مكبر الصوت في الطائرة بالفرنسية والانكليزية طالباً من الركاب العابرين إلى موريشيوس أن يبقوا في أماكنهم في الطائرة وقد نزل ركاب أقدر نسبتهم إلى الباقين بـ ٨٠٪ .

ثم صعد إلى الطائرة عدد من النسوة من الملونات أي من السمراوات الوانهن تشبه ألوان أهل جنوب الهند وذلك لتنظيف داخل الطائرة .

وكانت الموسيقى والأغاني الملاقاشية تنبعث متواصلة من مكبر الطائرة وهي

بأغاني الأفريقيين أشبه منها بأغاني أهالي جنوب شرقي آسيا أو هذا ما فهمته منها .

وشيء آخر لاحظته وهو أنه رغم كون تقاطيع الملاقاشيين وألوانهم لا تشبه ألوان الأفريقيين وتقاطيعهم فان الرائحة المنبعثة من أجسادهم تشبه الرائحة التي تنبعث من أجساد الأفريقيين ، وقد اضطررت مرتين لتغيير مقعدي في الطائرة لأن أمرأة كانت تجلس في المقعد الذي خلفي جعلتني رائحة الصنان المنبعثة منها لا أطيق البقاء فيه . وعندما انتقلت عنه نلت شيئاً من الراحة غير أن أمرأة أخرى جلست في المقعد الواقع في الصف الذي أمام كرسيي فضايقتني رائحتها مضايقة شديدة .

وقد سألت الشاب الفرنسي عما إذا كنت أستطيع أن أنزل في رينيون ؟ فأجاب : ذلك غير ممكن لأنك صعدت على هذه الطائرة مسافراً إلى مورشيوس . ويمكنك أن تذهب إلى مورشيوس وتعود غداً إلى هذه الجزيرة .

فقلت في نفسي : إنني أعرف ذلك ولكنني لا أريد أن أعود من حيث جئت .

هذا وما زال المطر يهطل ، ومكبر الطائرة يذيع الأغاني المالاقاشية التي لا أفهم منها شيئاً ولا ترتاح أذني إلى سماعها .

إن المرء منا يشعر حقاً بالغربة في هذه المنطقة لأنه لا يقابل أي إنسان من جنسه إلا أن لونه ومظهره ليس غريباً هنا لأن كثيراً من الاوروبيين الذين ولدوا في هذه الجزر أو ولد آباؤهم من قبلهم قد أصبحوا من ذوي اللون المقارب للون العربي كما أن بعض الهنود يوجدون هنا إلا أنهم أصبحوا أكثر سمرة .

هذا وبعد أربعين دقيقة من الوقوف صعد الركاب الذاهبون من جزيرة رينيون إلى جزيرة موريشيوس وأكثرهم أوربيو الأصل وفيهم عدد قليل جداً

من الوطنيين . حتى امتلأت مقاعد الطائرة كلها .

إلى موريشيوس :

بعد أن استكملت الطائرة ساعة من الوقوف تحركت في الساعة الثالثة والثلث عصراً بكل حمولتها والغريب أن المضيفين أخذوا يرون الناس كيفية استعمال أطواق النجاة وصدرية العوم في البحر ولم يعملوا مثل ذلك عندما طاروا من تاناناريف إلى رينيون وكذلك عندما أقلعنا من نيروبي إلى تاناناريف مع أن الطيران فوق البحر في الرحلتين كلتيهما أطول من الطيران فوقه في هذه الرحلة ، ولعلهم فعلوا ذلك امتثالاً لأوامر فرنسية في هذه الجزيرة ، وقد رأيت في المطار طائرات حربية فرنسية .

وعندما ارتفعت الطائرة كانت الجزيرة تبدو خضراء شاملة الخضرة ولكنها خضرة منسقة كأنما سطرتها أيدٍ فنانة ماهرة ، وكانت الطرق الجميلة تنتشر فيها إلا أنه سرعان ما تركتها الطائرة إلى جو المحيط وسط لجة من السحاب الكثيف الذي كان يسقط مطره فينساب جانباً على نوافذ السيارة كأنه خيوط الحرير الأبيض تلعب بها الريح . ومازال الأمر كذلك حتى علت الطائرة فوق مستوى السحاب إلى جو مشمس صافٍ ميممة وجهها شطر الشمال الشرقي .

والعجيب أننا عندما كنا في لجة المحيط كان الجو صاحياً في الوقت الذي كان غيمه كثيفاً ومطره هاطلاً على الجزيرة ، ولعل لشموخ جبالها دخلاً في ذلك .

وبعد ربع ساعة من الطيران صحا الجو وخرجنا من منطقة السحاب ولكن المنظر تحتنا ليس فيه ما يغري فليس إلا زرقة المحيط المتصلة عند الأفق بزرقة السماء وليس غير ذلك ما عدا قطعا من السحب البعيدة ترقش زرقة البحر .

لم يقدموا شيئاً للركاب ربما كان ذلك بسبب قصر الوقت وكثرة الركاب .

إذ ما أن أتمت الطائرة عشرين دقيقة من الطيران حتى رأينا ساحل جزيرة موريشيوس واستقبلنا بهضبة جبلية خضراء تكاد تنفصل عنه إلا أنها في شبه جزيرة متصلة بالبر من إحدى جهاتها . ومن حسن حظنا أن الجو كان صاحياً والشمس ساطعة فاستطعت أن أرى بوضوح معالم أرض الجزيرة فإذا بها ذات تلال جبلية غير مرتفعة في داخل الجزيرة الذي لا يبعد عن الشاطىء كثيراً وإذا بالمساكن فيها كثيرة ، وأكثرها مزروع زراعة حقلية .

هذا ما يراه المرء أول ما يصل إليها من جهة الجنوب إلا أننا ما زلنا نطير فوق شاطىء البحر وقد خفضت الطائرة من سرعتها الآن وأخذنا ننعطف مع إنعطاف الساحل إلى جهة الشمال قليلاً فبدت لنا جبال عالية على الساحل الشرقي للجزيرة خضراء شديدة الإخضرار . أما الساحل من هذه الناحية فتحيط به أشجار كثيرة ملتفة .

في مطار موريشيوس :

نزلت الطائرة في المطار بعد حوالي ٢٨ دقيقة من الطيران ، وكان الوقت بعد العصر ويقارب الساعة الرابعة والدقيقة الخمسين بتوقيت موريشيوس المقدم ساعة عن توقيت شرقي إفريقية الذي يساوي توقيت المملكة .

وكان المطار ذا مدرج طويل رأيت فيه عدداً قليلاً من الطائرات النفاثة الضخمة إلا أن ساحته ليست واسعة .

وكان أول من استقبل الركاب عند ساحة الدخول إلى بناية المطار فتاة سمراء شديدة السمرة ، إلا أنها رشيقة الجسم واسعة العينين فيها من ملامح الهنود أشياء ولكن ليس كل الأشياء ، فأعطت كل راكب قادم بطاقة يملأها فيها البيانات العادية المطلوبة من القادمين ، وعندما ملأتها رأيتهم قد أقاموا حواجز من الخشب داخل قاعة الدخول وبقدر ارتفاع المتر وفيها باب عليه فتاة

تلفت نظر القادمين الذين تدخلهم إلى مكتب كتب عليه (مكتب الصحة) وإذا زاد العدد الذي لدى الموظف من الركاب أوقفت الدخول حتى يصرفهم فلما أريت الذي في المكتب جوازي أعطاني استمارة مطولة نوعاً ما وقال املأها ثم عد إليّ وكان من أهم ما فيها سؤال يقول : أين قضيت الأيام الخمسة السابقة لتاريخ اليوم إذكر اليوم الأول في أي مكان والثاني إلخ . فكتبت فيه أنها في كينيا . فختم عليها الموظف دون عائق بعد أن سألني عن الفندق الذي سأقيم فيه فقلت له : إنه فندق السفير أو (إمباسادور هوتيل) .

ثم انتقلت إلى بوابات الجوازات وكان فيها ثلاثة مكاتب على كل منها كهل كأنه هندي الأصل وقفت عند أحدهم فسألني بأدب جم : كم تريد أن تقيم في موريشيوس ؟ فقلت زهاء خمسة أيام . فقال ضابط آخر كان واقفاً عنده أأنت قادم لحضور المؤتمر الإسلامي ؟ فقلت : نعم . فقال الضابط : ربما لا تكفي الأيام الخمسة فقلت اجعلها سبعة ، ومن هناك خرجت إلى قاعة المكس أو الجمرك ، وكان المفتش رجلاً أسود اللون هندي الملامح ، سألني أمعك هدايا ؟ قلت : لا . فقال : أو طعام ؟ قلت : لا ، إلّا بعض التمر ، فختم على حقائبي الثلاث كلها دون فتح أو تفتيش ثم أردت الخروج وكان أحد الحمالين معي فسألته : هل أجد حافلة تنقلني إلى فندق أمباسادور ؟ أم لا بد إليه من سيارة أجرة ؟ وهل هو بعيد من المطار ؟

فقادني إلى فتاة جالسة على مكتب كتب عليه بالانكليزي والفرنسية : إنه لاستعلامات الفنادق ، فقالت لي : أحجزت فيه ؟ قلت : لا . قالت : هذا إذاً متعب ، ولديّ فندق أقرب منه ، فقلت : لا أريد إلّا هو . فقالت : أنت وشأنك ولكن لا توجد حافلة توصل إليه . وإنما هي سيارة الأجرة . فقلت لها : كم الأجرة ؟ قالت : سبعون روبية من عملة موريشيوس أي ٣٨ ريالاً سعودياً .

في موريشيوس :

ولم نقل في مدينة كذا لأن الجزيرة صغيرة وفيها غير العاصمة عدة محلات بعضها لا تصل إلى أن تكون مدناً منفصلة والفندق الذي أقصده يقع في جهة أخرى غير التي فيها المطار وعلى وجه التحديد يقع مقابلاً للمطار في الساحل الغربي من الجزيرة على حين أن المطار في الساحل الشرقي منها .

وأخذت سيارة أجرة قائدها هندي الأصل قال إنه يجيد أربع لغات هي الإنكليزية والفرنسية والهندية ولغة كريول وهي اللغة الشعبية في البلاد وهي فرنسية مكسرة .

وصار لي بمثابة الدليل يشرح ما أمر به وان كان يخرج اللغة الانكيزية من مخارج لم آلفها فانني كنت أستعيده ما لم أفهمه منه بسرعة . ولاحظت أن الناس هنا في المطار وحول السيارة يعملون أعمالهم بسرعة ونشاط .

وقد بلغت المسافة حوالي أربعين كيلاً إلى الفندق

وكنت في الطريق أكاد أجزم بأنني في بلاد هندية فالملابس والملامح تشبه في الأغلب ما رأيته في الهند إلا أن السمرة هنا أغلب والاجسام أكثر اعتدالاً فلا إفراط في السمنة ولا أفراط في النحافة وإنما الرشاقة هي الأغلب . وحتى الطريق رغم كونه ليس ضيقاً ضيقاً شديداً فان السائق كان يحتاج إلى أن يكثر من استعمال المنبه لتحذير الناس في الطريق وهو أمر معتاد في الهند أكثر من أي بلد آخر عرفته .

وكنا نصل إلى محلة ثم نخرج منها بسرعة إلى الريف وأول ما يلفت نظر القادم بعد أن يترك المطار مباشرة أكوام من الحجارة تشبه الأهرام الصغيرة ولما سألت السائق قال : إن الناس من حاجتهم إلى الأرض يجمعون هذه الأحجار

من وجهها فيكومونها حتى يخلوا الأرض منها فتصبح صالحة للزراعة .

وبعد أن مضى من الطريق خمسة وعشرون كيلاً بدأت المناظر تتغير إذ كثرت كثافة الأشجار ورأينا جبالاً عالية كثيفة الخضرة تتفرق عن قممها قطع من السحاب ثم رأينا أماكن جميلة المناظر ، منسقة الأشجار ، وبعضها فيه قصور كبيرة إلى أن وصلنا إلى بورتس لويس المدينة التي فيها الفندق والتي هي عاصمة الجزيرة .

فنـدق السفير :

كان في مكتب الاستقبال فيه فتى هندي الأصل ، نشيط الحركة ، سريع الكلام ، وثاب الخطوات ، سألته : أنا قادم إليكم أيوجد لديكم لي غرفة ؟ فقال : أأنت حاجز فقلت : لا ، فقال إملأ هذه البيانات . فلما ملأتها ، نظر إلى اسمي وجنسيتي قال : أنت إذاً قادم من أجل المؤتمر الإسلامي ؟ قلت : أجل .

فأسرع ونقل أمتعتي على كتف عامل في الفندق وتقدمني إلى غرفة في الطابق الأول ، وعندما صعدت للطابق صافح أنني أول ما صافح في هذا الفندق رائحة الطعام المليء بالبهارات فتيقنت أنني في مكان هندي ، ثم دغدغت أذني نغمات الموسيقى الهندية التي أنا من الناس الذين لا يحبونها .

أما الفندق فهو من الدرجة الأولى عندهم وصاحبه مسلم إلا أنه يقدم الخمر في حانة (بار) في ركن منه .

ومن إنفرادته أن جدران الممرات فيه مكسوة بسجاد من جنس السجاد المفروش على أرضه فيتشابه الجدار والأرض .

وقد أدار مفتاح المكيف فيه فأخذ يطلق نسمات باردة لطيفة في هذا الجو

الرطب الذي تضايق فيه الرطوبة أكثر مما تضايق فيه الحرارة ، وقد ذكرني بأجواء البلاد الاستوائية الرطبة ، ولا عجب في ذلك فهذه الجزيرة لا تبعد كثيراً عن خط الاستواء ولكن إلى جهة الجنوب .

وبعد أن اطمأن بي المقام في الفندق واسترحت قليلاً نزلت إلى الشارع أتمشى على رجلي ولأتفرج برؤية المتاجر في شارع الفندق وذلك في الساعة السابعة والنصف أي بعد غروب الشمس بقليل ، ولكنني رأيت المتاجر كلها بدون استثناء مغلقة والشوارع تكاد تكون مظلمة لأن أنوارها ضعيفة جداً ولعل ذلك من باب التوفير في الطاقة مع أن البلاد يظهر عليها أنها تتمتع باقتصاد جيد وبحرية في التجارة . وحتى الآن لم ألمح أناساً عليهم مظاهر العوز والفقر الشديد فعدت مسرعاً إلى الفندق . وقصدت قاعة الاجتماعات فيه . وكان فيها جهاز للتلفزة فإذا به يذيع أغاني وبرامج بالانكليزية أعقبتها إذاعة بالفرنسية .

فقصدت المطعم في الطابق الأول ، وطلبت القائمة فرأيت فيها ما يسمى (بالكاري) الهندي وهو اللحم مع المرق يضاف إليه عدد عديد من البهارات المختلفة ، ولا بد أن يكون قد حشي بالفلفل الحار حشواً فقلت لخادم المائدة إنني أريد (كارياً) بلحم البقر مع الأرز ولكن بشرط أن يخلو من الدسم ومن الفلفل فقال : لك ذلك ثم غاب مدة طويلة علمت منه بعد ذلك أنهم يطبخونه ، قال : لأننا نطبخه بناء على الطلب . وجاء به كما طلبت ولما فرغت سألته عن قيمته ؟ فقال : إنها (١٥) روبية أي ثمانية ريالات سعودية مع أنها أكلة وافية مغذية . وهذا رخيص جداً .

وقد ذكرني رواد هذا المطعم بالهند وأهل الهند لأن أغلبهم من أصل هندي أو يشبهون الهنود وبعض النسوة عليهن الساري لباس الهنديات يستر القدم

والساقين ولكنه يظهر الجنبين في شبه حزام يستدير إلى ما تحت الصدر .

وصعدت إلى الغرفة وما بي من نوم فأخذت أداعب مفتاح مذياع معي أذهب بإبرته يميناً وشمالاً فإذا بها تقع على إذاعة قوية باللغة العربية وهي تهاجم ليبيا وحكام ليبيا وإذا بالمذيع بعد ذلك يقول : (هنا صوت العرب) فحركتها إلى إذاعة أخرى فإذا بها تهاجم حاكم مصر ، وسياسة حاكم مصر ورحلة الخزي والعار إلى مائدة الصهاينة الإرهابيين .

وجزعت من ذلك وحزنت لكون الأصوات العربية تصل إلى هذه البقعة البعيدة من العالم وذلك لتسمع من يعثر بها أو يبحث عنها خلافات العرب وسياستهم وشتائمهم فتركت إذاعة ليبيا أبحث عن إذاعة عربية أخرى مسالمة فأجدها في الكويت ولم أسمع فيها سباباً ولا شتائم ولله الحمد .

والغريب أن هذه الإذاعات العربية بلغت من القوة حداً جعلها تتجاوز الإذاعات الناطقة باللغات الأخرى وتتغلب عليها مثل إذاعة مدغشقر بالفرنسية وإذاعات شرقي إفريقية السواحلية وإذاعتي الصومال والحبشة بالصومالية والأمهرية . فتلك لا تسمع هنا بخلاف هذه الإذاعات العربية ، أما إذاعتنا السعودية التي ينبغي أن تكون أقوى من غيرها لما لدينا من الامكانات المادية ولما تحمله إذاعتنا من برامج إسلامية ، وما تتنزه عنه من سب وشتم فان جهدها قد قصر بها عن بلوغ هذه البلاد .

يوم الثلاثاء : ١٣٩٨/١/٢٤هـ ١٩٧٨/١/٣م

اجتمعت في الفندق بالأخ عبد الخالق رحمة الله رئيس حركة الطلبة المسلمين في موريشيوس وكذلك الأخ (صاحب دين مصدق) من زعماء الحركة المذكورة وجرى البحث في أحوال المسلمين خاصة وأحوال السكان عامة في هذه البلاد . ولما كان الجو غائماً ويُخشى من سقوط المطر وكوني في

أعقاب سفر فقد اتفقت معهم على أن تكون الجولة على بورت لويس عاصمة موريشيوس مساءً . إلا أن الأمطار نزلت من بعد الظهر حتى المغرب غزيرة متواصلة منعت المرور بل جعلت السيارات تقذف بالمياه المتساقطة إلى الأرصفة لذلك كف الناس عن السير حتى في الأرصفة .

ولما سألت مدير الفندق عن هذا المطر الغزير . أهو في فصل الأمطار ؟ أجاب : لا ليس هذا بالفصل الممطر في هذه البلاد فقلت له : إذاً ما هذا ؟ قال : هذا قليل جداً ، لا يخرق قاعدة الفصل الجاف ، فقلت في نفسي : سبحان الله لو نزل هذا المطر في بلادنا لتناقلته الأخبار ، وسارع بنقله السُّفّار والزوار .

ولم يهدأ نزول المطر إلا عند قرب غروب الشمس فنزلت من الفندق أتمشى فيما حوله من الأماكن فإذا بي أرى المياه تسيل بانتظام بين الأرصفة وبين بطون الشوارع التي يصح أن تسمى ظهور الشوارع لأنهم قد أعدوها لذلك بحيث جعلوا وسط الشارع مرتفعاً وجانبيه منخفضين أما الأرصفة فهي بالحجارة السوداء المحكمة وليست من الإسفلت .

وكان الجو ممتعاً بعد نزول المطر إذ ولّت الحرارة الشديدة وقد فوجئت بأن الناس أصبحوا يغلقون حوانيتهم في الساعة الخامسة والنصف حتى أقفر الشارع منهم ، ورأيتهم يضعون أقفالا على الحوانيت تكون في حدود الأربعة ، وأحياناً أكثر من ذلك . ولقيت رجلاً فسألته عن الحوانيت التي تبيع الفاكهة ؟ فقال : لقد أغلقت كلها . هذا والشمس لما تغب بعد .

ولم أدر كيف أقضي المساء فذهبت إلى قاعة الاستقبال في الفندق فوجدت جهاز التلفزيون يذيع برنامجاً باللغة الهندية ويعرض أغاني ورقصات هندية شعبية لم أرها في الهند وقد أنقذني من الفراغ مجيء بعض إخواننا المسلمين

فقضيت حوالي ٨ ساعات معهم في الحديث .

يوم الاربعاء : ٢٥ محرم ١٣٩٨هـ ٤ يناير ١٩٧٨م .

جولة في بورت لويس :

معنى بورت هو ميناء بالانكليزية والفرنسية ولويس الذي أضيف إليه هذا الميناء هو لويس الثاني عشر ملك فرنسا عندما هبط الفرنسيون لأول مرة في هذه الجزيرة فأسموه على اسمه .

وهذه المدينة أو المحلة ــ على وجه الدقة ــ من محلات جزيرة موريشيوس هي العاصمة وهي بلدة إسلامية إذ أغلب سكانها من المسلمين فهم فيها يبلغون ٦٠٪ على حين أنهم أقلية في كل الجزيرة . ولذلك يوجد في هذه المدينة ١٥ مسجداً ومنها المسجد الكبير في موريشيوس ويسمونه (مركزي مسجد) أي : الجامع المركزي .



شارع في «بورت لويس» يطل عليه فندق السفير والمسجد المركزي بمآذنه الصغيرة المتعددة



باب المسجد المركزي من الخشب المنقوش .

وفيها الميناء ورئاسة الوزارة . وكان أول ما زرناه منها المسجد المركزي حيث كنت قد بدأت جولتي في هذه المدينة مع الأخ قدرة الله على ماكون وهو مسلم من أهل البلاد أصله هندي ولكنه لا يدري من أي مكان جاء أجداده من الهند لأنهم قدموا إلى هذه الجزيرة منذ أكثر من مائتي سنة وكان معنا في السيارة الأخ عبد الخالق رحمة الله .

ويقع المسجد في قلب المدينة بجوار فندق السفير (امبسادور) الذي أسكن فيه ولكنني لم أفطن له من قبل .

وهو مسجد نظيف البلاط ، والفراش بل كل شيء فيه نظيف ومرتب وكان أول من قابلناه فيه رجلا قال إنه هندي الأصل من القائمين عليه ، وأول ما يدخل المرء منه إلى ساحة مكشوفة مبلطة بالرخام والحجارة ولا يخلع نعليه فيها ثم يصل إلى ساحة داخلية قد ظلت بمظلة من الشراع تقيها الشمس و يمكن

كشفها إذا أرادوا وعند الدخول خلعنا نعالنا ورأينا أول ما رأينا في هذا المسجد لوحة تشبه السبورة مكتوباً فيه بعض الشيء بالفرنسية قال لي إخواننا إنها لوحة تبين أسماء من توفوا حديثاً من المسلمين وتاريخ وفياتهم وقد رأيت فيها حقلاً لأهل موريشيوس وحقلاً آخر لغيرهم من المسلمين.

وعندما تجاوزنا الساحة الداخلية وأردنا الدخول إلى موضع الصلاة رأيت لوحة أخرى مكتوباً عليها بحروف إنكليزية (نكه) فلم أفهم معناها فقال لي الأخ عبد الخالق إنها من العربية وأنها تعني (مرج) أي: زواج بالانكليزية وتذكرت أنها كلمة (نكاح) بمعنى زواج واذا بهم قد كتبوا اسمين فيها وتاريخين وإذا بها خاصة بالإعلان عمن يتزوج من المسلمين وأول إعلان فيها: تزوج محمد بن فلان بفلانة بنت فلان بتاريخ...

وهذا أمر عجيب لم أره في غير هذه البلاد وهو أمر حسن ذكرني بنكتة عن رجل من أهل بلدتنا يأخذ الناس عليه أنه ليس كامل الإدراك وهو أنه طلق زوجة له اسمها (ميثاء) فلما فرغ الناس من الصلاة في المسجد نهض فوقف عند باب المسجد وقال: الذي يريد ميثاء فليتزوجها فقد طلقتها. ولما لامه الناس على ابتداع هذا الأمر؟ أجاب: هل تريدون أن تظل المسكينة بدون زواج؟ ومن يخبر الناس أنني قد طلقتها إذا لم أخبرهم؟

وهذا المسجد الجامع في مدينة بورت لويس ليس له منارة واحدة أو منارتان أو أربع منارات عادية كالتي تكون في المساجد في البلاد الأخرى وإنما رأيت له ست عشرة منارة صغيرة كلها إلا أن التي منها في أركانه هي أكبر من الأخرى وهي بمجموعها نشبه منارات المساجد المبنية على الطراز المغولي في الهند إلا أن هذه صغيرة جداً كلها كما قلت.

وقد وجدت في المسجد نفراً من جماعة التبليغ قادمين من جنوبي إفريقية

من منطقة مدينة الرأس (كيب تاون) يرتدون الملابس العربية التي نلبسها في بلادنا وهي القميص العربي الطويل الذي يضرب إلى الكعبين وفوق الرأس قلنسوة (طاقية) لا غير ، وكان اثنان منهم يعرفان العربية معرفة لا بأس بها وقالا : إنهما تعلماها في (كيب تاون) .

ورأينا المسجد ذا محرب جميل إلا أنه صغير ضيق تعلوه آية (إن ربي لسميع الدعاء) وعن يمينه آية (الله نور السموات والأرض) وعن يساره عبارة (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وهو مفروش بالسجاد الأخضر الجميل وفيه مكبر للصوت . وتحف بساحته الخارجية مجموعة من الرفوف الحديدية التي ربطت بزوايا حديدية وتلك معدة لوضع الأحذية .

وفي ركن منه لوحة مكتوبة بالانكليزية تبين أوقات الصلاة ووقت السحر في رمضان ، وملحق به دورة للمياه وأماكن لتجديد الوضوء لم أر أنظف منها إلا قليلاً وأعتقد انها لا توجد في مثل هذه النظافة في مساجد أكثر البلاد العربية .

الحي الإسلامي في بورت لويس :

وهذا حي في مدينة بورت لويس كل أهله من المسلمين ويسمى (السكر) وأصلها من العربية (العسكر) وذلك لأنّ أول مسلم وصل إلى هذه المنطقة هو صومالي ، وكان من معه من المسلمين بعد ذلك نزلوا في هذا المكان واسمهم العسكر فسمى المكان باسمهم وبنى أول مسجد في الجزيرة في هذه المنطقة ويذكر أن أهالي موريشيوس يعرفون أن أول من وصل إلى هذه الجزيرة هم العرب فوجدوها غير مسكونة وقد غادروها لأنهم لم يصلوا إليها في الأصل

مستوطنين ولأن الأعاصير تهب عليها في بعض الأحيان فتدمر كل شيء لهم ، ثم وصلها بعدهم الهولنديون ، وهم الذين سموها موريشيوس نسبة إلى اسم (موريس) عندهم ثم تركوها فنزلها البرتغاليون وقضوا على ما كان فيها من طيور كبيرة عجيبة لا توجد في غيرها . ثم ذهبوا وتركوها ثم جاء بعدهم الفرنسيون في زمن الملك لويس السادس عشر ، فاستمروا فيها مدة طويلة حتى كونت لدى أهاليها الأوائل لغة هي فرنسية محرفة أو قل فرنسية شعبية خاصة بهم .

ثم أخذها الإنكليز من الفرنسيين حتى نالت استقلالها عام ١٩٦٨ هـ .

ومع ذلك بقيت اللغة الفرنسية معروفة متداولة بينهم إلى جانب الانكليزية .

وقد عزم عليَّ الأخ قدرة الله علي في دخول بيته في هذا الحي الإسلامي فدخلته وهو مبني من الخشب ما عدا غرفة واحدة ومكون من طابق وبعض طابق ، وقدم زوجته وولده واسم الزوجة (حوَّاء) والابن (إقبال) . ثم طاف بي أنحاء المنزل فإذا هو نظيف جميل مرتب ، وإذا باللوحات الدينية والفنية تملأ الجدران فهنا صورة المسجد النبوي الكريم ، وهناك دعاء باللغة العربية وهكذا . ثم قدمت لنا زوجته بعض ثمار المانجو أو (العمبة) كما كان يسميها بعض العرب . وقال : هذه من ثمار البيت ثم أراني شجرتها ، وكذلك قدم بعض الموز وأراني شجراته في بيته مع أن حديقة بيته غير واسعة ، وقد رأيته يحاول النطق ببعض الكلمات العربية ويحفظ بعضها وقال : إنني أستمع إلى تعليم العربية بالراديو من إذاعة القاهرة ثم أراني كتاباً مطبوعاً بالعربية والانكليزية يتضمن تعليم العربية بالراديو ، وقال إن عدداً من الأشخاص في هذه البلاد يتابعون تلك الإذاعة ومنهم زوجته لأنها مدرسة مثله .

في المركز الإسلامي :

ومن هناك انتقلنا إلى مكان كتب عليه المركز الإسلامي وقال الأخ عبد الخالق رحمة الله ان هذا هو المركز الذي ننشر منه المطبوعات الإسلامية وإننا قد تسلمنا من دار الإفتاء في المملكة عدداً من الكتب الإسلامية لا بأس به وأراني إياها في رف وحدها ، ثم أطلعنا على مطبعة يطبعون فيها الكتب والرسائل باللغة الفرنسية . وكتاباً عنوانه بالانكليزية (العربية للموريشين) فيه كلمات باللغة العربية وشرحها باللغتين الفرنسية والعربية فسرني ما رأيت من الإخوان العاملين في هذا المركز رغم قلة إمكاناتهم وضآلة مواردهم المالية .

ميناء بورت لويس :

وكانت الجولة التالية في ميناء الجزيرة وهو ميناء لا بأس به من حيث السعة وقد رأيت فيه عدداً من البواخر قالوا إنها تأتي محملة بالبضائع من أوروبا وبخاصة من انكلترا وتعود محملة بالسكر وهو السلعة الرئيسية التي يصدرونها إلى بريطانيا . كما رأيت عدداً من البواخر اليابانية وهي بواخر للصيد تصيد الأسماك والحيتان فيما يسمى بأعالي البحار أي البحار البعيدة ذات المياه الدولية ثم تبيعه في أماكن أخرى من العالم . وتأتي إلى هذا الميناء للتزود بما تحتاجه من المؤن وتذكرت عند ذلك أن هذا الميناء البحري الواقع في غربي الجزيرة ، والميناء الجوي الواقع في شرقها الجنوبي هما المنفذان الوحيدان لهذه الجزيرة إلى العالم الخارجي كما تصورت بُعد اليابسة عن هذا الميناء فحمدت الله تعالى على سعة ديارنا وتوسطها في الأرض المعمورة .

إلى سفارة مدغشقر :

قصدتها مع بعض الإخوان لكي أحصل على تأشيرة دخول إليها بعد انتهاء

المؤتمر في موريشيوس ، فأحالني الموظف على مسؤول أكبر وسأل عدة أسئلة منها قوله : هل جوازك سياسي فقلت : له : إنه خاص وقد ناقش في كلمة خاص فترة ثم قال : ما هي رتبتك في المجتمع ؟ قلت : لا أدري ، لأنه ليس لدينا رتب فسألني : أأنت في الجيش ؟ فقلت : لا ، ثم بعد ذلك أعطاني أربع نسخ من الاستمارات لأملأها وطلب أربع صور ، وقال : دع جوازك عندنا حتى يوم الجمعة حيث تأتي وتأخذه ، فشكرته وانصرفت .

وقال لي إخواننا : إن المدغشقريين بعد هذا الانقلاب العسكري الأخير الذي أسموه ثورة قد قطعوا أكثر الاتصالات مع العالم وان موقفهم ضد من يأتي من الخارج شديد جداً بل متعصب وأنه قد قتل عدد من المسلمين (القمريين) وأخرج عدد آخر منهم من مدغشقر إلى جزر القمر ، فقلت : إن ذلك يدعوني أكثر إلى الحرص على زيارة هذه البلاد والإطلاع على أحوال المسلمين فيها الذين أعرف من قبل أنهم كانوا يؤلفون نسبة لا باس بها بين السكان وعلى ذكر السفارة أقول : إنه لا توجد في جزيرة موريشيوس سفارات للبلاد العربية إلا اثنتان هما مصر وليبيا ، وهما يتناقضان سياسياً ويظهر تناقضهما للمسلمين مع الأسف .

ثم عدت إلى الفندق .

وجولة في جزيرة موريشيوس :

وكانت هذه في آخر هذا النهار ، والفرق بينها وبين الجولة الأولى أن الأولى كانت في العاصمة أما هذه فهي في الدولة كلها . ذلك بأن المرء يستطيع أن يجول في هذه الجزيرة التي هي دولة موريشيوس في عدة ساعات تكفي لكي يأخذ عنها انطباعاً في نفسه يعادل الانطباع الذي يحصل عليه من جولة في عواصم إحدى البلاد المتوسطة في مثل تلك المدة ، لأن هذه الدولة المحاطة

بمياه المحيط هي نقطة صغيرة في ذلك الخضم العظيم ، ومع ذلك فأمورها متنظمة وأسعارها ليست مرتفعة ومستوى المعيشة عند أهلها لا بأس به وذلك كله بسبب الإدارة الجيدة فيها .

غادرت غندق (الامباسادور) في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر على سيارة خاصة مع الأخ (قدرة الله علي) وكان أول ما رأيناه في طريقنا إلى الجبال الريفية ذات المناظر الطبيعية الفاتنة هو محلة فيها مسجد اسمه (مدينة مسجد) أي مسجد المدينة المنورة ثم مررنا بمعهد حكومي ثانوي اسمه (معهد المهاتما غاندي) وهو جميل البناء في منطقة ريفية ذات مناظر طبيعية جميلة ترى منها على البعد جبالاً عالية تجلل هاماتها السحب السوداء ويخترق المنطقة وادٍ عميق تتدرج الخضرة على ضفتيه غير أنه ليس فيه نهر يجري .

وأثناء التجوال لمحت أناساً أكثر سواداً من غيرهم ، وفيهم شيء من الملامح الإفريقية فسألت مرافقي عنهم فقالوا : إنهم يسمون «كريول» وأنهم السكان الأوائل الذين منهم نسبة كبيرة من إفريقية اختلطوا ببعض الهنود الأوائل في زمن الاستعمار الفرنسي الذي انتهى في عام ١٨١٠م وأن لهم لغة تسمى (كريول) أيضاً على اسمهم وهي فرنسية عامية مكسرة بحيث أنه يصعب على الفرنسي القادم من باريس أن يفهمها وأن هذه اللغة مفهومة للجميع هنا لأنها هي لغة التفاهم بينهم .

ثم واصلنا جولتنا متجهين صوب منطقة جبلية وكان طريقنا يخترق ريفاً أخضر قد زرع أكثره بحقول السكر ابتداء من حاشية الطريق حتى داخل الحقول أي إنهم لم يتركوا للمارة إلا ما لا يكاد يكفي من الطريق لمرور السيارات ولذلك كتب عليه لافتات (احذر وانتبه)

وبين فينة وأخرى نمر بقرية أو محلة صغيرة ورأينا في بعضها مساجد

للمسلمين إلا أنهم في هذه المحلات أقلية بخلاف العاصمة (بورت لويس) فهم فيها أكثرية .

أما المارة فانهم الهنود الذين لم يتغير بعضهم إلا في زيادة السمرة وإنهم بعض الأفارقة الذين تغيرت تقاسيم وجوههم بعض الشيء وتغيرت ألوانهم أقل من ذلك .

وما زلنا نسير حتى وصلنا منطقة ترتفع عن سطح البحر ١٦٠٠ قدم وقد زرعت مساحات كبيرة فيها بأشجار الشاي ، وهو هنا على وجه العموم — أقصر أشجاراً مما رأيتها في الهند . وبعدها مباشرة وصلنا إلى غابات حكومية تركتها الحكومة غفلاً لتكون متعة للزائرين ، وحقلاً للدارسين ولم أر فيها ما يميزها عن غيرها الا كثافة الأشجار ، ووجود أشجار أخرى أصغر من الكبيرة ثم التفاف الأعشاب تحت ذلك . ويجوز لكل شخص أن يدخل هذه المنطقة ، ولكن لا يقطع منها شيئاً .

ونظراً إلى أن الجزيرة نفسها كلها خضراء وبعضها مكسو بالأشجار فان الناس لا تراهم هنا كثيراً . وقد يلاقيك شخص منفرد مع أننا خارج العمران ولكن الأمن هنا مستتب . والهدؤ شامل ولا يخشى المرء على نفسه في أي مكان من هذه الجزيرة .

ومازلنا كذلك حتى بدأ الطريق ينحدر بنا إلى ساحل البحر من جبال نيكولي التي تقع على اليمين شامخة الذرى وإلى جهة اليسار بحيرة عذبة تتجمع فيها مياه الأمطار التي تقع على بعض هذه الجبال ، وبعد ذلك يأتي ساحل أخضر . نعم ساحل البحر ولكنه أخضر وذلك بسبب وفرة الأمطار التي تغسل أرضه من الأملاح .

ووقفنا هناك عند بحيرة ننصت إلى صوت البلبل في تلك الغابة وقال رفقائي



منظر داخلي والأرض تنحدر برفق نحو البحر.



زهرة نينوفار العملاقة في حديقة (بمبلى موساز)

إنه يسمى عندهم البلبل بهذا الاسم ، وهو يغرد جذلان وان كانت أعداده ليست بكثيرة وإنما أكثر ما يرى المرء هنا من الطيور ببغاوات صغيرة وحشية حجمها يقارب حجم الحمام قالوا إنها لا تضر بشيء ، ولا تسيء إلى الزراعة ، ولم يكن يخالط صوت البلابل في هذه الغابة الجبلية من جزيرة موريشيوس إلا صوت نهر صغير ، أو قل جدول ماء قادم من الجبال متجه إلى هذه البحيرة العميقة وربما كان صوته لازماً ليكمل هذه الموسيقى الطبيعية الرائعة ، وكان الجو غائماً ليس بماطر ، والشمس قد احتجبت خلف فروع الأشجار والنسيم عليل بليل . وحركة السيارات غير موجودة . وكان هذا مكاناً صالحاً لقضاء فترة من الوقت للتأمل والاستجمام .

إلا أننا لم ننفق وقتاً طويلاً فيه إذ لا يزال أمامنا أن نزور حديقة « بمبلى موساز» وشاطىء البحر في الشمال الغربي من الجزيرة .

وكان الدخول إلى حديقة (بمبلى موساز) واسمها من اسم شجر له ثمر يسمى بهذا الاسم وهي حديقة واسعة ، وليست أهميتها في سعتها وإنما في نفاسة ما فيها من الأشجار حتى قال لي أحدهم : إنها تعد الحديقة الثالثة في العالم من حيث أهمية الأشجار والنباتات والزهور التي فيها ولا أدري صحة ذلك ولكنها منسقة تنسيقاً قل أن يوجد له نظير وتتخللها قنوات وجداول للمياه تجري فيها دائماً لأنها تنزل من الأماكن المرتفعة متجمعة من مياه الأمطار الكثيرة في الجزيرة كما أن فيها عدة بحيرات صغيرة تسبح فيها أنواع من السمك الملون وتعيش عيشة طبيعية .

ومن أعجب ما فيها من النباتات نبات يسمونه (ليلي الماء) له أوراق مدورة عظيمة إذا رآها المرء لا يصدق أنها طبيعية وإنما يخيل إليه أنها أوراق صناعية ذلك بأنها على شكل الأطباق الضخمة الخضراء ذات الحافات المعطوفة كأنها الصحاف القديمة التي تتسع الواحدة لذبيحة من الغنم وما يتبعها من الأرز والخضروات في بلادنا العربية .

وهي تعيش وسط الماء بحيث أن المرء لا يستطيع رؤية جذورها وليس هذا هو العجب الوحيد فيها وإنما الأعجب منه أنها تنتج أزهاراً تظهر من صفحة الماء بعيدة نوعاً عن الأوراق حتى لا يصدق المرء أنها متصلة بها من الأسفل وهي زهور كبيرة رأيناها بعد العصر وردية اللون وقال لنا شخص هناك يقول إنه يعمل دليلاً للناس داخل الحديقة إن زهرها هذا يكون في أول النهار أبيض وفي آخره أحمر وردياً .

ثم انتقلنا إلى قسم من الحديقة فيه مساحات واسعة محجوزة فيها بعض الحيوانات مثل بعض السلاحف العظيمة ، والماعز الجبلية التي كانت تعيش في جبال الجزيرة وبعض أنواع الغزال وهي تختلف عما هو موجود عندنا منها .

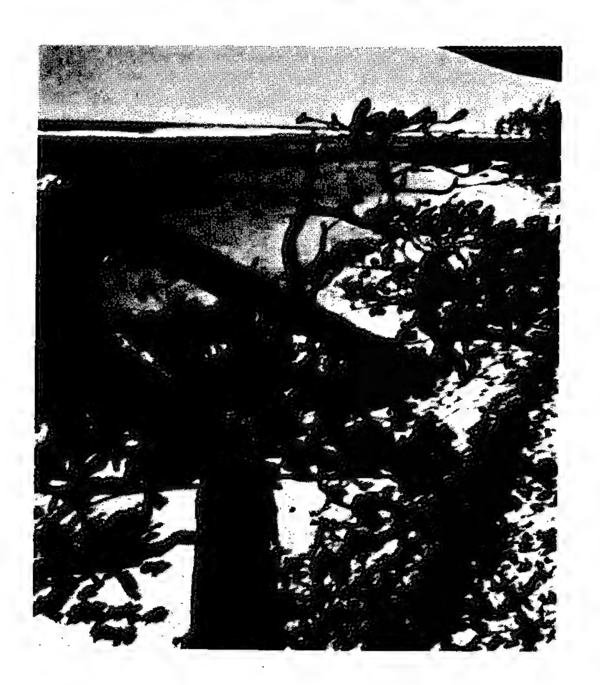
ومن أغرب ما في هذه الحديقة ما أخبرنا به الدليل وهو شجر يسمى (التاليبوت) قال إن شجرته تظهر زهرة واحدة ويريد أن يقول طلعاً واحداً بعد مائة سنة أي : بعد أن تغرس بمائة عام وأرانا بعض أشجارها وهي نادرة فرأيت أكبرها ويبلغ ارتفاعها حوالي عشرة أمتار قال : إن عمرها ما بين ٧٠ إلى ٨٠ عاماً وأنها لم تثمر بعد . وهي شجرة أسفلها شبيه بالنخلة وأعلاها شبيه بشجرة النارجيل .

وخرجنا من هذه الحديقة معجبين ، وعلمنا أنها أسست عام ١٨١٠م .

ومن الحديقة انطلقنا إلى شاطىء البحر وهو شاطىء رملي لون رمله أبيض يسهل المشي عليه إلا أن منطقته ليست فائقة الجمال ، وكانت الشمس قد قاربت أن تغيب وكان الهواء منعشاً ورأينا رجلاً على الشاطىء يبيع أثمار النارجيل الغضة فاشترينا شيئاً شربنا ماءه ، وأكلنا من شحمه وهذا أصدق وصف على ما يلي قشر ثمرة النارجيل ما دامت خضراء فهو كالشحم دسم إلا أن دسمه خفيف وهو لذيذ . ثم عدنا بعد الغروب إلى الفندق .



منظر من ساحل البحر في موريشيوس .



يوم الخميس : ٢٦ محرم ١٣٩٨هـ ٥ يناير ١٩٧٨م .

المتحف الوطني :

كانت الزيارة هذا الصباح لمتحف موريشيوس الوطني في مدينة بورت لويس العاصمة وهو متحف صغير ولا غرو في ذلك لأن هذه الجزيرة نفسها صغيرة كانت منعزلة عن العالم ، ومن أهم ما فيه الطيور الكبيرة التي تسمى (دودو) وعندما سمعت هذه الكلمة ذكرت أن العامة عندنا ينادون الطيور وبخاصة الدجاج بقولهم : دي ، دي وكذلك الأطفال يسمون كل الطيور دي دي . فهل لذلك علاقة بهذا الاسم ؟ لا شك في أن الذين سموا هذه الطيور بهذا الاسم هم من العرب أو من وصل إلى الجزيرة بعدهم .



طائر الدودو المنقرض الذي يقال إنه لم يكن يوجد في غير موريشيوس

وهذه الطيور ليس لها ما يؤهلها للبقاء ذلك لأن أجسامها كبيرة جداً في قدر أجسام النعام ، وأرجلها قصيرة بقدر أرجل الحمام فهي ثقيلة وليس هناك

أرض يابسة واسعة يمكن أن تلجأ إلى غاباتها في هذه الجزيرة المحدودة المسافة وقد ألح عليها البرتغاليون عندما وصلوا إلى هذه الجزيرة يقتلونها لأكل لحومها مع أن مناقيرها معطوفة مما يدل على أنها تأكل اللحوم وهي فيما قيل لنا تأكل الحيوانات الصغيرة بالفعل . وآخر طير وجد منها حياً كان عام ١٦٨١ م ، وهي فريدة في هذه الجزيرة فلا توجد في غيرها من أنحاء العالم .

وأكثر شيء في هذا المتحف هو خَلْق البحر من أسماك وأصداف ، ومخلوقات أخرى لكونها جزيرة وسط المحيط ، ومن ذلك سلحفاة ضخمة محنطة تزن نصف طن وظهرها مخطط بخطوط طولية رمادية اللون خلاف السلحفاة المعروفة لنا في الشرق الأوسط التي ظهرها مقسم إلى قطع كقطع البلاط . وكذلك فيه أنواع غريبة من السرطان أي المسمى (أبو جلمبو) عند بعض العرب المحدثين — وكذلك يوجد أسماك غريبة مختلفة الأشكال . وفيه قسم للحشرات وأكثرها ملون إلا أن ألوانها ليست زاهية متعددة الأشكال كما هي موجودة لدينا .

مسجد الجمعة :

ومن هناك انتقلنا إلى مسجد الجمعة وهو ثاني مسجد بني في هذه الجزيرة من حيث القدم ، وقد مضى على بنائه حوالي مائة وخمسين سنة وهو مبني على الطراز الهندي المغولي تقريباً وأعمدته مربعة كبيرة جداً وله أربع منائر صغيرة وقبل الوصول إلى المسجد الرئيسي المسقوف هناك رواق عليه أعمدة من الخشب منقوشة نقشاً جميلاً والسقف ما بينها قد صنع على شكل محاريب عربية الطراز إسلامية الهندسة ، من الخشب المخروط ، وعلى المسجد الرئيسي ثلاث قباب متوسطة الحجم .

وعلى المحراب من اليمين كتبت هذه العبارة بالعربية (لا إله إلا الله الملك

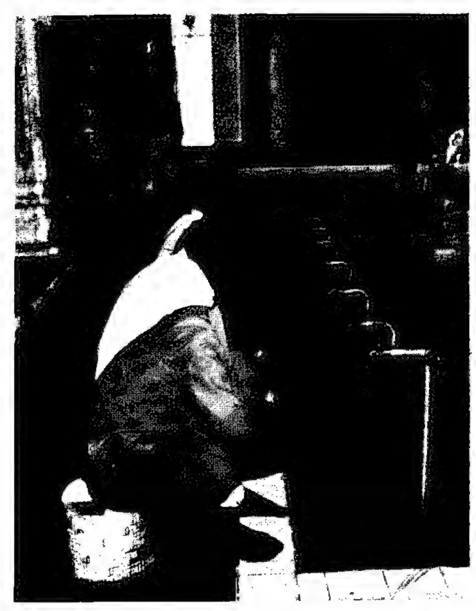
الحق المبين) وعلى الشمال : (محمد رسول الله صادق الوعد الأمين) ، وفي ركن من المسجد ساعة كتب عليها تاريخ إهدائها وقد مضى عليه مائة وعشر سنوات وهي كبيرة على هيئة خزانة يتدلى منها بندولها أصفر والظاهر أنه من الصفر.



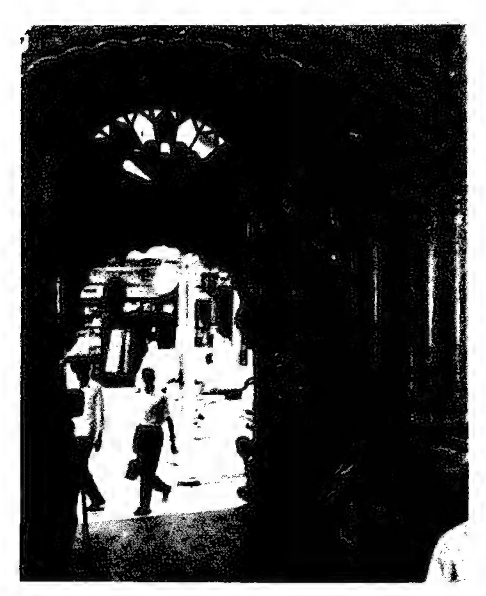
منارات المسجد مع القبة الرئيسية.

وهناك في صحن المسجد شجرة كبيرة ذات فروع كثيرة وأوراق عريضة قالوا : إن اسمها (بدامية) وإنها تثمر شيئاً لا يؤكل وإنه مضى على غرسها في المسجد أكثر من مائة سنة وهي نافعة لأنها تظل جزءاً من ناحيته الخارجية المكشوفة عن الشمس أما الباقي فقد وضعوا فوقه شباكاً من قضبان الحديد تمسك بمظلة من الشراع ويضعونها لتقي الناس المطر في موسم الأمطار.





أماكن الوضوء في مسجد الجمعة



بوابة مسجد الجمعة في موريشيوس.

وفي الطابق الثاني مدرسة او قل كتاب اسمه (مدرسة جمعه مسجد) أي مدرسة مسجد الجمعة وتعلم الدين باللغة الاوردية كما تعلم شيئاً من العربية ، وفيه قاعة متوسطة — أي في الدور الثاني — مخصصة لعقد الزواج — للمسلمين عليها لوحة بالأوردية نصها (خوش آمديد) أي : قدمتم خير مقدم وأخرى تقول : (شادي مبارك) أي : زواج مبارك ، وقال مدير شئون المسجد السيد صالح نور محمد : إن المسجد يتقاضى مائتي روبية عن كل زواج يعقد فيه أي : حوالي ١١٠ ريالات سعودية وأنهم يضعون هذا المبلغ في صندوق المسجد للصرف منه على ما يحتاجه .

وفي أعلى المسجد بناء صغير يشبه البرج الصغير قالوا إنهم يعلقون عليه النور في رمضان إذا غربت الشمس ليعلم المسلمون في بيوتهم أن الشمس قد غربت فيفطرون وفي الفجر ينزلونه ليعلموا أن الفجر قد طلع فيصومون .

ومنه ذهبنا إلى مسجد نور الإسلام وهي مسجد حديث كتب على مدخله باللغة العربية (اللهم افتح لي أبواب رحمتك) وبجانبها كتبت ترجمتها بالفرنسية .

وفي هذا المسجد لوحات كتبت عليها آيات قرآنية مفسّرة وأحاديث نبوية مع شرحها باللغة الشعبية لهذه البلاد وهي اللغة المسماة بالكريول .

فندق بأسم الله :

أثناء ذهابنا من بورت لويس إلى منطقة تسمى (كتربون) لفت نظرنا أمران أولهما فندق عليه اسمه بحروف بارزة (بسم الله هوتيل) وقالوا إن صاحبه مسلم بطبيعة الحال ، ولكن الأهم في الأمر أنه لا يسمح بدخول أي حرام فيه مما يؤكل أو يشرب فلا يسمح للنزيل ولو كان غير مسلم أن يحضر مثل ذلك .

ومكتب الرابطة الموصد :

وثانيهما : بناء حديث جميل مكون من ثلاثة طوابق كتب عليه بالعربية والانكليزية (مركز رابطة العالم الإسلامي) وهو بناء فيه مكتبة جيدة . وقصته محزنة ذلك بأن الرابطة عهدت إلى شخص من أهل البلاد يسمى عبد الرشيد محبوب لكي يقوم على بناء هذا المركز ، وتسيير أمره ولكنه فيما يقولون سجل كل شيء باسمه وسكن فيه وعندما أرادت الرابطة عزله وإخراجه ادعى أنه له ، وأنه كان ينفق عليه من نقوده ، وقد رفع أمره إلى المحكمة فأمرت بقفل المكان ، حتى يفصل في أمره وما تزال القضية منظورة في المحكمة ، ويقال إن المكتبة التي فيه قد تشتت كتبها مع أنها غنية بالكتب الإسلامية التي يقل نظيرها في هذه الجزيرة .

وكان رفقاء الجولة هذا الصباح هم المحامي محمد رشاد درياوو رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في موريشيوس والسيد محمود غلام ديللو والشيخ اسماعيل دوكري .

وبعد العودة إلى الفندق ومقابلة بعض الشخصيات المهمة مثل السيد (محمد حسين دهال) رئيس الدائرة الإسلامية في موريشيوس استأنفنا الجولة بعد الظهر على بعض المؤسسات الإسلامية وكأن أولها :

دار الرعاية الإسلامية :

ومنظر تلك الديار مما يترك في النفس أثراً عميقاً فالقائمون على الدار وعلى رأسهم رئيس الجمعية (حاجي محمد ادريس) قد أخذوا على أنفسهم أن يتكفلوا بكل شخص عاجز من المسلمين لا عائل له . فيضعونه في هذه الدار يأكل ويشرب . ويوفر له الضروري من الرعاية الطبية حتى يستغنى أو يتوفاه الله ، وقد قسموها إلى قسمين منفصلين أحدهما للرجال ، والآخر للنساء ،

ومعظم النزلاء من الجنسين من كبار السن ، ويوجد بعض النساء الشابات . وقد زودوا قاعة الطعام في كل قسم بجهاز للتلفزة يساعد النزلاء على قضاء أوقات الفراغ التي هي في الحقيقة كل أوقاتهم أو أكثر أوقاتهم . وقد تبرع بالجهاز بعض أهل الخير من المسلمين مع أن قيمته أغلى مرتين من قيمته في بلادنا بسبب المكوس المرتفعة على الكماليات في هذه البلاد .

ويقومون الآن ببناء جديد سيكون فيه دور تحت الأرض ودور أرضي وطابق ثان وقال المدير إنه وصلهم من المملكة بواسطة رابطة العالم الإسلامي ٢١ ألف روبية والبقية من أهل الخير .

وقال : إن دخوله في مشروع هذه الدار وإنشاءه لها له قصة ذلك بأنه مرض فدخل مستشفى تبشيريا منخفض النفقة وكان مرضه شديداً أشرف منه على الموت قال : وبينما كان على هذه الحالة كان نظره أينما يوجهه يقع على صور الدعاية الدينية المسيحية مع أنه يدفع نقوداً للمستشفى فأقسم على نفسه أن يسعى إذا عافاه الله على إحداث دار ومستشفى للمسلمين تجعل المسلم لا يضطر إلى أن يكون آخر ما يقع نظره عليه تلك الصور بل يكون ذلك كلمتي الشهادتين (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) وآيات القرآن الكريم .

قال : وعندما عافاني الله تعالى وخرجت من المستشفى لم أكن أملك روبية واحدة أستطيع أن أبدأ بها المشروع فشكوت الأمر إلى طبيب مسلم . فقال : إن لديّ في البنك مبلغ أربعين ألف روبية أي حوالي واحد وعشرين ألف ريال سعودي — أريد أن أشتري بها بيتاً أسكنه وإنني أتبرع بها كلها لله تعالى . قال : وكانت هدية هذا الطبيب المسلم هي أول ما فتح الله عليّ لهذا المشروع .

وقد أقام الآن بيتاً للواعظ الذي يؤم النزلاء ويعظهم ويرشدهم إلى أمور دينهم وجهزه حتى بستائر النوافذ وجعل له مدخلين أحدهما خارجي إلى

الشارع ، والآخر داخلي إلى دار الرعاية ، وقال إنه تيقن أن الله الذي سهل إيجاد هذا البناء سيسهل وجود الإمام الواعظ ، وفوق البيت المخصص للإمام بنى شقة سماها (مسافر خانة) أي : بيت الضيافة وقال : إن هدفنا أن نستضيف كل مسلم مضطر مدة أقصاها ثلاثة أيام حتى يتدبر أمره .

إن هذا العمل عظيم مع أن هذا الرجل قد قارب عمره أن يصل السبعين وهو مصاب بمرض في قلبه ولكن عزيمته أقوى من المصاعب ، وإيمانه بالله ومحبته للخير فوق كل العقبات يعاونه في ذلك جمعية أعضاؤها كلها من أهل الخير .

في دار الأيتام الإسلامية :

ومن دار الرعاية الإسلامية انتقلنا بالسيارة إلى مسجد حديث اسمه (شأن الإسلام مسجد) وقد بني على ركن أرض للمسلمين قديمة الوقف تضم ميتماً لأطفال المسلمين فيها ٤١ ولداً و١٦ بنتاً كل منهم في ركن منفصل عن الآخر . وقد تم إنشاء هذا الميتم عام ١٩٣٢م ويقوم على إدارته أحد المسلمين (أبو السمح سباتي) وكان يعمل محاسباً وله ولدان طبيبان وابنة واحدة تعمل محاسبة أيضاً إلا أنه ترك عمل الدنيا وتفرغ للقيام على هؤلاء الأيتام من المسلمين .

وقد دخلنا المسجد بعد تفقد الميتم قبل أن تغرب الشمس بقليل فشاهدنا عدداً من إخواننا المسلمين يحضرون مبكرين للصلاة ورأينا داخل المسجد حديث البناء والطراز ليس بناؤه على طراز معهود في فن العمارة الإسلامية وهو متوسط السعة وتتبعه عدة غرف أعدت لتكون مدرسة لأطفال المسلمين يتعلمون فيها مبادىء الدين الإسلامي واللغة العربية في أوقات العطل الأسبوعية والموسمية . وعلى جدران الساحة الخارجية للمسجد لوحات باللغة الفرنسية تشرح بعض أحكام الإسلام وإرشاداته لمن يدخلون المسجد .

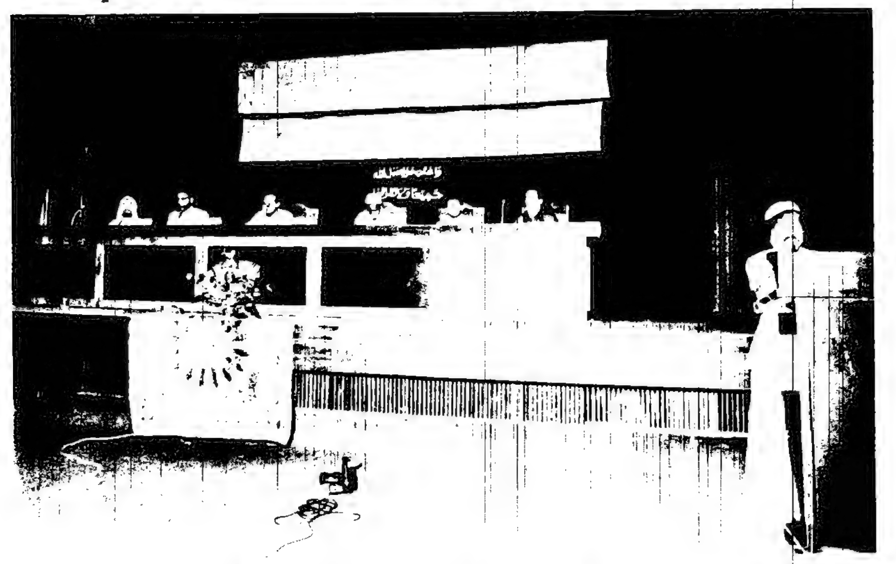
يوم الجمعة : ٢٧ محرم ١٣٩٨هـ ٦ يناير ١٩٧٨م .

إفتتاح المؤتمر :

اليوم هو موعد افتتاح المؤتمر الذي تقيمه حركة الطلاب المسلمين في جزيرة موريشيوس وهو المؤتمر الذي دعيت للحضور إليه .

وقد توجهنا في الساعة العاشرة إلى (بناية مهاتما غاندا) وهي بناية جميلة على الطراز الهندي وتحمل رسوماً هندية بنتها حكومة الهند وأهدتها إلى جزيرة موريشيوس .

وكان انعقاد المؤتمر في قاعة الإجتماعات فيه وهي قاعة ذات مدرج فني فوقه طبقة أخرى تشبه (الشرفة) أو (البلكونة) فيها لحوالي ثلثمائة كرسي ، وأمام الجميع منصة عالية أو هي مسبرح قد وضعت فيه مائدة كبيرة وهي المنصة



المنصة الرئيسية في المؤتمر والمؤلف من الجالسين فيها .

الرئيسية وضعوا في وسطها كرسي الرئيس وهو الأخ (غلام جيلاني) من الدولة المضيفة (موريشيوس) وإلى يمينه وضعوا مجلساً وأمامه لوحة صغيرة كتب عليها

(المملكة العربية السعودية) ثم هناك رئيس وفد زمبابوي أي روديسيا .

وقد افتتح الحفل بالقرآن القرآن ثم كلمة رئيس المؤتمر ومنظمه الأخ غلام جيلاني ثم كلمتي التي تضمنت كلمة رئاسة البحوث العلمية ممثلة في رئيسها سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وكانت كلمة تتضمن بيان قوة رابطة الإسلام وأنها أقوى من رابطة النسب ، وأن بعد الدار لا يؤثر في العلاقة بين المسلم وبين ربه كما أنه لا يؤثر بين المسلم وأخيه المسلم في أنحاء الأرض ، وأننا في المملكة العربية السعودية لا ندخر وسعا في السعي لما فيه نفع إخواننا المسلمين .

وكنت أتكلم بالعربية فيقوم بترجمة ذلك إلى الإنكليزية الشيخ آدم مكدا من زمبابوي (روديسيا) وهو أحد المتخرجين في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ويعمل الآن مرشداً إسلامياً في بلاده روديسيا ، ثم توالت كلمات الوفود القادمة إلى هذه البلاد للاشتراك في المؤتمر . ومنها وفود من جنوبي إفريقية وجزيرة رينيون وجزر القمر وكينيا وتنزانيا وأوغندا . وممثل عن ندوة الشباب الإسلامي في الرياض هو الأخ الدكتور خالد نحاس من مكة المكرمة . ووفد من ملاوي .

الوفد عشرة بالمائة :

ووفد جزر سيشل الذي قدم إلى هذه البلاد مؤلف من عشرة أعضاء وهؤلاء العشرة هم عشرة بالمائة من جميع عدد المسلمين في تلك الجزر إذْ لا يزيد عدد المسلمين هناك عن مائة شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ستة وستين الفاً وعلى رأس الوفد الأخ أبو الفضل محسن إبراهيم وهو قد درس في الأزهر بعض الدراسة وتدفع له دار الإفتاء في المملكة مكافأة على قيامه بإرشاد المسلمين في سيشل وتعليمهم أمور دينهم .

من الأديان الأخرى :

حضر الحفلة الافتتاحية للمؤتمر جمع غفير بحيث امتلأت مقاعد القاعة من الرجال والنساء إلا أن عدد النساء يبلغ حوالي ٢٧٪ من عدد الرجال الحاضرين ، وقد خصص لهن ركن منفرد في القاعة إذ هذه مقاعدها مقسمة إلى ثلاثة أقسام رئيسي في الوسط وآخر إلى اليمين وآخر إلى اليسار بين كل قسم وآخر ممر ، وقد جعلوا القسم الأيسر للنساء خاصة وظاهر من منظر ثياب النساء



حتى النساء شاركن في حضور المؤتمر الإسلامي.

أنهن كلهن تقريباً من المسلمات ومن ألطف ما فيه منظر امرأة مسلمة قد غطت وجهها بحجاب أسود وأخرى فعلت كذلك ولكن بحجاب أبيض ولم يوجد غير اثنتين من المتحجبات فيه .

وقد حضره من أهل الأديان الأخرى جماعة منهم هنادكة وبعض القسس من النصارى وبدا الاهتمام على وجوه الجميع ومتابعة ما يقال عن الإسلام وربما كان ذلك لكونهم يسمعون مثل هذا الكلام لأول مرة .



منظر من المؤتمر

كما حضر رؤساء البعثات الإسلامية المعتمدة في هذه الجزيرة وهم ثلاثة فقط سفير مصر ، وسفير باكستان والقائم بالأعمال الليبي ليس غير أي لا يوجد سفارات أو بعثات إسلامية لغير أولئك الدول الثلاث وبهذه المناسبة حدثنا إخواننا المسلمون أنهم يجدون رعاية تامة لشؤون المسلمين من السفارة الباكستانية هنا .

كان الحفل مصوراً للتلفزة والتصوير المعتاد . وكانت الملابس العربية الكاملة التي تغطيها العباءة العربية أو المشلح عليّ وحدي أما الملابس العربية التي هي القميص العربي والقلنسوة (الطاقية) فقد كانت موجودة على عدد كبير من الحضور إذ لبسوا منذ الصباح لهذه المناسبة ما عندهم من القمصان العربية الفضفاضة مع أنه ليس من عادتهم ذلك ، ولبس عضو من وفد جزائر القمر الملابس العربية كاملة ما عدا المشلح . وذلك كله من باب إظهار الفرح بهذه المناسبة الجليلة وهي اجتماع وفود من عدد من البلاد الإسلامية في جزيرتهم .

وكان تنظيم المؤتمر جيداً ، وبرنامجه منسقاً خفيف الظل فقد اشتمل على كلمة الافتتاح من رئيسه وهي متوسطة وكذلك كلمتي متوسطة تميل إلى القصر ، أما كلمات بقية الوفود فكانت قصيرة جداً بحيث لا تزيد على ٤ دقائق أو ثلاث ما عدا كلمة زمبابوي أي روديسيا فكانت متوسطة .

الغــداء والصــلاة :

أعلنوا بعد ساعة وخمس دقائق من بدأ الحفلة الافتتاحية أنها قد انتهت وأنه مطلوب من الوفود أن يتناولوا طعام الغداء على مائدة الطلاب الداعين وبعد ذلك تقام صلاة الجمعة فيصلونها مجتمعين ثم يعودون إلى قاعة المؤتمر حيث يبدأ درس في تلاوة القرآن ثم يستأنف برنامج المحاضرات والكلمات .



اجتماعات جانبية بين أعضاء الوفود ومنهم المؤلف (بالملابس العربية) .

إلأ أننا حينما تحركنا للغداء طلبوا منا البقاء قليلاً ، حتى يفرغ النساء من تناول طعامهن لأنهم بدأوا بهن في تقديم الغداء حتى تستطيع منهن من تريد الذهاب أن تذهب قبل صلاة الجمعة إذْ لا جمعة عليهن وكانت فرصة لكي نلتقي بعدد كبير من شباب المسلمين في هذه البلاد ونتحدث معهم كما التقطت عدة صور تذكارية تحت اللوحة الكبيرة المكتوبة في حائط المنصة بالعربية (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) وتحتها الآية الكريمة : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) . وتحتها بالانكليزية ، جملة ترحيبية .

العربية تنتشر في موريشيوس :

من المفاجآت بالنسبة إليّ أن التقي بعدد كبير جداً من أبناء هذه البلاد فيكلموني بكلمات يحفظونها من العربية ويصرون على أن يكون الكلام بالعربية مع أن حصيلتهم منها ليست كبيرة في مجال المخاطبة أما في مجال القراءة فانهم يستطيعون قراءة النصوص العربية ولكنهم لا يفهمونها وكل الذين سألتهم عن المكان الذي تعلموا فيه العربية قالوا لي : إنه بلادهم هذه (موريشيوس) وأكثرهم تعلموا على أيدي المبعوثين من المملكة إلى هذه البلاد ومن أجودهم الشيخ إخلاص احمد أحد المتخرجين من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وهو من أهل الهند .

وأعداد الشباب كثيرة ممن يتعلمون العربية الآن ولكن الغريب الطريف في الأمر أن هناك أعداداً لا يستهان بها من الشيوخ وكبار السن من المثقفين ثقافة عالية ومن ذوي الأعمال الناجحة والوظائف المرموقة قد بدأوا بالفعل يتعلمون اللغة العربية مثل ما يتعلمها التلاميذ الصغار وأحوج ما يحتاجونه وما ألحوا في طلبه هي كتب الهجاء في المملكة . ومن أولئك يصح أن نضرب مثلاً بالدكتور حسين نحبو وهو طبيب أسنان في العقد السادس من عمره أبى أن يكلمني إلا

بما يعرفه من العربية ولو كان قليلاً وقال : إنه يأمل إذا تعلم قدراً كافياً للمحادثة من اللغة العربية أن يقضي وقتاً في أحد البلدان العربية حتى يكتسب التمرين على التخاطب .

ويشكو المسلمون هنا الذين يريدون أن يتعلموا العربية مر الشكوى من قلة وجود الكتب الصغيرة التي تعلم العربية ، ومن قلة وجود العدد الكافي من المدرسين لذلك .

وهناك أمران هامان في مجال تعليم اللغة العربية هنا أحدهما حكومي ، والآخر ليس كذلك ، أما الحكومي فهو أن حكومة موريشيوس قد قررت إدخال اللغة العربية في مدارسها الابتدائية اعتباراً من مطلع العام الحالي ١٩٧٨م فأصبحت تدرس إلى جانب الفرنسية بمعنى أنها لغة أجنبية ثانية معترف بها في التعليم أما لغة التدريس الرسمية فهي الانكليزية .

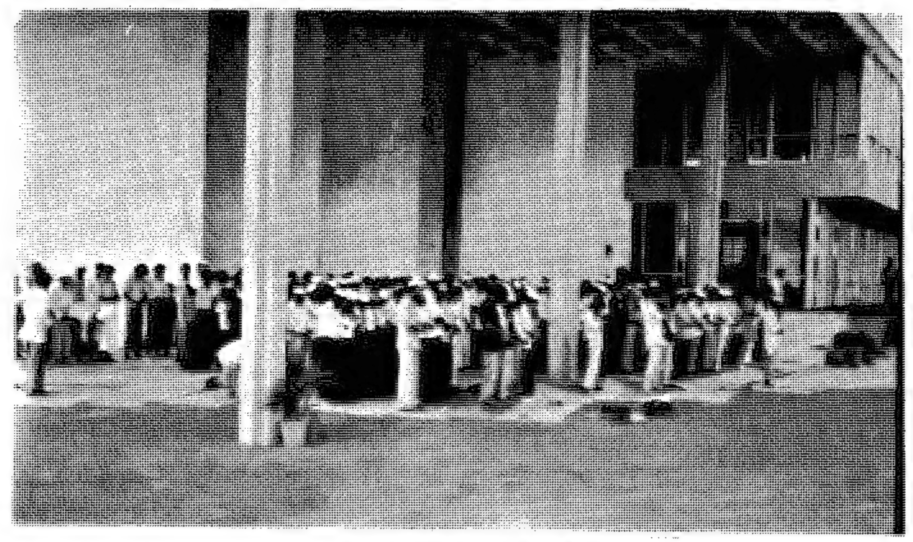
والثاني أن معظم إخواننا المسلمين الذين جاؤا من الهند كانوا يدرسون الدين الإسلامي باللغة الأوردية فكان عليهم أن يعلموا أولادهم قدراً منها أما الآن فقد بدأوا بدراسة اللغة العربية بديلة من الأوردية في المدارس والكتاتيب الإسلامية ، وذلك بسبب بعدهم عن الهند وانقطاع صلتهم بها أو ضعفها . ولأمر آخر له أهميته وهو أن حكومة موريشيوس في الوقت الحاضر تعتبر صديقة للعرب لأنها بحاجة إلى النفط والمعونة من الأقطار العربية لذلك لا تمانع في حصول المسلمين على أية مساعدة ثقافية أو دينية من الأقطار العربية وتسهل منح الدخول والإقامة للمدرسين والمرشدين المبتعثين منها .

غـداء المـؤتمر :

وبعد فترة من الاجتماعات الخاصة بين أعضاء الوفود ذهبوا بنا إلى قاعة في

الطابق الأعلى من القسم المخصص للطعام في بناية هذا المعهد الذي يعقد فيه المؤتمر ، وجلسنا صفوفاً على الموائد فوزعوا علينا الطعام الذي هو شطيرتان من الخبز فيهما شيء من بيضة وقطع من البطاطس المقلي ووضعوا أمام كل واحد زجاجة كبيرة من الكوكاكولا . وكان غداء خفيفاً ألذ ما فيه أنه من جهد إخوان لنا ، ومن كسب ذات أيديهم .

ومن بعد الغداء انطلقنا إلى ركن واسع من رواق المعهد فوجدنا الحصر قد مدت وقد اجتمع فيها الحضور من المسلمين ما بين مصل وبين قارىء للقرآن في انتظار صلاة الجمعة وان كان القارئون للقرآن غير كثير ، وطلبوا مني أن أؤمهم



الوفود يؤدون صلاة الجمعة .

لصلاة الجَمعة وأن أخطب بهم فامتنعت وقلت في نفسي : لا ينبغي أن استأثر بأكثر الأشياء في هذا المؤتمر فقد أكرموني وجعلوني أول المتكلمين ثم طلبوا مني أن أتولى بالنيابة عن المؤتمر غرس شجرة زيتون في نهاية المؤتمر ، إضافة إلى محاضرة في مساء اليوم التالي عن المسلم الفاتح ، فأمنا لصلاة الجمعة الشيخ آدم مكدا من وفد روديسيا فخطب أولاً بالانكليزية خطبة طويلة مؤثرة وكان يتكلم

واقفاً على الأرض وتضمنت كلمته في المقام الأول الحث على تطبيق الإسلام بالفعل والقول والعمل ثم لما فرغ تقدم أحدهم وأذّن لصلاة الجمعة فقام الخطيب على منبر خشبي صغير قد أحضروه لهذا الغرض فألقى كلمة مختصرة بالعربية هي الخطبة الأولى ثم جلس هنيهة ثم قام فألقى خطبة أقصر منها بالعربية أيضاً ثم أقيمت الصلاة .

وبعد ذلك توجهنا إلى زيارة الكلية العالمية وهي منسوبة إلى الشيخ (مولانا عبد العليم الصديقي) أنشئت في عام ١٩٦٢م ومستواها مستوى المدارس الثانوية ، ومن الموضوعات التي تدرس فيها الانكليزية والفرنسية والثقافة الإسلامية ، وقد أدخلوا دراسة اللغة العربية في العام الماضي فقط ، فيها قسم للطلاب وآخر للطالبات وتساعدها الحكومة وتشرف على الإمتحان فيها فتعترف بشهاداتها . وقد أنشئت في الأصل لتوفير الدراسة المدنية المعتادة مع قليل من المعرفة الإسلامية لأولاد المسلمين .

الدولـة كلهـا بركـان :

كيف ذلك ؟

أخذنا المحامي محمد رشاد دوراواوو رئيس المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية في موريشيوس إلى مكان في أعلى نقطة من الجزيرة وقال سأوريكم الهواء البارد والبركان الخامد . فذهبنا إلى منطقة تسمى كروبيب وهي أعلى منطقة في الجزيرة ارتفاعها عن سطح البحر ٥٠٠ متر فصعدنا طريقاً جبلياً قادنا بارتفاعه إلى قمة فيها حفرة عظيمة هائلة قال هذه هي البركان . قلنا البركان يفترض أن يكون قمة لا أن يكون حفرة فضحك ، وقال : هذا صحيح إلا أن الحقيقة أن الجزيرة كلها بمثابة المرتفع البركاني وهذه الحفرة الكبيرة هي فوهة البركان . إلا أن البركان خامد منذ سنين طويلة ربما تكون عدة قرون أو عدة آلاف من

السنين ، ولما قلت له : إن الهواء هنا لطيف بارد لا تصدق وأنت فيه أنك في موريشيوس ذات الهواء الرطب الذي يشبه هواء البلاد الاستوائية فلماذا لا يجعلون هنا مقصفاً أو أماكن للاستراحة أو نزلاً لمن يريد أن يفر من الحر أو الرطوبة ؟ قال ، إن العواصف الهوجاء التي تهب على هذه البلاد في بعض السنين لا تدع شيئاً في مثل هذا المكان المرتفع إلا خربته وبخاصة أنها تأتي أحياناً على شكل أعاصير بحرية تحمل معها جبالاً من الأمواج . وأمواج المد لا يستطيع مقاومتها منه إلا أبنية بالاسمنت أو الحجارة إلا في الأماكن التي لا تتعرض لها مباشرة .

وانحدرنا من هذا المرتفع الجميل ذي الهواء العليل ، وأنا أفكر في قوله إن الجزيرة كلها عبارة عن بركان واحد فوهته هذه التي رأيناها وكنت أفكر أيضاً في أن هذا البركان قد هدأ قبل أن يبدأ وصول الانسان إلى هذه الجزيرة وقلت في نفسي : ماذا لو عاد مرة ثانية إلى الثورة والفوران كما يفعل أكثر البراكين؟ أين يجد أهالي هذه الجزيرة الملجأ الذي يحميهم من ناره وشراره وهم محاصرون بمياه المحيط من كل جانب ؟

ونبهني من تفكيري قوله : إنه إذا هبَّ الإعصار على الجزيرة فان الحكومة تأمر أهالي البلاد بألا يغادر أحد منهم مسكنه خوفاً على حياته ، وتتعطل الحركة تماماً حتى لا يجد المرء ما يستطيع أن يأكله إذا طال الأمر إلا أن سهولة الاتصالات في الوقت الحاضر جعلتها تعرف موعد وصول الإعصار قبل أن يصل فتنذر الناس منه فيأخذون للأمر أهبته ، ولانحباسهم في بيوتهم عدته .

وعند ذلك رثيت لأهل هذه الجزيرة إذا فكروا بمستقبلهم على هذا الأساس . وسألت الله السلامة هذا وتسمى فوهة هذا البركان (تروا سيف) ويقولون : إن معناها (حفرة الغزلان) وعدنا إلى الفندق . وكان عدد من إخواننا هناك حيث عقدنا عدة اجتماعات معهم .

يوم السبت : ٢٨ محرم ١٣٩٨هـ ٧ يناير عام ١٩٧٨م

مزيـد من المـدارس :

كان من بين المدارس التي زرناها اليوم ثلاث : إحداها كلية الثقافة الإسلامية ومستواها مستوى المرحلة الثانوية إسم مديرها رشاد يتيم . وفيها ١١١٥ طالباً و ٥٠ مدرساً وقد أمدتها السفارة الليبية ببعض المدرسين الليبيين لذلك وضع المدير صورة العقيد القذافي بارزة في غرفة الإدارة .

والثانية كلية إمداد الإسلام للبنات مديرها اسمه حسين حيرة فيها ألف طالبة حسبما قالوا وخمس وأربعون من المدرسات وقد بناها جماعة من المسلمين بالتعاون فيما بينهم أسست في عام ١٩٠٢م ، ويدرس فيها الثقافة الإسلامية وشيء من اللغة العربية قليل .

والثالثة : المدرسة الإسلامية العالية اسم مديرها : سليمان أحمد حسين . ألقى أحد الطلبة كلمة بالعربية قصيرة وألقت إحدى الطالبات واسمها (قريسة سوبي) كلمة بالفرنسية يدرسون العربية والأوردية وموضوعات إسلامية ، ولقينا فيها (الشيخ طيب تيقالى) وهو من القراء فقرأ آيات كريمة قراءة جيدة .

مع رئيس الوزراء :

قال لي إخواني منذ وصلت إلى (موريشيوس) : هل تريد أن تقابل رئيس الوزراء ؟ فقلت : لا ، إنني قدمت للاشتراك في المؤتمر الإسلامي ومقابلة قادة العمل الإسلامي في مختلف الحقول . أما رئيس الوزراء فيقابله أحد رجلين ، رجل موفد من حكومته لهذا الغرض . أو رجل يحب الظهور . وأنا في هذه البلاد لست أحدهما .

ولكن الأمر جدّ فيه جديد فقد ذهب إلى رئيس الوزراء بعض زعماء

المسلمين وأخبروه بقدومي فخصص لي سيارة ومرافقاً عسكرياً فرفضت المرافق وقبلت السيارة بعد أن وقفت بالفعل أمام فندقي ، وكان سائقها عسكرياً لذلك وجب في نظري أن أشكره على بادرته التي لم أُردْها فضلاً عن أن أطلبها ، ولكن ليس من المستساغ أن أسافر دون أن أشكره لذلك كان اللقاء بناء على ترتيب من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في موريشيوس في الساعة الحادية عشرة والنصف من ضحى اليوم في مكتب رئاسة الحكومة .

كان البناء بناء جيداً نظيفاً ذا واجهة حجرية يخترقها درج نظيف عال ، وكان هناك جنود وقوف في الممرات ، وكان ما لفت أنظارهم ليس مجرد زيارة زائر فالزائرون كثيرون ولكن الملابس العربية الكاملة جعلتهم ينظرون إليها وينظر إليها معهم بعض موظفي المكاتب من نوافذ رئاسة مجلس الوزراء ، وكان اللقاء مباشرة أي : أننا وصلنا عبر عدة ممرات إلى غرفة للسكرتارية لم نجلس فيها بل لم نقف وإنما دخلنا رأساً إلى غرفة الرئيس فوجدناه عند بابها فسلم علينا هاشاً باشاً ، وكان بعض المصورين يلتقطون الصور .

وجلسنا برهة شكرته في أولها على حسن ضيافته ثم شكرته أيضاً على ما لمسته في هذه البلاد من حرية للمسلمين في أداء شعائر دينهم وقلت : هذا يدل على أنكم ومن اخترتموهم معكم تتمتعون بثقافة عالية وبروح إنسانية طيبة ثم شكرته ثالثاً على ما تتمتع به هذه البلاد من أمن شامل لجميع المواطنين والضيوف والزوار ومن جميع الأديان والأجناس ، فسرّ بذلك وقال أرجو أن تبلغوا سلامي وتحياتي إلى جلالة الملك وسمو ولي عهده وقال إنني أعرف الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله كما أبدى سروره لهذه الزيارة ، وأبدى رغبته الشديدة في إقامة تمثيل سياسي بين المملكة وموريشيوس .

ومن انفراداته أنه عند ما أردنا أن نخرج من مكتبه قدم لنا مدير المكتب

دفتراً معداً للزيارة يسجل فيه الزائر اسمه وعنوانه وتاريخ زيارته وقد كتبت ذلك بالعربية ولم يقدم مشروباً أثناءها هذا ورئيس الوزراء اسمه السير سيوجار غلام رام وهو هندي الأصل هندوسي الديانة .

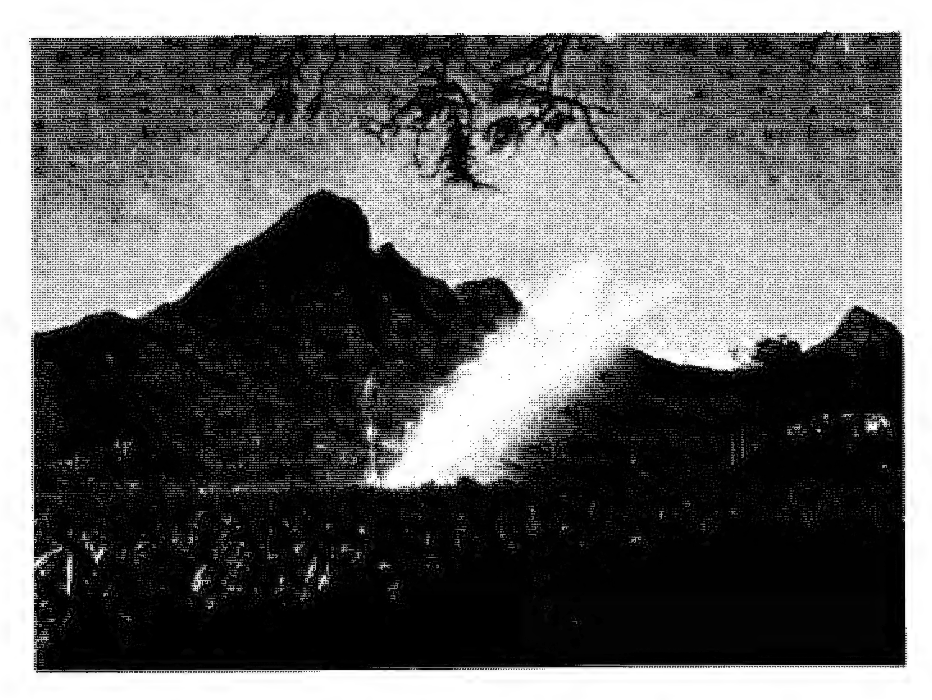


رئيس الوزراء غلام رام ، على يمينه المؤلف وعلى يساره الأستاذ رشاد درواوو .



ذات الألـوان السبعـة :

عندهم أرض في جبل تسمى (ذات الألوان السبعة) يقصدونها للزيارة وقد ذهبنا إليها فمررنا بساحل البحر الذي يراه من يذهب إلى أية جهة تزيد على ٣٠ كيلاً في موريشيوس فصعدنا جبلاً عالياً من طريق ضيق متعرج يكاد يصعد صعوداً مباشراً لأن الجبـل نفسه يكاد يكون واقفاً ومع ذلك كانت كل نقطة فيه مزروعة وكانت معظم المساحة مشغولة بمزارع السكر وأشجار أخرى منها أشجار المانقو البرية التي يباح لكل شخص أن يأكل منها .



حقول قصب السكر. تروى بطريقة الرش أحياناً فتنعكس عليها أشعة الشمس بألوان قوس قزح

وبعد مسافة (٤٠) كيلومتراً وصلنا المدخل إلى تلك المنطقة السياحية فأوقف موظف سيارتنا أمام سلسلة من الحديد وفهمنا أنه يريد ضريبة الدخول فأفهمه السائق وكذلك مرافقنا المحامي محمد رشاد دوراواو أننا ضيوف للدولة وأن السيارة حكومية فسمح لنا فدخلنا ثم سرنا حوالي كيلين اثنين فوجدنا أمامنا منظراً طبيعياً رائعاً وهو منظر واد عميق بين جبلين شاهقين مجللين بالخضرة يسقط من أحدهما شلال ماء ليس بالكثير ولكنه يسقط سقوطاً مباشراً فيحدث صوتاً يسمع من بعيد ، وله منظر رائع إذ يتناثر رذاذه على البعد فيذهب منه إلى جهات متعددة كأن أطرافه أسراب الفراشات البيضاء .

وبعد أن أمضينا بعض الوقت عنده وأخذنا صوراً تذكارية واصلنا سيرنا في طريق جبلي ضيق متعرج لا يكاد يتسع لسيارة واحدة حتى وصلنا إلى الأرض ذات الألوان السبعة ، وإذا بها تشبه الأكوام المتجاورة من التراب وليس عليها نبات بخلاف ما حولها فهو ذو نبات كثيف ، وإذا بالذين سموها ذات الألوان السبعة يريدون بها ذات الألوان الكثيرة لأنها في الحقيقة ذات ألوان متعددة يصح أن يقال إنها تبلغ أكثر من ٢٠ لوناً ولا يستطيع أحد أن يتصور كيف توجد مثل هذه الألوان إلا أنه إذا رآها تيقن أنها موجودة . والعجب أن ما كان منها تسطع عليه الشمس فانه يكون أكثر وضوحاً وأقرب إلى أن ترى العين الفرق واضحاً بين الألوان المتقاربة فيه فسبحان الله أحسن الخالقين وقد رأينا بعض الموريشيين أي أهالي موريشيوس قد خرجوا مثلنا لرؤيته مع أنه بعيد ورحلته متعبة وذكروا لنا أن هذه هي أول مرة يرونه . وقد التقطنا له بعض الصور من شريط ملون ثم غادرناه متعجبين ، هذا مع ملاحظة أن المساحة التي تتجمع فيها الألوان هذه لا تزيد على مائة متر طولاً وخمسين متراً عرضاً ، ولكن من الجائز أنه لو قشرت القشرة الخارجية وأزيلت الأعشاب عن المساحة المجاورة لكانت مثلها في الألوان .



الأرض ذات الألوان السبعة

وواصلنا سيرنا في اتجاه قمة هذا الجبل وهو ليس عالياً وقمته ليست محددة . لذلك رأيناه مزروعا من أصله حتى قمته وأكثر ما عليه من الزرع هو قصب السكر يعيش من غير سقي إلا مما جادت به عليه السماء وهو أخضر ريان فيما يظهر من منظره وهناك أشجار المانجو البرية المغروسة في الطريق التي إذا نضجت ثمارها كانت مباحة لكل أحد ، وليس ذلك فحسب وإنما هناك منطقة حول الطريق قد غرست فيها أشجار نوع من الجوافا البرية وهي مباحة يقال إنها إذا أثمرت خرج إليها السياح والمتنزهون فأخذوا يمشون على أرجلهم في الطريق ويأكلون من ثمارها يقطعونه بأيديهم .

الهواء على ظهر هذا الجبل بارد لطيف خفيف الرطوبة من الجانب الجنوبي ولعل ذلك لكون الرياح الجنوبية تهب عليه إذ الرياح الباردة في هذه المنطقة هي التي تهب من جهة الجنوب لأنها واقعة جنوب خط الاستواء ثم انحدرنا منه وسط غابات كثيفة من شجر يشبه الأثل الأمريكي وليس به وأشجار أخرى

إلى أن وصلنا من سفح الجبل إلى منطقة قد زرعت فيها أشجار الشاي وهي جميلة متساوية الشكل أو متقاربة تراها على البعد كأنها المظلات أو قل الشمسيات الخضر المتجاورة.



جمع أوراق الشاي الذي يعد المصدر الثاني للدخل بعد السكر في هذه الجزيرة.

المسلم الفاتح:

هذا هو عنوان المحاضرة التي اقترحت اللجنة المشرفة على المؤتمر أن ألقيها في المؤتمر فاستجبت لذلك وكان موعدها في الساعة التاسعة من هذا اليوم، واستغرقت خمسين دقيقة وكانت مرتجلة غير مكتوبة ذكرت لهم فيها نماذج من سير الفاتحين المسلمين الأولين وأمثلة من فعل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وأن المسلمين الفاتحين من السلف الصالح لم يكونوا يقسرون الناس على الدخول في الدين الإسلامي بدليل أن أكثرية الجيش الفاتح للبلد تنتقل إلى غيره وتترك عدداً قليلاً من الجند وهؤلاء لا يمكن أن يجبروا أكثرية الناس على

الدخول في الإسلام إلا أن الناس من تلقاء أنفسهم يدخلون في الدين حينما يرون القدوة الحسنة في أفعال هؤلاء الفاتحين وأخلاقهم وحسن معاملتهم ، وعدلهم بين الناس وإنصاف المظلوم من الظالم والضعيف من القوي وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة ، وبنيت لهم الحكمة من الجزية وأنها أقل بكثير مما يؤخذ الآن في البلاد المختلفة باسم الضرائب والمكوس ألخ .

عشاء المثقفين :

دعانا أخونا المحامي محمد رشاد دراوو رئيس المجلس الأعلى الإسلامي في موريشيوس إلى عشاء في بيته قال : إنه لن يدعو إليه إلا صنفاً من المثقفين المسلمين في هذه البلاد وهذه أسماء بعضهم .

١ ـــ دكتور جميل فريد	طبيب
٢ ـــ دكتور إبراهيم منصور	
٣ ـــ السيد/ا . حيدر ضان .	مساعد رئيس الشرطة .
٤ ـــ السيد/ ك . سومودهي .	الأمين الدائم بوزارة التجارة .
٥ ـــ السيد/ هارون ناهابو	المحامي
٦ ـــ السيد/ فارزان	مدرس
٧ ـــ السيد/ غلام دوللو	موظف عام
٨ ـــ السيد/ دواجي دورياو	مستشار
٩ ـــ السيد/ رشاد دورياو	المحامي
١٠ ـــ دكتور/ خليل دورياو	أخصائي جراحة
١١ ـــ السيد/ موهنج	ناظر مدرسة
١٢ ـــ دكتور/ سيد دورياو	أخصائي الطب الوقائي
١٣ ـــ السيد/ ا. مالك	ناظر مدرسة الثقافة الإسلامية

وأثناء ذلك تناول الحديث الشؤن الإسلامية بصفة عامة وتناولنا عشاء هندياً لأن الداعي هندي الأصل وقد لاحظت من دخول بيته وبعض بيوت الأثرياء في هذه البلاد أنهم يضعون حوض الماء الذي تغسل فيه الأيدي بعد الطعام في ركن من غرفة الطعام ، وهذا مريح من ناحية القرب ولكنه مزعج من ناحية ما يحدثه من يغسل يديه وفمه للموجودين على الطعام إلا أنني لاحظت أنهم لا يكثرون من الغسل بعد الطعام بل بعضهم يكتفي بمسح شفتيه بمنديل من الورق كما يفعل الأوروبيون ولم نخرج من عند المحامي محمد رشاد إلا بعد منتصف الليل لأن العشاء قد تأخر بسبب المحاضرة .



منظر من المنطقة الجبلية في موريشيوس .

يوم الأحد ٢٩ محرم ١٣٩٨هـ ٨ يناير عام ١٩٧٨م .

من المقرر أن ينتهي المؤتمر بعد ظهر اليوم وأن نسافر عصراً إلى جزيرة رينيون لذلك كان هذا اليوم مزدحماً باللقاءات فمنها :

وفد النساء المسلمات :

في قاعة الاجتماعات في الفندق حضر وفد من الشابات المسلمات ومعهن زوج إحداهن وطلبن مقابلتي لأمر هام ولما كان قد تقرر في أذهان كثير من المثقفين وبخاصة من شباب المسلمين في البلاد التي سيطر الاستعمار على مناهجها الدراسية أن الإسلام يحقر المرأة ولا يريد لها أن تتعلم أو تتثقف ، واتخذ أعداء الإسلام من ذلك ذريعة للنيل منه لدى قسم هام من المجتمع ألا وهو المرأة فقد رأيت تلبية الطلب .

وعندما حضرت تكلمت إحداهن بالانكيزية وقالت : إننا نريد أن نتعلم اللغة العربية والدين الإسلامي ولكن لم نجد امرأة تعلمنا وإن الشيخ إخلاص أحمد مبعوث الافتاء في المملكة السعودية هو رجل قد عرف منه إخلاصه ونجاح من تعلم على يده ، وقد طلبنا منه أن يكون لنا نصيب من جهوده فيخصص بعض وقته للنساء ولكنه اعتذر وقال : إن لديه عدداً كبيراً من الرجال يتعلمون عليه وإنه لا يستطيع أن يعلم النساء إلا أنه إذا أمرته بذلك فانه يستجيب ، فقلت لهن : إنه بالفعل مشغول ووقته كله لا يكفي للمتقدمين إليه ، وهو أغرف بتيسير عمله من غيره ومع ذلك فانني سوف أشير عليه بتلبية طلبكن فشكرن ذلك .

ثم قلن : لنا طلب آخر وهو : لماذا تخصص المنح الدراسية من المملكة العربية السعودية للرجال ولا يكون للنساء منها نصيب ونحن أحوج ما نكون إلى معرفة أمور ديننا ؟

فقلت لهن : أولاً : يوجد الآن اثنتان من أخواتنا المسلمات من أهالي موريشيوس يدرسن الآن في كلية البنات في الرياض في المملكة العربية السعودية ويمكن إذا طلب غيرهن أن يلبى طلب عدد محدود منهن حسب

إمكانات الكلية من جهة المنح ، وثانياً : إنه لا بد من محرم يقدمن معه في أول الأمر ، ثم يعدن معه بعد انتهاء الدراسة وحبذا لو انتهزن فرصة زيارة محارمهن أو حجهم فصحبنهم بعد أن بصلهن قبول الطلب وتذاكر السفر . وبعد ذلك انصرفن شاكرات .

ولعل من الطريف أن نذكر أسماء بعضهن لنعلم أنها أسماء عربية وإسلامية واضحة : (ريحانة أوادرى) و(حفصة اتشا) و(رقية اتشا) و(رضية بولك) .

ووفد حركة الطلاب المسلمين :

وكانت مقابلتهم على انفراد حسب طلبهم في غرفتي في الفندق وكانوا : الأخ عبد الخالق رحمة الله الرئيس السابق ، والأخ صاحب دين مصدق الرئيس الحالي الذي انتخب اليوم والأخ غلام جيلاني الأمين العام للحركة ومعهم الشيخ آدم مكدا رئيس وفد روديسيا .

وقد بحثوا في أمور شتى منها عام ومنها خاص متصل بحركة الطلاب المسلمين في موريشيوس ، ودرجة التعاون القائم بين الهيئات الإسلامية العاملة هنا ، وما يحتاجون إليه من تعضيد وعون وقد ذكرت لهم اهتمام المسئولين في المملكة بشئون المسلمين عامة في كل البلاد الإسلامية وبالمسلمين خاصة في موريشيوس لأنهم أقلية .

وأخبرتهم أنني على ضوء ما رأيته من نشاطهم وإخلاصهم في العمل الإسلامي إلى جانب شدة حاجتهم للمعونة المالية لضعف مواردهم مخول بأن أخبرهم بأن المملكة ستقدم لهم مبلغ عشرة آلاف دولار مساعدة مالية عاجلة .

فشكروا ذلك وأعظموه فقلت لهم : إن هذا جزء من واجبنا الإسلامي

تجاه إخواننا المسلمين في أنحاء العالم وإننا نشعر أننا لم نقم بكل ما هو واجب .

جريـدة «ستـار» :

جريدة «ستار» تصدر في موريشيوس باللغتين الفرنسية والانكليزية وهي للمسلمين وتعتبر اسلامية من هذه الناحية . لذلك حضر إليّ رئيس تحريرها السيد صالح موهابير ، ومعه صحفي آخر وكان لقاء طويلاً تضمن أسئلة عن عدد من الموضوعات الإسلامية العامة والخاصة .

الكلمة الختامية للمؤتمر :

كان برنامج المؤتمر أن يعقد جلسته الختامية من الساعة الحادية عشرة حتى الثانية عشرة من هذا اليوم وعندما حضرت في هذه الجلسة أعلنوا في المكبر أن كلمة الاختتام ستكون من رئيس الوفد السعودي — يقصدونني — وذلك لأنه يوجد في المؤتمر ثلاثة ممن وفدوا من المملكة أحدهم أنا والثاني الدكتور أسدالله مندوباً عن جامعة الملك عبد العزيز في جدة والثالث : الدكتور خالد حمزة النحاس من جامعة البترول والمعادن في الظهران وقد حضر مندوباً عن الندوة العالية للشباب الإسلامي في الرياض بناء على أمر من وزير التعليم العالي الذي هو الرئيس الأعلى للجامعات وللندوة المذكورة .

وقد ألقيت كلمة الاختتام مختصرة مختومة بالدعاء للجميع بالخير والتوفيق للمزيد من العمل الصالح .

وهكذا اختتمت جلسات المؤتمر وبقي أن تعلن نتائج الاجتماعات التي هي أشبه شيء بما يسمى في المؤتمرات بالقرارات وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر إذْ دعي الأعضاء إلى تناول الغداء الجماعي في مقر المؤتمر ثم صلاة الظهر . ثم تعلن النتائج في الساعة الواحدة وفي الساعة الثالثة يقوم الجميع بحضور حفلة

غرس شجرة زيتون في معهد (المهاتما غاندي) مقر المؤتمر علامة على السلام والوفاق بين الجميع .

ولكنني لن أتمكن من متابعة ذلك كله بسبب إرتباطات ومنها :

إجتماعات برؤساء الوفود :

كان رؤساء الوفود التي حضرت من خارج موريشيوس قد طلبوا من رئاسة المؤتمر أن أخصص لكل منهم شيئاً من الوقت على انفراد يبحث فيه ما يهمهم في بلادهم في حقل الدعوة الإسلامية فكان الاجتماع على حدة بكل رؤساء الوفود لمدة ساعة على انفراد بمعدل عشر دقائق إلى ثمانٍ وهم من تنزانيا وملاوى ويوغندا وجزر القمر وجزر سيشيل .

كما تم اجتماع إنفرادي أيضاً لمدة قصيرة لبعض رؤساء الجمعيات الإسلامية في موريشيوس الموجودين في المؤتمر .

إلى اللقاء في الجنة :

حدثني إخواننا المسلمون عن إحدى الشخصيات الإسلامية وقالوا إن صاحبها اسمه عبد الرزاق محمد وإنه من زعماء المسلمين منذ مدة طويلة وإنه قدم خدمات جليلة للإسلام والمسلمين في هذه البلاد ولأنه كان وزيراً سابقاً وعضواً في البرلمان كما كان يشغل وظائف أخرى أما الآن فانه مريض في بيته وأنه يستحسن منا أن نزوره شكراً له على جهوده السابقة وتطييباً لخاطره لأنه عندما كان في المنصب كان أي رجل مهتم بالشؤون الإسلامية لا بد أن يتصل به وبخاصة أننا ضيوف الآن للدولة ومعنا مرافق عسكري منها فذهبنا إليه بصحبة بعض الأخوان فوجدته شيخاً في حدود السبعين إلا أنه لا يستطيع النهوض لشيء في ركبته وهو قوي الشخصية متزن الكلام ، عميق الأفكار ، وقد شكرته على ما قدم للمسلمين من خدمات ، فقال : إن ذلك كله كان من

توفيق الله له ، وإنه الآن يأسف لأنه لا يستطيع أن يقدم شيئاً لضعفه البدني ، فقلت له : ما دام أنك راغب في فعل الخير ولكنك تمنعك موانع من فعله فإنني أرجو أن يكتب الله لك مثل أجر من فعله .

ولما ودعته قلت له ، إنني أدعو الله تعالى ألا يجعل هذا آخر العهد وأن يقدر الاجتماع بك مرة ثانية هنا — في موريشيوس — وهناك في مكة والمدينة فلما أخبره المترجم ، قال : ارجو أن يكون اللقاء في الجنة لأنني لا أظن أنه قد بقي من عمري شيء كثير .

ويذكر أن الحديث كان بالعربية يترجمه الشيخ إخلاص احمد مبعوث رئاسة الافتاء في المملكة للإرشاد في موريشيوس إلى الأوردية التي يعرفها هذا الرجل ويعرفها الشيخ إخلاص احمد لأنه هندي .

مدرسة الخير بروبية واحدة :

كان الشيخ إخلاص أحمد المتقدم ذكره يقوم على إرشاد جماعة من أهل البلاد في موضع — يقال له (برين ورلد) فقرروا أن يبنوا مدرسة لتعليم اللغة العربية وجمعوا مبلغاً من المال ، وطلبوا من حكومة موريشيوس أن تمنحهم أرضاً لهذا الغرض فأعطتهم أرضاً مساحتها سبعمائة متر وسط حي معمور وذلك بثمن قدره روبية واحدة كل سنة ، وروبيتهم تعادل ١١ قرشاً سعودياً أي أكثر قليلاً من نصف الريال . فرفعوا طلباً إلى رئاسة الافتاء في المملكة يطلبون المساعدة على بناء هذه المدرسة وأيدهم في ذلك الشيخ إخلاص احمد وزكى طلبهم فأحيلت الأوراق المتعلقة بهذا الأمر إليّ عندما عزمت على السفر إلى هذه البلاد لننظر فيها . ولذلك ضربنا لهم موعداً في مكان هذه المدرسة وقد تجمعوا فيه فرأيناها أرضاً صالحة إلا أنهم لم يبدؤا ببنيانها فقلت لهم إن القاعدة التي نسير عليها هي ألا نقوم بمشروع كامل كله لأن ذلك يجعل المشروع مشروعنا

ويتطلب إدارة وإشرافاً مباشراً منا ، إضافة إلى أنه لا يمكن أن تقوم المملكة بآلاف المشروعات الإسلامية في أنحاء العالم وتشرف عليها في وقت واحد . ولكن المتبع أن تعاون المملكة المشروع الذي تقتنع بجدواه بعد أن يبدأ أهله بإنفاذه . لذلك ينبغي أن تتقدموا بالطلب بعد ذلك .

كيف يأكل السائق معنا ؟

سائق السيارة الموريشي الذي وضعته الحكومة في خدمتنا هو صيني الأصل جنسيته من موريشيوس وهو عسكري وقد عدنا إلى الفندق في وقت الغداء في الساعة الواحدة ظهراً ، فطلبنا أن نتغدى معاً في الفندق وأن يكون السائق معنا على المائدة نفسها ولكن الناس في هذه البلاد لم يألفوا هذا ، وليس من المعتاد أن يأكل السائق مع سيده إن صح هذا التعبير ولكنني قلت لهم : إن الإسلام ليس فيه رتب للناس ، إلا على قدر ما يؤدونه من عمل صالح فالسائق إذا أدى عمله بإخلاص فهو يستحق أن يكون مع الموظف الكبير الذي أدى عمله بإخلاص وحسبما أعطي عليه من أجر .

وبعد أن تناولنا الغداء اجتمعت بالمحامي محمد رشاد رئيس المجلس الأعلى الإسلامي في موريشيوس في جلسة خاصة لبحث الأمور الإسلامية وبخاصة ما يتعلق بعمل هذا المجلس واحتياجاته لتقويته على القيام بواجباته وكيفية عمل أعضائه .

مغـادرة موريشيـوس :

غادرنا فندق (أمباسادور هوتيل) في الساعة الثالثة والنصف ظهراً في جو من أشد أيام الصيف عندهم فهذا الفصل هو فصل الصيف في النصف الجنوبي من الأرض وموريشيوس في النصف الجنوبي وقد مضى على نزول المطر حوالي ستة أيام لذلك أصبحت الشمس حارة والرطوبة في الجو أقلّ ،

وكانت حرارة الشمس لافحة ذكرتني بحرارة الشمس في مدينة جدة إلا أن فعل الشمس في الأجسام في هذه البلاد أعظم ضرراً ، وان لم تكن أكثر حرارة فكانت اليوم صاحية تلهب الرؤس ومررنا أول الأمر على مقر المؤتمر حيث ودعنا مَنْ وجدناهم فيه من إخواننا وحصلنا على نسخة من المقررات .

ثم واصلنا السير إلى المطار وقد رأينا ما رأينا أول مرة من عدم سعة الشارع الرئيسي إلا أنه مسفلت ومن الخضرة التي هي خضرة المزروعات .

وقد أشرت على الدكتور خالد حمزة النحاس أن يكون سفره معي إلى جزيرة رينيون ثم تاناناريف لأن المؤتمر قد انتهى وبقاؤه وحيداً في هذه البلاد بعد انتهاء المؤتمر أمر ليس مريحاً فوافق على ذلك ولكن الصعوبة في إيجاد المكان في الطائرة لأن هناك ازدحاماً على الطائرات المسافرة بين جزيرتي موريشيوس ورينيون وذلك لأن أهل هاتين الجزيرتين يشعرون بالعزلة عن بقية العالم أو لنقل إنه ليس هناك أرض يابسة أقرب من كل منهما إلى الأخرى . إلا أن هذه النقطة قد حلها أحد إخواننا المسلمين في هذه البلاد وهو ضابط في الشرطة فخرج معنا وألزم الموظف أن يركبه إذا كان هناك مقعد خالٍ في الطائرة فوجدنا المقعد إلا أنه قال : إن المتاع قد أرسل إلى الطائرة ولا يمكن أن ترسل أمتعته وحدها ، فقال : هذا موفد رسمي ولا بد من ذلك فقبلوه بالفعل .

وركبنا من المطار وهو صغير بالنسبة إلى المطارات الحديثة وكان يعج بالمتهيئين للسفر لأن الطائرة هي كبيرة من طراز جمبو ٧٤٧ تابعة لشركة الطيران الفرنسية (أير فرانس) .

وتحركت عند الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين ظهراً ، وقد غصت مقاعدها على كثرتها بالركاب وأعلنت المضيفة أن الرحلة إلى جزيرة رينيون ستكون ثلاثين دقيقة . ولم يقدموا شيئاً لأن وقت الطيران قصير .

الإسلام والمسلمون في موريشيوس

وزعت لجنة مؤتمر حركة الطلبة المسلمين في موريشيوس نشرة تضمنت بعض المعلومات عن الجزيرة وبخاصة بيان الحركة الإسلامية فيها وكذلك أصدرت إحدى الهيئات هناك معلومات مماثلة وقد أخذت خلاصة هاتين النشرتين مع معلومات شخصية وأخرى مكتوبة في هذا الفصل.

تقع موريشيوس على بعد حوالي ٥٠٠ ميل في الجنوب الشرقي لجمهورية مالاجاشي (مدغشقر) وعلى بعد حوالي ٢٠٠٠ ميل شرق جنوب أفريقيا في المحيط الهندي وتبلغ مساحتها ٧٢٠ ميلاً مربعاً وعاصمتها بورت لويس وتأتي بعد هذه المدينة مدينة (روزهل) وتفيد الوثائق التاريخية في المتحف التاريخي الحكومي بموريشيوس أن العرب المسلمين هم أول من وصلوا إلى الجزيرة. إذ اكتشفوا موريشيوس وجزر رينيون وسيشل وأطلقوا على موريشيوس اسم « دنيا عربي » والخريطة التي قام بعملها الأدريسي الجغرافي العربي الشهير عام ١١٥٣م تظهر مواقع الجزر الثلاثة المكتشفة في المحيط الهندي، وعلى كل فلم يمكث العرب في موريشيوس بسبب الأعاصير الشديدة التي كانت تجتاح الجزيرة من آن لآخر.

وعرف الأوروبيون بوجود موريشيوس عن طريق فاسكو دي جاما وقد قام البرتغاليون بزيارة الجزيرة ثم جاء الهولنديون الذين أطلقوا عليها اسم موريشيوس في أواسط القرن السابع عشر ثم استولى عليها الفرنسيون لمدة قرن تقريباً من عام ١٧١٥ — ثم وقعت هناك معركة بحرية فاصلة بين الإنكليز والفرنسيين حيث قامت في عام ١٨١٠ قوة من الجيش الإنكليزي بغزو موريشيوس واستولت عليها من الفرنسيين وأصبحت الجزيرة بذلك جزءاً من الأمبراطورية البريطانية.

وقد نالت موريشيوس استقلالها عام ١٩٦٨ — وموريشيوس الآن عضو في منظمة الوحدة الأفريقية وفي منظمة الأمم المتحدة وفي المنظمات الدولية الأخرى ونوع الحكم فيها نيابي قريب من الأنموذج البريطاني .

وكانت الجزيرة تلعب دوراً استراتيجياً مهماً في المواصلات البحرية بين أوربا وآسيا .

السكـان :

تعيش في موريشيوس جماعات من الناس ذوي العناصر المختلفة وأظهر ما يراه المرء من السحن هي الهندية والإفريقية وذلك العنصر المسمى (كريول) بمعنى المختلط وهو بالفعل ناشىء عن اختلاط العنصر الهندي بالعنصر الأفريقي وبعناصر أخرى أقل أهمية .

وبعد عنصر الكربول هذا يأتي العنصر الهندي الذي لا تظهر عليه ملامح الاختلاط .

وحسب الاحصاء الذي أجري عام ١٩٧٢م اتضح أن عدد سكان الجزيرة قد بلغ مليون نسمة تقريباً .

وأوسع الأديان في الجزيرة هو الهندوكية حيث يعتنقها حوالي ٥٠٪ من السكان تليها النصرانية حوالي ٣٠٪ والدين الثالث — فيها من حيث العدد هو الإسلام حوالي ١٦٪ والبقية من أتباع الديانات والمذاهب الأخرى .

استيطـان المسلمين :

يعود تاريخ مجيء المسلمين إلى موريشيوس إلى عام ١٧٢٢م أثناء الحكم الفرنسي وكان المسلمون الأوائل من رجال البحر ومن الصناع وأغلبهم من الهنود من كوتشن وكجرات .

وفي عام ١٧٩٢ لاقى المسلمون صعوبات كثيرة عندما تقدموا للمرة الأولى لإقامة مسجد وفي عام ١٨٠٥ صرح لهم بإقامة أول مسجد في يورت لويس وأطلق عليه اسم المسجد الأقصى .

ولما حكم الانجليز الجزيرة شجعوا الهنود للاستيطان في موريشيوس والعمل في حقول قصب السكر وأغلب هؤلاء من بيهار وكلكتا بالهند .

النضـــال السياسي :

ومع إدخال دستور جديد في موريشيوس عام ١٨٨٩ عمل الكثيرون من المسلمين في السياسة وقد عين بعض التجار المسلمون أعضاء في لجنة لتمثيل السكان وقد أعطي حق التصويت عام ١٩٠١ في اللجنة التنفيذية لتمثيل المسلمين وأخيراً تم تعيين أول وزير مسلم عام ١٩٥٣م .

سافر مندوبون مسلمون عام ١٩٣٢ إلى انجلترا للتباحث مع وزير المستعمرات وتقدموا لمكتب المستعمرات بطلبات منها :

١ ـ تطبيق القوانين الإسلامية في (الوقف) والميراث وغيرهما .

٢ ـ الإجازات في المناسبات الدينية مثل عيد الفطر وعيد الأضحى للمسلمين .

أعلن دستور جديد لموريشيوس في عام ١٩٤٨ وأعطى حق الانتخاب لجميع المواطنين وبالتالي تكونت عدة أحزاب وكان المسلمون أول من اتحدوا سياسياً مع الجاليات الأخرى من خلال حزب العمل وفي عام ١٩٥٨ تكون أول حزب إسلامي سياسي لحماية مصالح المسلمين في موريشيوس .

أثناء الانتخابات الأخيرة عام ١٩٧٧ كان في موريشيوس ثلاثة أحزاب : حزب العمل وهو الحزب الحاكم والحزب الاشتراكي الديمقراطي وجماعة

النضال وهي مجموعة يسارية وجاءت نتيجة الانتخابات كالآتي :

حزب العمل	٢٦ مقعداً
الحزب الاشتراكي	٨ مقاعد .
جماعة النضال	٤ مقاعد .
الحزب الإسلامي	٢ مقعدان .

وقد تمكن المسلمون من الحصول على مقعد وزير لأحد المنتمين للجنة العمل الإسلامية التي تساند الحزب الحاكم .

النشاط الاقتصادي :

كان المسلمون من أوائل من قاموا بأعمال تجارية من ضمن المهاجرين ومنذ عام ١٨٩٣ اهتموا بالصناعة وتملكوا فعلاً مصانع للسكر وفي عام ١٩٠٠ أقاموا أول محطة كهرباء هيدروليكية وكانت الأولى من نوعها في موريشيوس كما قاموا بإقامة صناعات أخرى مثل المشروبات الغازية والصابون والملابس والأثاث وكثير من المسلمين لهم تجارتهم الخاصة ولكن هناك نسبة ضئيلة تعمل في مختلف النشاطات التجارية كما يوجد عدد لا بأس به من المسلمين في وظائف الحكومة في مختلف مرافق الدولة .

التعليم الإسلامي :

يقوم المسلمون بتنظيم دراستهم الإسلامية وذلك في مدارس تتولى تحفيظ القرآن الكريم وتدريس التاريخ الإسلامي واللغة الأوردية ويوجد حوالي مائة مدرسة من هذا النوع تلحق المدرسة بالمسجد في الغالب ويتولى رعايتها إمام المسجد وأغلب الأئمة يحضرون من الهند حيث يكونون تلقوا تدريبهم هناك ويقوم الموريشيون بمعاونة الأئمة رغم عدم تدربهم على تدريس العلوم الإسلامية .

تمويـل المـدارس :

الدخل الأول للمدارس يجيء عن طريق التبرعات والزكاة ثم من الرسوم المدرسية التي تؤخذ من الطلاب وقد وافقت الحكومة مؤخراً على دفع ١٠٠ روبية لكل مدرس يقوم بتدريس لغة شرقية في مدرسة خاصة كالاوردية وتأتي معظم الكتب الإسلامية الاوردية من الهند وباكستان .

النشـاط الاجتماعـي :

تمكن المسلمون من إقامة جمعيات تساعد بعضها بعضاً في حالات مثل الزواج والوفاة .. إلخ .

وبعض هذه الجمعيات يمتلك عقارات وأوقافاً للإيجار وكثير من هذه الجمعيات ينقصها التوجيه الإسلامي الصحيح للخدمة الإسلامية .

وأتيحت الفرصة للمسلمين للعمل في الأعمال المدنية والتمريض والأعمال المكتبية والهندسية والطبية والمالية والتدريس .. الخ .

الشبـاب والرياضـة :

يشترك الشباب المسلم في جميع النشاطات الرياضية وقد أنشأت جمعية الكشافة الإسلامية عام ١٩٧٦ م كما يوجد إتحاد للنوادي الإسلامية وان كان بعضها ينقصها المحافظة على الشخصية المسلمة وعلى النشاطات الإسلامية الطابع كما يشترك الشباب الإسلامي في المجتمعات الأدبية ــ والمناقشات والتمثيل الفكاهي والدرامي وتعتبر جمعية الكشافة من أقدم الجمعيات وتبشر بازدهار مستقبل الكشافة بين الشباب المسلم .

ومن طريف النشاط الإسلامي ومفيده أن الجمعيات الإسلامية تشجع الزواج بين المسلمين وبخاصة المسلمات المنتظمات لحركة المرأة المسلمة .

أعمـال الدعـوة :

جماعة التبليغ كانت من أوائل الجماعات التي عملت في حقل الدعوة الإسلامية وتمكنت من تعليم الكثيرين المبادىء الإسلامية ويقوم العديد من علماء الهند بزيارة موريشيوس لالقاء محاضرات عن الإسلام .

المؤسسات الإسلاميـة :

يوجد العديد منها وفيما يلي بعضها :

١ — النادي الإسلامي :

تأسس عام **١٩٥٦** تحت رعاية الشيخ محمد حسين مالك من باكستان ونشاطه يشتمل على طبع ونشر الأدب الإسلامي باللغات الانجليزية والفرنسية والأوردية كما يقوم أعضاؤه بالقاء المحاضرات في بعض المساجد والمناطق . ودخل النادي يأتي من التبرعات .

ب — الأخوان المسلمون بمنطقة وارد الرابعـة :

منظمة « شباب إسلامي » في المنطقة الرابعة ببورت لويس نشاطها في نشر الإسلام في المجالين الاجتماعي والرياضي وأهمها تحصيل الزكاة وتشجيع المدرسة الإسلامية وطبع المنشورات في بعض المناسبات والتعليم المجاني للغة العربية وكذلك تهتم بالموضوعات العلمية والرياضية ككرة القدم والكرة الطائرة .

ج — البعثـة الإسلاميـة :

جمعية إسلامية تأسست في المنطقة الشرقية ببورت لويس ، بواسطة بعض الطلبة والأصدقاء للشيخ محمد حسين مالك ، وتقوم بنشر الإسلام عن طريق المحاضرات والصحف كما تقوم مجانياً بتدريس اللغة العربية ولديها صندوق زكاة للمنطقة .

د ـ الحركـة الطلابيـة الإسلاميـة :

تأسست عام ١٩٧٣ بواسطة مجموعة من طلبة جامعة موريشيوس برعاية عبد الخالق رحمة الله .

ويقوم أعضاؤها بنشاط مشكور لنشر الإسلام بين الطلاب في موريشيوس بصفة خاصة وبين جميع السكان بصفة عامة . ومجال عملها يشتمل على إصدار نشرة شهرية عن نشاطها في الدعوة الإسلامية وبعض الأخبار الإسلامية الأخرى وتترجم الحركة وتنشر الأدب الإسلامي باللغة الفرنسية — كما تصدر جريدة « الإخوان » باللغتين الفرنسية والانجليزية في مناسبات الأعياد الإسلامية وتتعاون مع بعض الجمعيات الإسلامية لإنشاء مطبعة هامة تطبع الكتب الإسلامية .

وفيها قسم يقوم على أساس شراء وبيع الكتب الإسلامية والأدب الإسلامي بأسعار زهيدة وتجيء تلك الكتب غالباً من دول جنوب إفريقية والهند وباكستان وانجلترا والولايات المتحدة وذلك على نفقة الأفراد من المسلمين وغيرهم كما تقوم الحركة بتوزيع بعض المطبوعات الإسلامية مجاناً على المنظمات الإسلامية وبخاصة فروع الحركة في موريشيوس .

الفنـون الإسلاميـة ولجنـة التفـوق :

جاءت الفكرة عام ١٩٧٤ لتحويل اهتمام المسلمين من الفنون الحديثة أو المستحدثة إلى الآثار الجميلة الموروثة عن مختلف الفنون الإسلامية وقد بدأ ذلك بمجموعة من المعارض عن التراث الإسلامي أقيمت في مختلف أنحاء الجزيرة والتي توافد عليها عدد كبير من الزوار من مسلمين وغير مسلمين وقد تمكنت بعض الجمعيات من التأثير على بعض الفنانين المسلمين لتوجيه مجهوداتهم نحو النهوض بفن الخط والرسم وكللت المساعي بظهور بطاقات المعايدة ومغلفات

الكتب الإسلامية والتقويم الإسلامي وبطاقات دعوات الزواج على طراز إسلامي الطابع وقد تم طبع بطاقات المعايدة على ذلك النحو في عام ١٩٧٥ ثم تبع ذلك تقديم تقويم إسلامي لمسلمي موريشيوس وكان الطلب أكثر من العرض .

وقد قامت حركة الطلاب المسلمين بطبع بطاقات عليها رسومات مساجد مع ترجمة لآيات وأحاديث تحثُّ على الزواج .

وكذلك أقيمت عروض في الجزيرة عن الفن الإسلامي والطب والهندسة والحج ... الخ وأهمها عرض كتابي لسورة الرحمن وبصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد .

المساجد والجوامع في الجزيرة :

يبلغ عدد المساجد والجوامع في الجزيرة نحو مائة تقريباً منها ما هو كبير المساحة ومنها ما هو صغير ومعظم الأئمة استقدموا في الأصل من الهند وباكستان وأكثرهم لا تنقصه الحماسة الدينية والورع ولكن بعضهم يحتاج إلى المزيد من الثقافة التي تعنى بالعقيدة السلفية الصحيحة التي بدأت الجمعيات والأفراد تحس بالحاجة إليها وأنه من واجب الإمام الذي يقوم بأعمال جليلة هناك أن يحارب البدع والخرافات .

وفي جميع مساجد الجزيرة تقام الصلوات الخمس ويحضر صلاة الجماعة عدد لا بأس به من المسلمين بصفة مستمرة ويبدو أن عدد المصلين في المدن يفوق كثيراً عددهم في الأرياف والقرى والسبب في ذلك أن الحركات الإسلامية أقوى ما تكون في المدن مما هي في الأرياف .

وفي يوم الجمعة يقوم أحد الوعاظ قبل الصلاة في الجامع بالقاء موعظة أو

محاضرة موجزة يشرح فيها موضوعاً من الموضوعات الإسلامية أو يعرض لمشكلة من المشكلات التي تواجه المسلمين ويحاول أن يعالجها بقدر إمكانه على ضوء الكتاب والسنة وبعد إلقاء محاضرته القصيرة يقوم الخطيب بالقاء الخطبة الأولى ثم الخطبة الثانية ـــ باللغة العربية وتجب الإشارة إلى أن المحاضرة القصيرة التي تسبق الخطبتين تكون إما باللغة الفرنسية الواسعة الانتشار أو باللغة الأوردية التي يفهمها القليل من المسلمين وهم المتقدمون في السن ممن هم من أصل هندي .

الدائـرة الإسلاميـة :

ومـن أهدافهـا :

أ ـــ نشر الإسلام وعرضه كنظام شامل للحياة كما جاء في الكتاب والسنة .

ب ـــ نشر اللغة العربية في أنحاء البلاد بين المسلمين بصفة خاصة وبين أفراد الشعب عامة .

جـ ـــ إنشاء مؤسسات تعليمية نموذجية منها ابتدائية ومنها ثانوية لتدريس العلوم الإسلامية بجانب العلوم الدنيوية وقد تم شراء قطعة أرض في العاصمة لمشروع إنشاء المؤسسة المركزية كمرحلة بدائية .

حركـة المـرأة الإسلاميـة :

تأسست عام ١٩٧٤م للعمل بالتعاون مع حركة الطلبة الإسلامية وتقوم بالقاء محاضرات على الأخوات المسلمات كما تقوم بإرسال الفتيات للمدارس الإسلامية وعمل ندوات إسلامية .

إلى جزيرة رينيون

في مطـار رينيـون ثانيـة :

ولكن هذه المرة لن يكون الوصول مروراً كما كان في المرة الأولى بل سيكون دخولاً لأن معي تأشيرة دخول وتذكرة ولدي الوقت الكافي ، وقد قررت أن أبقى في هذه الجزيرة يوماً واحداً .

حطت الطائرة العملاقة في المطار في الساعة السابعة وعشر دقائق وكانت الشمس قد غابت وكانت الصعوبة الوحيدة التي توقعت أن أواجهها هي عدم إذن السلطات المحلية بدخول رفيقي الدكتور خالد حمزة النحاس فهو لم يحمل تأشيرة دخول لأنه لم يكن في برنامجه أن يمر على هذه الجزيرة بل أخبرني أنه لم يسمع بها قبل أن يسمعني أذكر بأنني سأمر بها ، ولكن الصعوبة قد انقلبت إلى سهولة ولله الحمد فقد وجدنا في داخل البوابة الداخلية في المطار عند مكاتب الجوازات والهجرة الأخ عبد الحق الحافظي أحد زعماء المسلمين في جزيرة رينيون وكان معه أحد ضباط الشرطة في المطار قال : انهما حضرا لاستقبالي ، فسألني أولاً : أنت الشيخ محمد بن ناصر العبودي ؟ فقلت : أنا محمد العبودي ، فقال : أنا عبد الحق حافظي أبرق لي رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في موريشيوس بموعد وصولكم . فقلت له : إنني أشكرك على ذلك ولكنني لم أرد منه أن يبرق إليكم وإنما طلبت منه عنوانكم لأتصل بكم بعد وصولي وذلك حتى لا نكلفكم مشقة الخروج إلى المطار .

ثم ذكرت له موضوع دخول رفيقي الدكتور خالد وأنه لا يحمل تأشيرة . فقال بالفرنسية (نو بربلوم) وهي بالانجليزية أيضاً وتعني (لا إشكال في ذلك) ثم قال بإنكليزية ضعيفة إن هذا الضابط الذي معي المسؤل وسأطلب منه أن

يمنحه التأشيرة الآن . ثم ذهبنا مع الضابط إلى مكتب في المطار فكتب له التأشيرة في جوازه .

وبعد ذلك ذهبنا إلى الجمرك مع الأخ عبد الحق حافظي ، فكلم ضابط الجمرك بالفرنسية فتركنا نمر دون تفتيش أي حقيبة لنا أو أن يسألنا عما بداخلها .

وبينما كنا نحاول الخروج من بوابة الجمرك التفت إلينا الأخ عبد الحق وقال وهو يشير إلى جماعة واقفين ينتظروننا : لا صعوبة في اللغة الآن لأن هناك ثلاثة يتكلمون العربية واثنين يتكلمان الانكليزية. وما كدنا نخرج حتى أحاط بنا إخواننا يسلمون علينا ويحتضنوننا ويسألون عن مدة إقامتنا في جزيرتهم وعسى أن تكون طويلة وهم :

يوسف رأفت رئيس الجمعية الإسلامية السنية في منطقة سانت دنيس والشيخ أحمد سعيد انجار مدير المركز الإسلامي في سانت بيير. والشيخ اسحاق محمود كنفات الأمين العام للمركز الإسلامي في رينيون . والشيخ إبرهيم باتل مدير المدرسة الإسلامية في مدينة سانت دنيس وعبد الكريم عبد الرشيد أحد أعضاء الجمعية الإسلامية النشطين .

أما مطار جزيرة رينيون فهو مطار فخم جميل جداً وهو في حجم مطارات العواصم المتوسطة في الشرق الأوسط إلا أنه يفوقها بمراحل في الجمال الفني فهو مثلاً يزدان سقفه برسوم لزهور كبيرة وجدرانه الداخلية بلوحات فنية رائعة بعضها تاريخي يمثل تطور تاريخ هذه الجزيرة وكيف كانت ملابس الرجال والنساء في أول عهدها بالعمارة وبعضها يصور الآلات والمراكب التي كانت مستعملة في ذلك العهد .

وقد عمدوا إلى جانب من جداره فجعلوه زجاجياً شفافاً يكشف عما خلفه وهو جبل مجسم مصغر مأخوذ من حجارة البركان الذي ثار في هذه الجزيرة قبل

حوالي سنة جعلوه على شكل الجبل بعد أن جللته الحجارة السائلة من البركان ، وأسالوا في عدة أماكن منه شلالات صناعية يجري ماؤها بدون انقطاع ويمكن لمن أراد أن يرى هذا الشلال دون حاجز من الزجاج أن يصعد مع الدرج الصاعد إلى مقصف المطار في الدور الأول من البناية فيراه على يمينه أو شماله .

وفي المطار شريط متحرك حديث للحقائب وعربات يدوية جميلة ، وليس هذا هو أهم ما في هذا المطار من مميزات وانما هو ما يتحلى به الموظفون من سرعة في إنجاز العمل ، ومن صبر على ذلك فعلى سبيل المثال لم يظهر على وجه الضابط أي اشكال أو تبرم عندما أخبرناه بأن جواز الدكتور خالد النحاس ليس فيه تأشيرة ولم يتأفف ضابط الجمرك عندما طلب منه الأخ عبد الحق حافظي ألا يفتش حقائبنا بل هو لم يتوقف فضلاً عن أن يتأفف من السماح عنها .

في جزيـرة رينيـون :

هي جزيرة منعزلة تجاه الجنوب الشرقي لأفريقية في الجنوب الشرقي من جزيرة مدغشقر ، اكتشفها العرب أول ما اكتشفت ثم غادروها وبعد ذلك احتلها الفرنسيون فالانكليز ثم الفرنسيون . وكانت تسمى بربوا على اسم أول فرنسي دخلها ثم بعد ذلك حصل اجتماع بين الانكليز والفرنسيين فيها تم فيه التبادل بينها وبين موريشيوس فسميت رينيون بمعنى الاجتماع والإتفاق . وهي تعتبر الآن جزءاً من الأراضي الفرنسية أي ليست مستعمرة لذلك كانت تأشيرة الدخول إليها في جوازي هي تأشيرة الدخول إلى الأرض الفرنسية ، رغم أنه يفصلها عن باريس عاصمة الأراضي الفرنسية مسافة لا تقطعها الطائرة في أقلّ من خمس عشرة ساعة من الطيران .

ركبنا السيارات مع إخواننا من المطار إلى مدينة سانت دنيس العاصمة ،

وتبعد عن المطار مسافة ٦ كيلات وبينما كنا نسير في شارعها العام أشار أصحابنا إلى الحوانيت والمحلات التجارية فيه وقالوا : أكثرها للمسلمين ، وقالوا : إن أصحاب الأعمال في هذه الجزيرة أكثرهم من المسلمين ثم مررنا بمسجد في السوق التجاري قد أقيمت بجانبه رافعة عظيمة قالوا إنها تبنى طابقاً ثانياً في مؤخرة المسجد بغية توسيعه وتبني المنارة التي لا تبنى إلا بمثلها من الرافعات .

ثم واصلنا سيرنا في المدينة فأشار الأخ عبد الحق حافظي إلى جبل شاهق مطل على المدينة وقال : هذا هو بيتي إنه في عرض الجبل ، ولفت نظرنا أن أكثر البنايات والبيوت أو كلها في هذه الجزيرة تبدو من الطائرة ومن الأرض من بعيد بيضاء ناصعة البياض فتكون وسط هذه الخضرة الكثيفة جميلة جمال قطع السحاب المنتشرة على صفحة اليم عندما تشاهد من الطائرة .

وقلنا لإخواننا إننا نريد أن نسكن في أي فندق يرونه فقالوا : إننا سنذهب الآن إلى منزل الأخ عبد الحق حافظي لتناول العشاء ثم بعد ذلك تذهبون إلى الفندق . ولكننا عندما وصلنا البيت وعرف أننا لن نقيم في هذه الجزيرة إلا يوماً واحداً قال : لماذا تذهبون إلى فندق وأنتم ستذهبون إليه في الليل وتخرجون منه في الليل فلا تعودون إليه ، وانما أنا في منزلي سعة وغرف منفردة يسكن عادة فيها الضيوف إذا جاؤا إلى هذه الجزيرة ، ثم أرانا إياها فوافقنا على البقاء عنده في هذه الليلة .

وعندما كنا في شرفة بيته تيقنا أننا لن نجد مثله في أي فندق نسكنه لأنه يقع في عرض الجبل المطل على مدينة سانت دنيس العاصمة وهي على ساحل البحر ولا يحجز بين من يكون في هذا البيت وبين منظر البحر تجاهه إلى جهة الشمال الغربي منه حاجز وعن يساره يرى الجبل شاهقاً قد ارتدى رداء الخضرة ، وتسربل بحلة ضافية من الأشجار الخضراء . أما البيت نفسه فتحيط

به أفاريز من الزهور المختلفة الألوان وفي ركنيه الجنوبي والشرقي حديقة غرست فيها أشجار الجوافة والعمبة (المانجو) وأشجار أخرى من أشجار الزينة .

أما نسمات البحر التي كسر ارتفاع البيت حدة رطوبتها فإنها لا تفتأ تربت بأيد لطيفة حانية على وجوه الجالسين فيه وأقدامهم .

إنه منظر شاعري جميل وزاده جمالاً أن السماء في هذه العشية المباركة كانت صاحية بل صافية فكانت النجوم لامعة كأنها تبتسم لهذا المنظر الشاعري الجميل ولم تكن تحس من حركة أو تسمع لسائرٍ ركزاً إذ البيت هو في شارع فرعي ، وفي منطقة شبه ريفية لا يسمح بتقارب البيوت فيها ولا بأن يعلو بيت على بيت حتى يحجب عنه منظر رؤية البحر وسمائه .

وزاد الموقف سروراً وحبوراً بالنسبة لنا ما حدثنا به إخواننا المسلمون في هذه البلاد عن أنفسهم من مكانة مرموقة ومنزلة رفيعة ، وثراء متميز فمثلاً مضيفنا الأخ عبد الحق حافظي رجل أعمال ناجح وله تجارة واسعة جعلته يسافر في العمل لأماكن متعددة في العالم لأكثر من مرة وقد اعتمر في طريق عودته من رحلة تجارية إلى باريس ، وهو فوق ذلك له مكانة سياسية في هذه البلاد فهو عضو في المجلس البلدي للجزيرة وهو يعتبر بذلك من رجال الدولة وقد أرانا بطاقته الشخصية التي يحملها وقال : إنها هي التي خولتني الدخول إلى مكتب الجوازات والشرطة في المطار وقال إنه يحمل (ميدالية) تقدير من الحكومة الفرنسية على ما قام به من خدمة للمواطنين في هذه الجزيرة . وقال : إنني أستغل هذه المكانة في خدمة المسلمين هنا وحل ما قد يعرض لهم من مشكلات .

وقد وافقه عدد من المسلمين على ما ذكره في غير حضوره ، وكذلك يرأس الجمعية الإسلامية في سانت دنيس الأخ يوسف رأفت من أكبر رجال الأعمال

في الجزيرة وهو يملك عدة عقارات وله عدة محلات تجارية ... وكلاهما أصله من مقاطعة كجرات في الهند ولكن عبد الحق حافظي قدم أهله من جنوبي إفريقية وان كان هو نفسه مولوداً في جزيرة رينيون .

يوم الاثنين : ٣٠ محرم ١٣٩٨هـ ٩ يناير عام ١٩٧٨م .
جولـة في جزيـرة رينيـون :

هذه الجولة بالسيارة ويصح أن يقال فيها جولة حول الدولة لو لا أن جزيرة رينيون ليست دولة كما هي حال جزيرة موريشيوس القريبة منها ولكنها أرض فرنسية وستكون بالسيارة على أهم مدنها ، ومعالمها وسيكون الذهاب فيها بطريق الساحل والعودة عن طريق الجبل وذلك حسبما رسمه لنا الأخ عبد الحق فوافقناه عليه ومن أهم ما طلبنا أن نطلع عليه في الوقت المحدد المقرر لنا أن نبقاه في هذه الجزيرة وهو بياض هذا اليوم المؤسسات الإسلامية مثل المساجد والمدارس الإسلامية ، ورؤية المعالم السياحية للجزيرة ومنها بركان لم تهدأ ثورته إلا منذ سنة إذا كان في الوقت متسع له .

ويشتمل البرنامج على مقابلة مع الحاكم الفرنسي للجزيرة وذلك حسب إلحاح من الأخ عبد الحق ، وقد مانعت في ذلك وقلت : إننا إنما جئنا هنا لزيارتكم أنتم ، ولم نقدم هذه البلاد لنقوم برسميات . فقال : إن الأمر لا يكون مناسباً بالنسبة لي أنني استضفت شخصاً مثلك ولم أبلغ عنه الدولة وقد عرفت أنك في رتبة وكيل وزارة ولا بد من ذلك فقلت له : إذا كنت أنت ترى أن في ذلك مصلحة إسلامية فلا ضير؟ قال : نعم ، أرى في ذلك مصلحة وأراه واجباً عليَّ بصفتي في الإدارة في هذه البلاد أن أخبر بقدوم مثلكم ، ولا يكون من اللائق بي ألا تقابلوا الحاكم .

وقد ركبنا سيارته وهي من طراز سيتروين الفرنسي الفاخر . وفي مواجهة

الجالس في المقعد الأمامي لوحة جميلة كتبت فيها الشهادتان بالعربية (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) . وكان بدء الانطلاق من منزله في مدينة سانت دنيس في الساعة الثامنة صباحاً وقد طلب منا ربط أحزمة النجاة في السيارة لأن الأنظمة الحكومية تلزم كل من يسير خارج المدينة بذلك .

وسلكنا طريقاً على الساحل يصح أن يسمى بطريق الكورنيش أي : جانب البحر لولا أنه في الحقيقة قد قُدَّمن الجبل المرتفع قَدَّاً وشق منه شقاً إذ كان الجبل في الأصل واقفاً وقوف الحائط على البحر فشقوا هذا الطريق للسيارات ، وشقوا إلى يساره نفقاً في طرف الجبل لسير القطار إلا أنني رأيت أبواب النفق موصدة الآن ، ولو كان هذا الطريق في دولة متخلفة إدارياً مثل بعض دول الشرق من تلك الدول التي تحب الثرثرة الكثيرة والتباهي بالأقوال أو لنقل تحب أن تكمل بالأقوال ما تعجز عنه بالأفعال لملأت الدنيا ضجيجاً بالتفاخر لهذا الانجاز العظيم مع أن سكان هذه الجزيرة لا يزيد عددهم في الوقت الحاضر على (٤٥٠) ألفاً . وقد بدا مكان الجانب المقطوع من الجبل واضحاً يسهل تمييزه عن باقي الجوانب لكونه عارياً من النبات تقريباً بخلاف الجهات الأخرى ومن ألطف ما في الأمر بل من أعجبه أنهم قد ألبسوا الأنف البارز من الجبل ، أوقل ركن الجبل المشرف تماماً على الطريق والذي هو بارز أكثر من غيره درعاً من أسلاك الحديد لئلا تسقط منه حجارة قد تؤذي السيارات المارة به وذلك من أسفل الجبل إلى أعلاه ، وهو أمر غريب صعب ، إلا أنهم فعلوا ذلك لأن الجزء المقطوع من الجبل ليس في ثبات القديم منه .

ثم انعطف الطريق مع انعطاف الجبل والبحر إلى جهة الغرب قليلاً فوجدنا أرضاً غير معمورة إلا أن بعض الأشجار التي فيها تشبه أشجار الصحراء ونباتاتها غير كثيفة فلم أذكر ذلك لأحد منهم إذ ما لهذه الجزيرة الخضراء

والصحراء ؟ ورأيتهم قد بدأوا بقطع تلك الأشجار البرية وغرس أشجار من النارجيل إلا أنها صغيرة جداً .

في بلـدة بـورت :

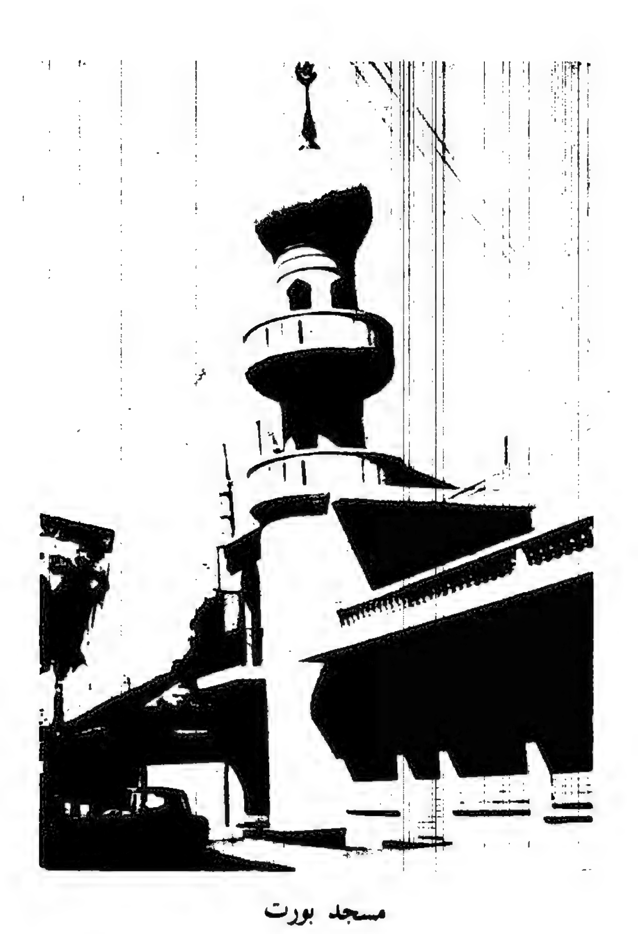
أي الميناء وهو بيلدة صغيرة يسمونها (بورت) أي : ميناء بالفرنسية وهو منفصل عما حوله انفصال البلدة عما حولها من القرى ذلك بأنهم اختاروا موقعه لصلاحيته من جهة البحر وكان غيره صالحاً للسكنى في ذلك الوقت أكثر فسكنوا في غيره ثم أصبح الآن بلدة صغيرة يخترقها الطريق العريض المسمى بغير العربية الأوستراد وفي وسط هذا الطريق غرسوا أشجار النارجيل أو قل : نخيل النارجيل صفين صفين على استطالة مروره بالبلدة فبدت هذه الأشجار كأنها النخيل تذكرنا بالنخيل الجميلة في بلادنا لأنها لم ترتفع بعد في السماء وشجرة النارجيل إذا ارتفعت استدقت وانجردت حتى يبعد منظرها قليلاً عن منظر النخلة .

خير المساجـد :

هذا هو اسم المسجد وفي هذه البلدة بلدة (بورت) بني أول مسجد في جزيرة رينيون كلها وتاريخ ينائه يرجع إلى حوالي ٥٥ سنة ، وأول ما يراه المرء على مدخله اسمه مكتوباً بالعربية (خير المساجد) وتحتها الاسم حرفياً بالفرنسية ثم الشهادتان (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بالعربية .

وكان أول ما لفت نظري عندما دخلناه هو صف من المسابح (جمع مسبحة) قد وضعوها أمام الصف الأول من المصلين وذلك حتى يكون أمام كل مصلٍ مسبحة يسبح بها إذا أراد أي : يعد بها التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير .

وعلى محرابه كتب بالعربية (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن



مسجد بورت

تراه فإنه يراك) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب الطويل المشهور ، وتحتها الشهادتان .

والمحراب من الخشب المحفور ذكرني عندما رأيته بالخشب المحفور الذي رأيته في متحف (السلطان برغش) في مقديشو وكذلك في متحف دار السلام في مخلفات العمانيين وزال استغرابي حين سألتهم عن الذين عملوا هذا الخشب ؟ لأنه ليس من طراز هندي ؟ فقالوا : إنهم القمريون أي سكان جزائر القمر وذلك لأن هذا الفن وصل إليهم من عمان إما مباشرة ، وإما عن طريق زنجبار .

وقد وجدنا في المسجد شخصاً من أهل جزر القمر يقوم على خدمته وهو يعرف شيئاً من العربية .

والمسجد هذا متوسط السعة له منارة ظاهرة وفي الطابق الأول فوق دورة المياه (كُتّاب) أسموه مدرسة. ودورة المياه نظيفة فيها مناشف عديدة تغير في اليوم مرتين حتى يستعملها المتوضئون في المسجد ويقوم عليها المسؤل عن خدمة المسجد.

وفي حائط مدخله الرئيسي لوحة كتبت عليها أوقات الصلاة باللغة الكجراتية لغة المسلمين في هذه البلاد واللغة الفرنسية.

ومن الطريف في الأمر أنني أردت أن آخذ لي صورة تذكارية عند مدخل هذا المسجد فطلبت من الأخ عبد الحق حافظي والشيخ سعيد انجاري أن يكونا معي في الصورة ولكن الشيخ سعيد امتنع عن ذلك ولم يقل شيئاً عن سبب امتناعه ولكن أحد الأخوان همس في أذني أنه لا يحب التصوير، فقلت: إن هذا ليس هو بالتصوير المنهى عنه فيما أعرف، ذلك بأن التصوير هو الذي نص عليه الحديث (أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون الذين يضاهؤن خلق الله) وليس في التصوير الشمسي مضاهاة لخلق الله وانما هو إمساك ما ينعكس من الجسم الذي خلقه الله ثم تثبيته مثلما يكون انعكاس صورة الإنسان في المرآة.

وفي الحديث الآخر أن الله تعالى يقول: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة وليخلقوا شعيرة) فالتصوير الشمسي ليس فيه شيء من الخلق أصلاً.

إنما هذا هو مسك الظل، أو قل هو حبس الصورة التي خلقها الله للانسان وليس مضاهاة لخلق الله بإيجاد صورة أخرى.

وكنت أظن أنه لا يوجد في مثل هذه البلاد التي ينتشر فيها الانحلال تحت الحكم الفرنسي من يكون على مثل هذه الدرجة من الورع والاحتياط لدينه

وتيقنت أن في الزوايا خبايا وأنه قد بقي من أصحاب الورع بقايا وان كان فهمه أن هذا الأمر غير مباح ليس في محله حسبما أفهمه من النصوص .

إلى سانت بـول :

خرجنا من بلدة (بورت) قاصدين بلدة (سانت بول) على امتداد الطريق البحري نفسه وان لم يكن ملاصقاً للبحر بمعنى أنه يسير على ساحله في كل الأوقات ولم يطل بنا المسير أكثر من ١٤ كيلومتراً حتى وصلناها وهي بلدة صغيرة بها محطة هامة للمواصلات اللاسلكية مخصصة للخدمة في المحيط الهندي كله وهي واحدة من خمس محطات رئيسية في العالم . وبقربها رأينا نهراً نازلاً من الجبل قاصداً البحر تسبح فيه مجموعات كبيرة من الطيور البيضاء الجميلة فسألنا بهذه المناسبة عن صيد الطيور أهو مباح في هذه البلاد ؟ فقالوا : إنه لا يباح إلا في الصيف في فترة معينة .

ونسينا في سرعة هذا السير أنْ نشير إلى الوجوه والسحن التي رأيناها في بلدتي (بورت) و(سانت بول) وأغلبها لأناس من الكريول وهم الجنس المختلط ما بين الهنود والزنوج الأفريقيين في الأكثر وما دخل معهما من سائر الأجناس التي أظهرها الأوربيون والصينيون على قلة في ذلك ولهم سحن غريبة ذكرتني بسحن أهالي البحر الكاريبي لا من حيث أنهم سواء وانما من حيث أنهم كونوا سحناً وتقاطيع تكاد تكون جديدة إذا رآها المتتبع لمثل هذه الأمور فانه يتحير ولا يستطيع أن يلحقها بجنس من أجناس الناس المشهورة ، ومن حيث جمال الشكل الخارجي أو عدمه بالنسبة للسائح العابر مثلي فانه يتراآى أن هذا الجنس المختلط هو أجمل شكلاً ، وأحسن تقاطيع وأكثر اعتدالاً في الأجسام من أفراد الناس في أصليه الكبيرين الهنود والسود : وهذا الخليط يوجد ظاهراً واضحاً في جزيرتي موريشيوس ورينيون كلتيهما .

ثم قصدنا مسجد بلدة (سانت بول) فإذا به متوسط السعة لأن البلدة صغيرة مفروش بالسجاد النظيف وأرضية الأفنية الخارجية بالرخام الجيد. وتحيط به نوافذ كثيرة كبيرة حتى تتيح الفرصة للهواء أن يدخله من كل الجهات أو أكثر الجهات دفعاً للحر.

وملحق به مدرسة يدرس فيها شيخ اسمه محمد موسى هندي الأصل متعلم في جامعة ديوبند في الهند، أمر أحد الطلبة واسمه محمد قاسم من أهل هذه البلدة بتلاوة شيء من القرآن الكريم فقرأ آيات من سورة التوبة أحسن في قراءتها ما شاء مما يحسده عليه كثير ممن هم في سنه في بلادنا العربية هذا مع أنه لا يفهم معناها. وفي المدرسة قسمان أحدهما للبنات والآخر للأولاد وهما منفصلان إلا أنهما في قاعة كبيرة واحدة وهناك شيخ يعاون هذا المدرس في التدريس من الهند أيضاً.

واسم هذا المسجد عجيب أيضاً فهو يسمى (مسجد رونق الإسلام) والمدرسة الملحقة به تسمى (مدرسة سراج القرآن).

أما بلدة (سانت بول) فهي واقعة بين الجبل من جهة الجنوب والبحر من جهة الشمال والجبل يكاد يكون واقفاً من جهتها يكاد يخنقها لذلك هي حارة الهواء، ولذلك أيضاً إذا دخلتها خلت أنك في بلاد إستوائية بالفعل لأن هواءها إلى حرارته هو رطب، وهناك أشجار عالية كثيرة من أشجار النارجيل كما عليه الحال في البلاد الاستوائية. ويبلغ سكان (سانت بول) خمسة عشر ألفاً منها (٣٥٠) من المسلمين.

وقد عجبت عندما رأيت سوقها الرئيسي التجاري مقفراً فأخبرني إخواننا أن أهالي هذه الجزيرة جزيرة رينيون قد اعتادوا على أن يجعلوا صبح يوم الاثنين عطلة حتى يستكمل الناس راحتهم إضافة إلى يوم الأحد ولا تفتح

المتاجر الا في المدن الرئيسية مثل (سانت دنيس) في صباح الاثنين .

وأكثرية السكان فيها هم من الكريول أي الجنس المختلط . ويلفت النظر في هذه المدينة منظر نساء هذا الجنس المختلط وهن قد لبسن القبعات العريضة اتقاء للشمس وخرجن إلى الشوارع نصف عاريات لا يبالين بذلك ، ولم أر أحداً يبالي به فينتقدهن أو ينظر إليهن .

ولا يعدم المرء أن يرى أمرأة بيضاء من الفرنسيين خالصة البياض لكونها قدمت إلى هذا المكان من مدة غير طويلة ، أو قد صبغتها شمس البلدان الحارة بصبغة خفيفة من السمرة التي لم تنتزع منها الصباحة ، وأعطتها إلى ذلك شيئاً من الملاحة .

وفي ضاحية البلدة وعلى الشارع رأينا صاحب محل لبيع المرطبات فوقفنا عنده لتناول شراب جوز الهند الطازج وهو الماء الذي يصب من ثمار النارجيل ما دامت خضراء فشربنا منه علــلاً بعد نهل وذلك لأنهم قالوا إنه جيد للصحة وقد جربت ذلك بنفسي من قبل في الهند وفي إفريقية وفي غيرهما من البلاد .

وكان صاحبا الحانوت رجلاً وامرأة أما الرجل فليس عليه الا لباس البحر وهو (تبّان) أو سروال قصير جداً لا يستر إلا العورة المغلظة ليس غير ذلك التماساً للتبرد ، ولعدم أهمية ما يظهر من جسم الانسان في هذه البلاد أما المرأة فعليها لباس قصير ذو حمالات وأما جسم الرجل وتقاطيعه فعجب من العجب وربما صح القول إنه قد جمعت فيه الطبائع الأربع أو الست كما كان الأقدمون يقولون فلونه نحاسي كلون أهالي جنوبي البحر الأبيض المتوسط وأنفه أنف الصينيين ، وفيه من كل قوم لمحة ، ومن كل وجه شبه ، ولله في خلقه شؤون .

إلى سانت جيــل :

وهذه بلدة أخرى صغيرة من بلدان هذه الجزيرة انطلقنا إليها من بلدة

(سانت بول) وقد مررنا بينهما بميناءٍ مخصص لقوارب النزهة والفسحة في البحر ، وبعده شاطىء رملي صغير المساحة رمله أبيض غير جميل إلا أن كون الجزيرة بركانية وكون أكثر شواطئها صخرية جعل له أهمية ، ورأينا بقربه بعض البيوت الخاصة الصغيرةالمخصصة لقضاء الوقت قرب البحر . ثم وصلنا البلدة بعد مسيرة ١٦ كيلومترا ، ولم نقف بها وانما انطلقنا بعد أن شاهدنا معالمها بالسيارة إلى :

بلـدة سانت لـو :

وهي بلدة صغيرة عدد سكانها مع ضواحيها عشرة آلاف نسمة بينهم أسرتان فقط من المسلمين وليس فيها مسجد ولا مدرسة إسلامية وبعدها مررنا بشاطىء ذي صخور بركانية تتكسر عليها أمواج البحر فتتناثر متراقصة ما بين البحر وهذه الصخور .

إلى سانت لـويس :

واصلنا سيرنا إلى بلدة (سانت لويس) وهذه المرة كانت البلدة التي نقصدها بعيدة عن البلدة التي نتركها إذ تبلغ المسافة (٣٥) كيلاً وهي مسافة طويلة بالنسبة إلى هذه الجزيرة الصغيرة .

وكان أول ما قصدنا عندما وصلناها مسجدها وهو صغير أمام أول صف منه صف من السبح ــ جمع سبحة ــ وفيه مكتبة صغيرة في رفوف داخل الجدار وقد بني منذ (٤٠) سنة ، وهو يقع وسط ساحة واسعة ويضيق بالمصلين في صلاة الجمعة لذلك يريدون توسعته ولا عائق لهم إلا النقود فيما يقولون ، ويحيط به حديقة واسعة أرضها مفروشة بالحشائش الخضراء الكثيفة ومغروس فيها أشجار النارجيل .

الشجرة الوحيـدة :

وفي جهته الشرقية شجرة ضخمة الجذع جداً لا يستطيع الرجلان إذا مدا أيديهما أن يضما جذعها وذات فروع كثيرة بحيث أظلت قسماً كبيراً من هذه الساحة ووقته من الشمس ، قالوا لنا : إنها شجرة مطاط وإنها الشجرة الوحيدة في كل جزيرة رينيون من هذا النوع من الاشجار إلا أنه لا يخرج منها مطاط ، ولا يدرى متى غرست إلا أن ذلك كان في القديم . وقد رأينا نافورة تتلفت فترش حشائش الحديقة في فناء المسجد .

وللمسجد إمامان يتناوبان الإمامة فيه ويدرسان في المدرسة الإسلامية الملحقة به أحدهما اسمه عبد الخالق عبدالله . والثاني : محمود يونس وكلاهما هندي الأصل .

ولاحظنا أن سوق البلدة مثل غيره مغلق هذا الصباح بمناسبة عطلة صباح الاثنين .

ثم تركناها فكان أول ما مررنا عليه بعدها جسراً أقيم على نهر قليل الماء وإن كان كبير المجرى ربما كان ذلك بسبب عدم نزول الأمطار ، ورأيت عدداً كبيراً من نسوة أهل البلاد يغسلن ملابسهن في مياهه ، وينشرنها على اليابس من الحصى في مجراه ، وذلك لأنه يجري في أرض صخرية إلى البحر القريب منه . وهن من نساء الكريول أي الجنس المختلط من الملونات .

ثم واصلنا السير فررنا بحقول خضراء من نبات السكر ووجدنا عشرات النافورات الصناعية تسقي السكر بطريق الرش ، وقد انتشرت مياهها بحيث ترى على البعد كالضباب الخفيف وسط شمس ساطعة فوق حقول خضراء فيكون منظرها بهيجاً يشرح النفس ، أما القريب منها فانك تراه كالمظلات

المنتشرة المتلفتة يميناً وشمالاً وأماما وخلفاً بطريقة آلية لكي تسقي أكبر مساحة من الحقول .

مدينـة سانت بييـر :

هي المدينة الثانية في جزيرة رينيون يبلغ عدد سكانها خمسين ألفاً منهم ١٢٠٠ من المسلمين .

وحال وصولنا أوقفنا السيارة في الشارع التجاري من المدينة ودخلنا منه إلى مدرسة تسمى (أطيب المدارس) وتقع في ركن من مساحة واسعة يقع المسجد الجامع في جهة منها والمدرسة في الجهة المقابلة وفيها حديقة صغيرة ولديهم مشروعات كثيرة لتعميرها والاستفادة منها .

وقد دخلنا أحد فصول المدرسة الذي يضم بنين وبنات وهو الصف الرابع وإذا على السبورة كتابة بالفرنسية بينها بعض الكلمات بالعربية قالوا لنا : إنه درس يشرح المبادىء الفقهية مثل الوضوء والطهارة ، ووجدنا مع إحدى الطالبات كتاباً عنوانه (أتعلمُ العربية) باللغة العربية وإذا به لتعليم العربية للأجانب مؤلفه فرنسي ومطبوع في باريس وهو كبير الحجم . ولاحظنا أن الطالبات على غاية من التستر والاحتشام لا يبين من الواحدة إلا وجهها وكفاها مع أنهن صغيرات في السن وقد غطين رؤوسهن بغطاء ساتر من القماش السميك يضرب إلى حدود الكتفين . أما الطلاب فكلهم قد لبسوا الطواقي أي القلانس على رؤوسهم ولا يوجد منهم أي واحد عاري الرأس وذلك كله فوق اللباس الافرنجي المعتاد الذي هو قميص وسروال في هذه البلاد الحارة .

وبعده انتقلنا لرؤية الصف الخامس والطلاب والطالبات فيه أكبر من الذين قبلهم بطبيعة الحال . دروسهم بالفرنسية ومنه انتقلنا إلى القسم الابتدائي

وألطف ما فيه أن الطالبات اللآئي لا تزيد سنهن على الخامسة والسادسة يلبسن لباساً محتشماً كالكبيرات وكذلك الأطفال في تلك السن يضعون القلانس على رؤوسهم .

وقد رأيت مع اثنين من الطلاب أجزاء من القرآن الكريم فطلبت من أحدهما أن يقرأ ولا أشك في أنه لم يبلغ السابعة فقرأ قراءة جيدة وهو يضع أصبعه على الكلمات التي يقرأها وزميله يتابعه بوضع اصبعه على الآيات في الجزء الذي معه مما يدل على أنهما يتابعان ما يقرآنه ، وانهما يعرفان الكتابة الكريمة معرفة جيدة .

مع المسئولين عن الجمعية الإسلامية في سانت بيير :

حضر إلينا في مقر المدرسة الأخ عبد الخالق ديساي الأمين العام للجمعية الإسلامية في سانت بيير ورئيس الجمعية حسين إبراهيم ديدان أصله من الهند ومولود في هذه الجزيرة وهو ثري وصاحب أعمال كثيرة ومدير شؤن المسجد والمدرسة السيد يعقوب بانتي كما حضر إمام المسجد الشيخ نذير أحمد بن عبدالله والإمام الآخر الشيخ اسماعيل حافظ صالح .

وأرانا الأمين العام للجمعية مشروعاً لبناء طابق زيادة على الموجود حالياً في المدرسة للتوسعة وقسم يكون سكناً للطلاب البعيدين من مقر المدرسة . ولديهم مشروع بناء مقر لدار الأيتام من المسلمين وكذلك لديهم عزم على المدى الطويل نسبياً أن يبنوا مستشفى هنا تابعاً للمسجد والمدرسة ، وقال : إننا كتبنا لرابطة العالم الإسلامي في مكة لكي تساعدنا في هذا الأمر.

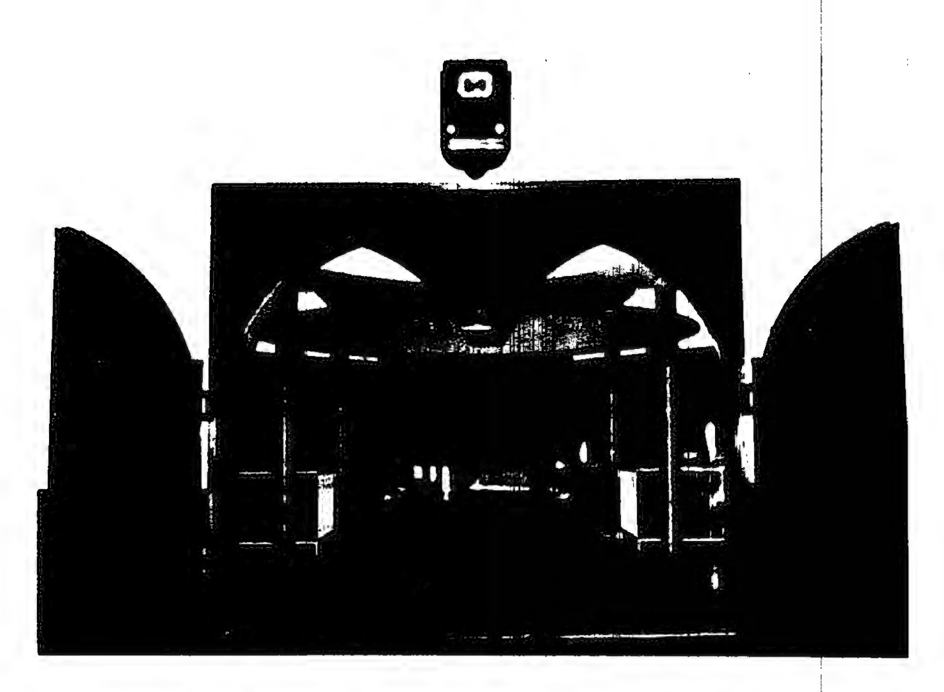
وقد أخبرني عن مشروع لديهم مفيد وطريف وهو يدل على إدراكهم لوضعهم في هذه البلاد وعلى الحاجة الماسة للدعوة هنا فقال : إن لدينا مساحة

من الأرض قد بنينا في جهتها التي تلي الشارع حوانيت وأجرناها وأجرتها نصرفها في مصالح المسجد أما القسم الداخلي فنعتزم أن نجعله حديقة عامة جميلة تكون لكل الناس في هذه البلاد من مختلف الألوان والأديان وذلك حتى نجعلهم يقتربون منا ونعد لهم كتباً صغيرة ونشرات إسلامية باللغة الفرنسية ونريهم المسجد وكيف نمارس الصلاة فيه . وذلك بغية أن يستجيب بعضهم للدخول إلى الإسلام ومن لم يفعل نكون على الأقل — قد محونا من ذهنه ما ألصقه أعداء الإسلام به من افتراءات وأباطيل .

الجامع العظيم :

اسمه «أطيب المساجد» ولو كان طيب المسجد يكون بطيب مبناه وروعة هندسته وكثرة ما أنفق عليه من مال لكان هذا المسجد يستحق أن يسمى بهذا الاسم (أطيب المساجد) في أكثر بلدان العالم حاشا بعض المساجد الكبيرة غير المساجد المفضلة الثلاثة . فانه دونها أما المساجد الثلاثة فلا يقارن بها غيرها في الفضل والسعة .

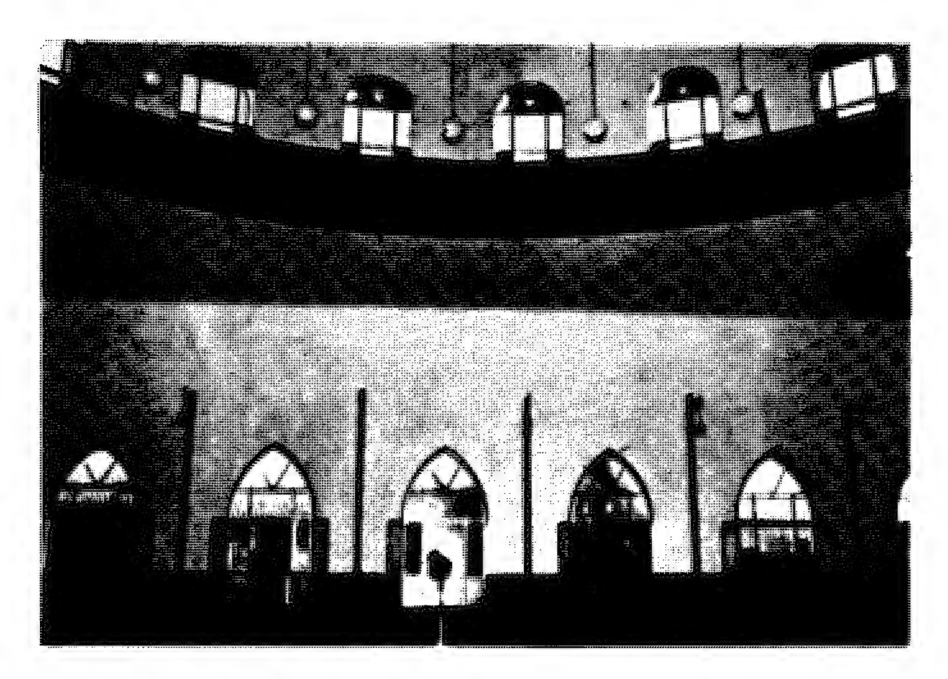
فيه قبة عربية الطراز رئيسية كبيرة جداً تحف بها أربع قباب صغيرة نسبياً . والمسجد كله على سعته قائم على أربعة أعمدة على نظام المساجد الكبيرة في اسطنبول في تركيا أما الهندسة على وجه العموم وبخاصة أبوابه الخشبية المصنوعة من الخشب المخروط فانها عربية الطراز وقد كتب على الباب الأوسط حفراً بالعربية : (اللهم إني أسألك من فضلك ،الله جل جلاله ، محمد صلى الله عليه وسلم) ومكتوب على القبة الكبرى من الداخل آية الكرسي بخط جميل مستدير مع استدارتها وعلى إحدى القباب الأخرى سورة (قل يا أيها الكافرون) وعلى الثانية سورة الإخلاص . أما القبة الثالثة فمكتوب فيها سورة (الناس) وعلى الرابعة كتبوا (سورة الفلق) .



منظر الممر الداخلي الموصل الى المسجد في جامع سانت بيير في جزيرة رينيون .



المدخل الخارجي لحديقة الجامع في مدينة سانت بيير في رينيون



داخل المسجد الجامع في مدينة سانت بيير في جزيرة رينيون (منظر جانبي)



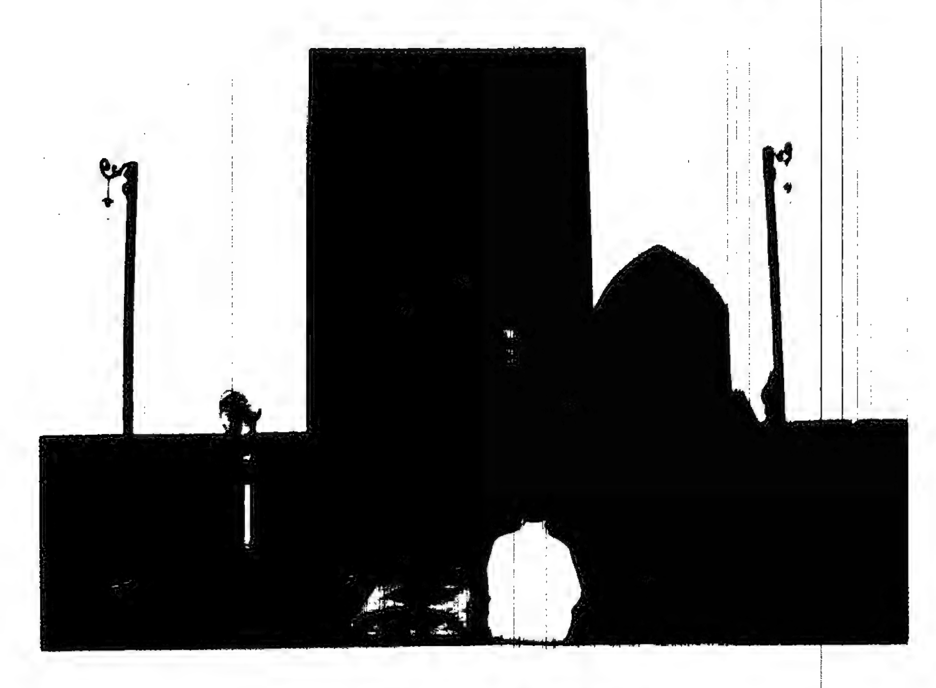
منظر داخلي للقبة الرئيسية في جامع مدينة سانت بيير في جزيرة رينيون

والمحراب كله مغطى بالخشب المحفور منقوش في أعلاه حديث (مَنْ بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) وتحته (الله جل جلاله ، محمد صلى الله عليه وسلم) .

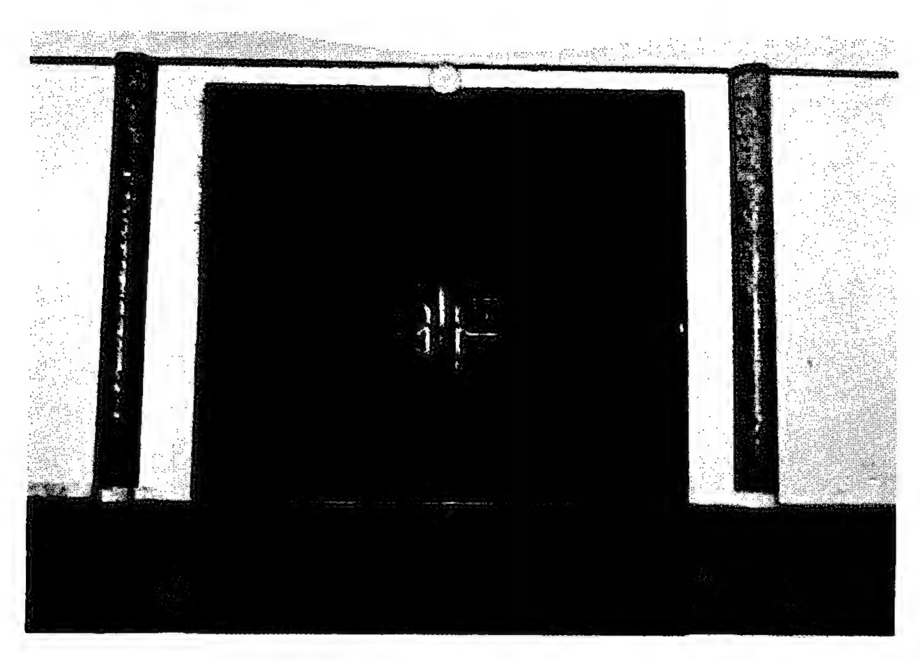
وجميع نوافذ القباب بالزجاج الملون الجميل .

وقد سألتهم عن الذين نقشوا هذه النقوش المحفورة على الخشب ؟ فقالوا : إنهم القمريون أي الذين هم من (جزر القمر) .

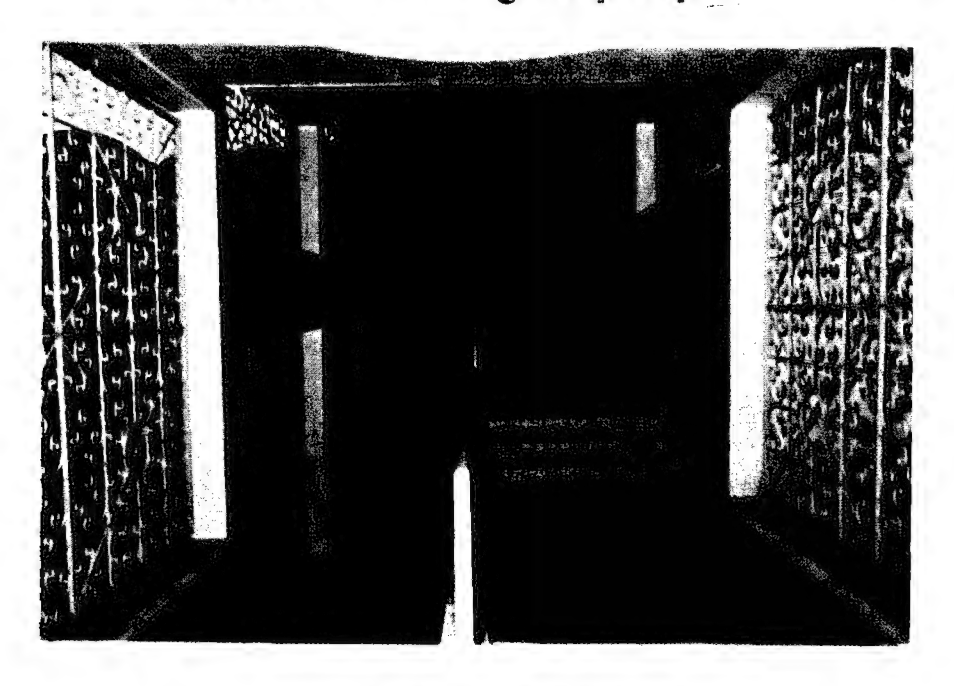
أما الأعمدة الداخلية وجميع حوائط المسجد الداخلية فقد عمل لها أزر من الخشب المحفور وأما الأعمدة الخارجية فقد كسيت بالقيشاني على شكل فسيفساء جميلة رائعة الألوان جعلوا في بعضها قطعاً صغيرة من اللون المذهب حتى يزيد لونها بهجة ورونقاً .



محراب جامع مدينة سانت بيير في رينيون



الباب الداخلي الرئيسي في جامع مدينة سانت بيير في جزيرة رينيون



من جامع مدينة سانت بيير في رينيون

وتذكرت عندما رأيتها أنها قد عرضت علينا في التلفاز في الرياض فرأيناها وتعجبنا منها إذْ لم نكن نعتقد أنه يوجد مثلها في تلك البلاد البعيدة عن مراكز الإسلام وبخاصة في هذه الجزيرة التي يؤلف المسلمون فيها أقلية صغيرة العدد .

وبعد ذلك عقدنا جلسة طيبة في صحن المسجد مع عدد من إخواننا المسلمين المذكورين وانضم إليهم غيرهم ألقيت فيهم كلمة شكرتهم فيها على صنيعهم ، ودعوت لهم بالتوفيق والمزيد من الخير فأمنوا على ذلك ، وقالوا : إن الذي ينقص المسجد في الوقت الحاضر هو المنارة المناسبة له ونرجو أن نتمكن في المستقبل من جمع المال اللازم لها إلا أنه إذا استطعنا الحصول على المساعدة المالية فاننا سنتمكن من بنائها في وقت أقرب . وقالوا إنهم قد رسموا المنارة وقرروا أن يكون ارتفاعها ٤٢ متراً .



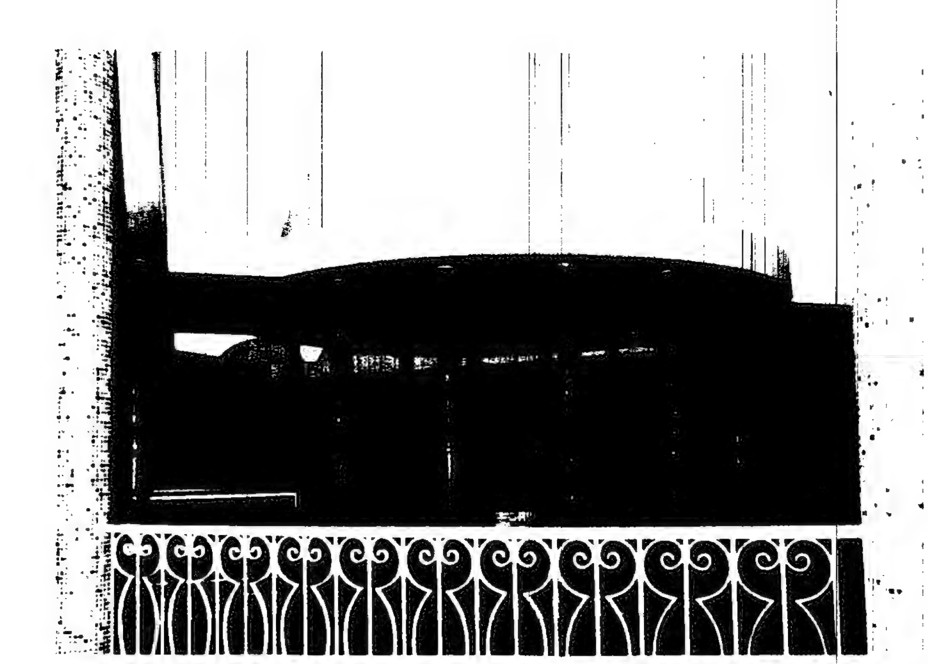
من ملحقات المسجد الجامع في مدينة سانت بيير في جزيرة رينيون



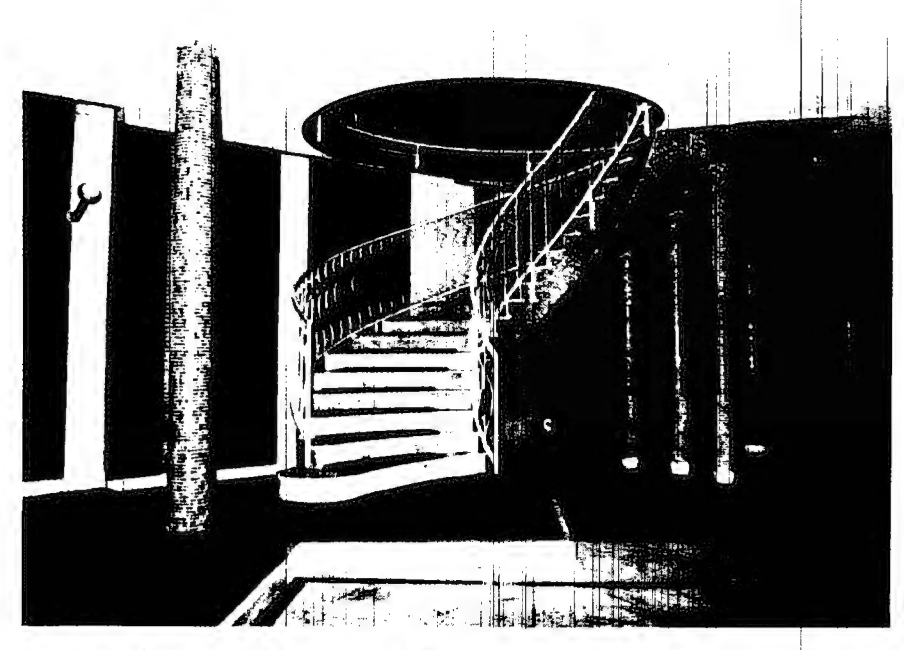
الجسر الموصل من المسجد الجامع إلى المدرسة الإسلامية في مدينة سانت بيير في جزيرة رينيون

ثم انتقلنا لرؤية دورة المياه التي هي تستحق الزيارة بحق فهي تحفة من التحف في بنائها وعمدها وقطعة من الفن في تصميمها وتنفيذها وأما النظافة فلا أظن أنه يوجد مثلها في مستشفى من المستشفيات الراقية ولا أدري كيف أصبحت بهذه المثابة إلا أن يكون ذلك توفيقاً من الله تعالى لما علمه من نية هؤلاء الإخوة الصادقة في أن يكون عملهم لله وفي سبيل الله .

وأعمدة هذه الدورة مكسوة بالفسيفساء ذات الألوان الرائعة التي يكثر فيها اللون الأخضر واللون الأزرق وتنهض وسط بحيرة من الماء وضعوها للزينة فتنعكس ظلال هذه الأعمدة على ماء البحيرة فتزيدها جمالاً على جمال وتكسوها روعة فوق روعة . وهي واقعة في الطابق الأسفل وفوقها أماكن للوضوء إضافية على مستوى أرضية صحن المسجد قد جعلوها على شكل بيضاوي انفرج وسطه لمر جميل بين صفين من الأعمدة الصغيرة المكسوة بالفسيفساء قد غاصت أقدامها في بحيرات مليئة بالماء جعلت للزينة فقط .



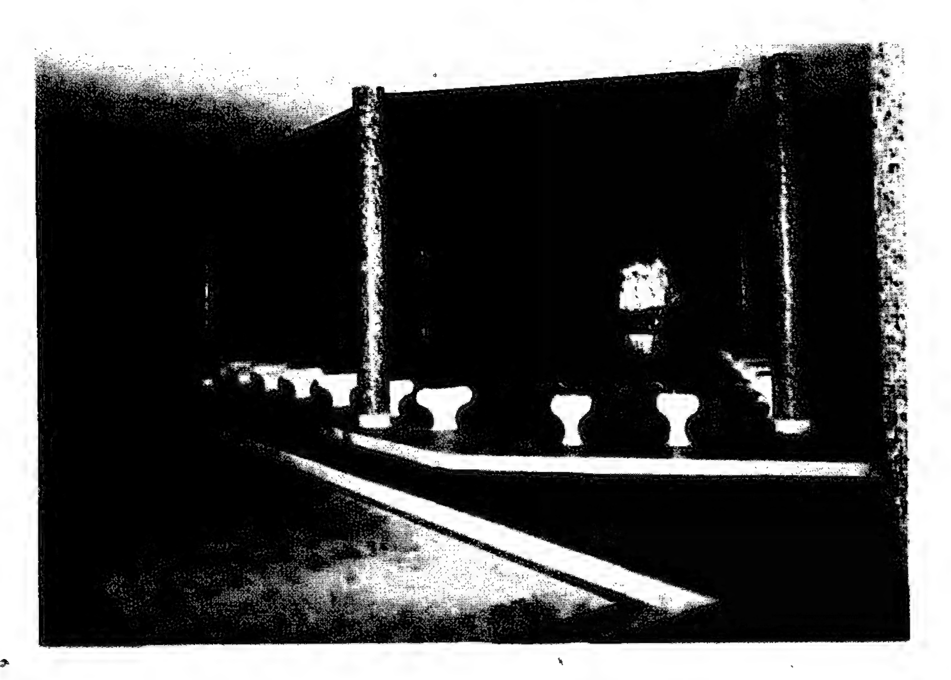
القبة التي على محلات الوضوء العليا في جامع مدينة سانت بيير في جزيرة رينيون



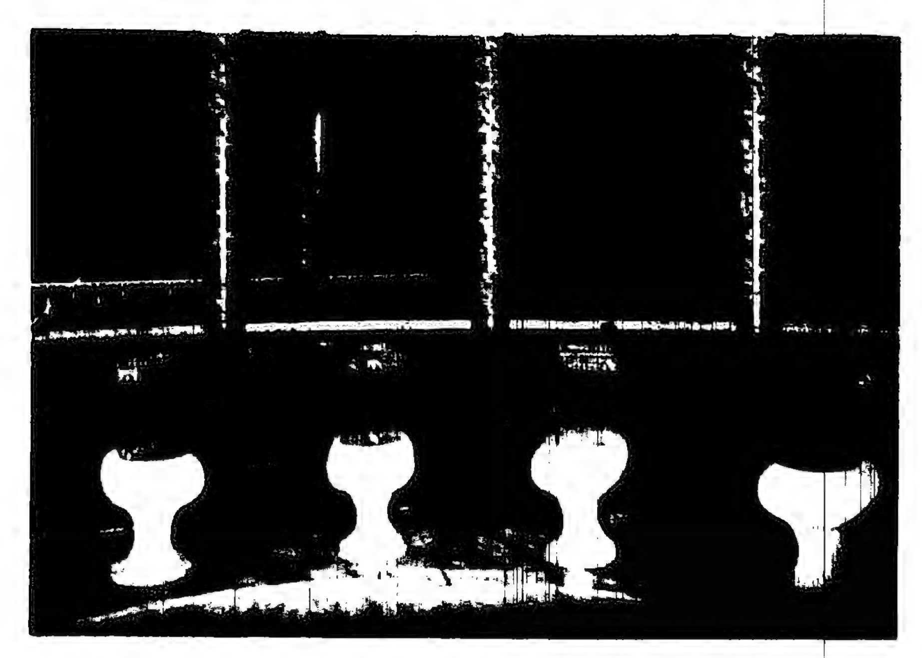
الدرج الذي ينزل إلى محلات الوضوء ودورات المياه في جامع مدينة سانت بيير في جزيرة رينيون

أما دورة المياه في الأسفل فقد كسيت بما يسمى بالسيرامك أي الرخام الصغير من أسفلها إلى أعلاها دون ترك أي بقعة خالية منه ووضعت في خارجها صنابير للمياه تنبعث من تحت مظلة تشبه الشمسية من المرمر فوقها الصابون لغسل الأيدي ثم المناشف الكثيرة التي يغيرها الخدم بعد كل استعمال . وهناك صف من الأحذية المخصصة للاستعمال داخل دورات المياه لا تخرج منها وهي تابعة للمسجد .

وعندما خرجنا من الباب الخارجي الذي يشرع على السوق الرئيسي في المدينة رأينا لوحة جميلة على باب المسجد كتب عليها بالعربية (أطيب المساجد) والبسملة وسورة الإخلاص ثم تاريخ بنائه بالحروف اللاتينية وأنه قد تم في ٢٣ شعبان عام ١٣٩٥هـ .



محلات الوضوء في جامع سانت بيير في جزيرة رينيون



منظر لجزء من أماكن الوضوء في جامع سانت بيير في جزيرة رينيون

مناظر من بركان الجزيرة :

كان من المقرر أن نرى البركان الذي كان هائجاً في هذه الجزيرة وهدأ قبل سنة واحدة وقالوا : إنه تنفس تنفساً ضعيفاً قبل شهرين إلا أنه تبين لنا أن الوقت لا يتسع لزيارته بسبب بعده ، وازدحام البرنامج لذلك رأى إخواننا ألا يحرمونا من منظره في التلفاز إذْ لم نتمكن من مشاهدته على الطبيعة فأخذنا رئيس الجمعية الإسلامية في هذه البلدة (سانت بيير) إلى متجر له كبير جداً ونفيس المعروضات وكان من بين ما فيه أجهزة كبيرة للتلفاز الملون رَكب على أربعة منها شريطاً ملوناً مسجلاً عليه ثورة هذا البركان بمراحلها كلها ، وقد ذكر فيها أن ذلك كان في العام الفائت ١٩٧٧م . وأنها دامت مدة شهرين وأنه بلغت حرارة النيران عند فوهته الداخلية ثلاثة آلاف درجة . وقد رأينا كيف كان يرمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ، إلى جانب فوَّارات من الحمم السوداء ، ونافورات هائلة من السوائل الجهنمية وكيف كانت حجارته السائلة

ومقذوفاته تنطلق فتحرق الأخضر واليابس إلى أن ينتهي بها المطاف إلى ساحل البحر.

إلى بلـدة تامبـون :

وبينها وبين مدينة (سانت بيير) مسافة ستة كيلات فقط.

ويبلغ عدد سكانها مع ضواحيها خمسة عشر ألف نسمة بينهم مائة مسلم أو يزيدون قليلاً عن ذلك، وكانت وجهتنا بيت الرئيس (حسن إبراهيم ديدان) وتناولنا طعام الغداء على مائدته وبيته هو دارة (فيللا) وسط حديقة كثيفة الخضرة أثاثها فاخر تملأ التحف واللوحات أكثر أركانها وجدرانها وأظن أنها في مستوى النظافة والأناقة تفوق معظم البيوت الأوروبية.

وقد اجتمع لديه عدد من المسلمين، وكانت مائدة سخية هندية الطعام، ضمت بعد الطعام فاكهة كانت ثلاثة أنواع مما تخرجها بلادهم وهي العمبة (المانجو) والخوخ وفاكهة يسمونها الإيجو لا توجد إلا في البلاد الاستوائية وشبه الاستوائية عليها قشر خشن وهي حلوة لها نواة كبيرة.

وتشعب الحديث وكنت أتكلم في أكثر الأحيان بالعربية فيترجم ذلك إخوان لنا ثلاثة إلى الفرنسية وهم الذين ذكرتهم عند الوصول إلى المطار.

وعندما فرغنا من الغداء كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة فأسرعنا إلى مسجد البلدة لنؤدي فيه صلاة الظهر واسمه (نور مسجد) فوجدناه صغيراً قد جدد بناؤه قبل عام وسط حديقة فيها أشجار من النارجيل وأشجار أخرى من أشجار الظل وبجانبه مدرسة رأينا فيها طائفة من الأطفال يتعلمون، ومن انفراداته أنه وضعوا ساعة مضبوطة على الحائط الداخلي لأماكن الوضوء وهذه ساعة إضافية لأن المسجد في داخله ساعة، وفي حائط رواقه ساعة أخرى.

هذا إلى جانب المناشف المعلقة عند أماكن الوضوء مثل المساجد الأخرى في هذه الجزيرة .

وبعد الفراغ من الصلاة التي جمعنا معها صلاة العصر نحن وحدنا أما إخواننا الذين كانوا معنا في الجولة والمقيمين في هذه الجزيرة فانهم لم يجمعوا عملاً بمذهب الإمام أبي حنيفة الذي لا يرى الجمع ، وانما قصروا صلاة الظهر قصراً إلى ركعتين .

بدأنا رحلة العودة :

وكانت بلدة (تامبون) هي أبعد نقطة وصلناها في هذه الجولة وهي تبعد عن (سانت دنيس) العاصمة التي انطلقنا منها في الصباح بما يقارب المائة كيلومتر .

وكانت العودة من طريق الجبل وهو غير الطريق الذي جئنا منه الذي هو طريق الساحل فبدأنا صعود الجبل مباشرة مع طريق ضيق كثير المنحنيات يسمع المرء للسيارات المسرعة صريخاً من كثرة المنحنيات . وكانت بداية العودة في الساعة الثانية إلا ربعاً .

فمررنا ببلدة تسمى (فانتكا) بعد ١٤ كيلاً من تامبون ورأينا في الطريق (بسطات) الأهالي من الكريول التي تتضمن أكثر مما تقدم من الخضروات الطماطم إلى جانب خضروات أخرى وفواكه محلية . ومازلنا سائرين على ظهر الجبل ونسمات الهواء تهب علينا عليلة باردة وقالوا إنه في هذه الأماكن يسكن القادرون من الفرنسيين فراراً من الحر على الساحل .

وفوق ظهر الجبل كانت هناك غابات من الأشجار ما لبثت أن أصبحت كثيفة عندما بدأنا النزول ، ومن طريف ما شاهدناه ونحن ننزل أن السحاب

كان يتفرق من أمامنا ، ونراه يقبل مع الطريق من جهة البحر فيكاد يصطدم بالسيارة على شكل ضباب كثيف حتى اضطررنا إلى اشعال نور السيارة حذراً من الاصطدام بسيارة مقبلة إلى جانب تشغيل مسَّاحات السيارة عن الزجاج لمسح الماء الذي لم يكن ينزل علينا ويأتي من فوق كما هو العادة لأنه ليس فوقنا سحاب ، وانما هو من السحاب نفسه الذي نمشي وسطه وهو بالنسبة لمن هم على الساحل مرتفع جداً يسقط مطراً كما يسقط المطر في العادة .

وقد وصلنا ونحن ننحدر انحداراً شديداً إلى الجانب الشمالي الشرقي من جزيرة رينيون قاصدين (سانت دنيس) في الجانب الشمالي الغربي إلى منطقة غابات حكومية كثيفة قد تركتها الحكومة أرضاً عذراء .

وما زلنا سائرين حتى وصلنا إلى بلدة تسمى :

(سانت بنـوا) :

وفيها مسجد صغير ولفت نظري بعد الخروج منها منظر أمرأة من الكريول أي الجنس المختلط وهي تحمل حزمة كبيرة من العلف الأخضر على رأسها وهذا منظر غريب في هذه البلاد .

ثم انعطف بنا الطريق ممتداً إلى شمال الجزيرة قاصداً جهة المطار قرب العاصمة (سانت دنيس) والمناظر في هذا الجانب من الجزيرة بالغة الروعة إذ اتسعت المساحة بين شاطىء البحر ، وبين الجبال إلى مسافة لا بأس بها نسبياً وكلها مساحات قد زرعت بالحقول التي أغلبها قصب السكر .

ثم مررنا ببلدة اسمها (سانت أندريه) فيها مسجد صغير ، وبلدة أخرى صغيرة تسمى (سانت ماري) فيها مسجد صغير أيضاً ومعظم المتاجر فيها للمسلمين حتى عدنا إلى العاصمة (سانت دنيس)

في زيارة الحاكم العام :

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة و ٥ دقائق وكان لنا موعد ضربه مضيفنا الأخ عبد الحق حافظي لمقابلة الحاكم الفرنسي وهو أعلى شخص في هذه الجزيرة وظيفةً وهو يُرسل من باريس ويمثل الحكومة الفرنسية في هذه البلاد ويشرف على السلطة فيها .

فوصلنا مكتبه في مبنى حكومي من حجارة سوداء منقوشة تذكر المرء بالبنايات القديمة في أوروبا وقد بقي على حلول الساعة الرابعة والربع ثلاث دقائق فاستقبلنا موظف هناك لعله مدير مكتبه وأجلسنا في مكتب مجاور ولما مضت الدقائق الثلاث أخذنا إلى مكتب الحاكم فاستقبلنا عند الباب الخارجي لمكتبه هاشاً باشاً وهو شاب فرنسي عريق فيما يبدو من منظره أنيق الملبس وقد رحب بنا ترحيباً مقتضباً فتكلمت معه بكلمة قلت فيها ما معناه : إننا عندما وصلنا إلى هذه البلاد وهي أرض فرنسية شعرنا بأننا قد وصلنا بالفعل إلى أرض صديقة لأن فرنسا الحديثة صديقة للعرب ، وإننا سررنا لما أخبرنا به إخواننا المسلمون في هذه البلاد من أنهم يلقون التقدير والاحترام ويمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة شأن جميع المواطنين في هذه البلاد . كما سررنا لمظاهر التعمير والنظام والنظافة السائدة هنا .

وكنت أتكلم بالعربية المبسطة فيترجمها الشيخ إبراهيم باتل مدير المدرسة الإسلامية إلى الفرنسية فسر لذلك وقال : لا شك أن هناك عدداً لا يستهان به من المواطنين الفرنسيين ديانتهم الإسلام وإننا لنشكركم على ما تقوم به الحكومة السعودية تجاه الحجاج الفرنسيين من خدمات وما تقدمه من تسهيلات فشكرته على ذلك ، وقلت له : هذا واجبنا . وقال ، متى تسافرون ؟ قلت : اليوم قال : هذه مدة قليلة وأرجو أن تزور (رينيون) مرة ثانية فقلت له ، إنني أحب

ذلك وبخاصة إذا كان في وقت ولايتك أنت شخصياً .

ثم تحدثنا قليلاً واستأذنا في الانصراف . فنهض وناولني أنا والأخ الدكتور خالد نحاس الذي كان معي في كل الجولة في هذا اليوم علبتين لكل واحد علبة جميلة في داخلها (ميدالية) معدنية قد نقش عليها رسم يمثل منظراً من مناظر التاريخ المبكر لهذه الجزيرة ، وقال : هذه هدية أرجو أن تقبلوها ثم سار معنا حتى ودعنا عند باب السيارة في الخارج ووقف حتى سِرنا . واسمه (بيرنارد لاندوز) ومن مجاملاته أنه أمر مدير مكتبه بأن يتصل بالمطار ليسهلوا سفرنا ، وقال إنني سوف أرسل إلى المطار مندوباً عني لخدمتكم وتوديعكم .

في السوق التجـاري :

من عند الحاكم توجهنا إلى السوق التجاري حيث سرنا فيه مديدة قصيرة جداً ثم دخلنا إلى محل مضيفنا الأخ عبد الحق حافظي فإذا به محل كبير قد علق فوق مكتبه فيه لوحة عليها الشهادتان إلى جانب رسم كبير لمشروع مسجد كبير يسعى لبنائه في مدينة (سانت دنيس) وفي المكتب أخوه يقوم بإدارة البيع والشراء فيه عند غيابه .

ومتجره الكبير وسائر المتاجر التي رأيناها في هذا السوق مليئة بالسلع الفاخرة بما يدل دلالة واضحة على أن هذه البلاد في مستوى اقتصادي جيد بالنسبة إلى البلاد الآسيوية والإفريقية .

وقد رأينا عدداً من متاجر المسلمين واستدل علينا بعضهم بملابسي العربية ، ورأينا من بين ما رأيناه امرأة مسلمة في محل لبيع الأطعمة الخفيفة أشار إليها أحد مرافقينا وقال : الحمدلله ، كل ما تبيعه هنا حلال .

ولم نُطل المكث في هذا السوق إذ كان علينا أن نعود إلى البيت لحمل

حقائبنا وأمتعتنا ومن ثم نعود إلى زيارة المسجد الرئيسي في مدينة سانت دنيس ثم نخرج توّاً إلى المطار في الطريق الى مدينة تاناناريف عاصمة جزيرة مدغشقر ، أو دولة ملاقاش كما أصبحت تسمى .

نــور الإسلام :

هذا هو اسم المسجد الرئيسي في مدينة سانت دنيس ويقع في وسط البلدة في السوق التجاري وهو واسع تحيط به نوافذ متعددة في حوائطه لتسمح بدخول الهواء زجاجها العلوي ملون وأسفله أبيض .

وقد رأيناهم يبنون طابقاً إضافياً بمثابة توسعة للمسجد وهو في مؤخرة المسجد جعلوا أسفله حوانيت لتؤجر ويصرف ريعها فيما يحتاجه المسجد وأعلاه توسعة للمسجد ويبنون في جانب التوسعة منارة من المقرر أن يكون ارتفاعها (٣٢) متراً . وتحته طابق أرضي فيه اماكن واسعة جداً للوضوء ، وفي جانب منفصل من الطابق مدرسة لتحفيظ القرآن والمسجد نظيف ، وبسيط البناء يكاد يكون خالياً من الزينة .

وقال رئيس الجمعية الإسلامية وإخواننا الآخرون يسمعون : إن المسجد يضيق يوم الجمعة بالمصلين حتى يخرجوا إلى الشارع لذلك وسعناه لأنه لا يتسع إلا لألف ومائتي مصلٍ ، أما في الأيام العادية غير الجمعة فانه يحضر فيه لصلاة المغرب حوالي (٣٥٠) من أهل المتاجر من المسلمين الذين في السوق التجاري .

المركــز الإسلامــي :

يقع في الدور الثاني من بناء ملاصق للمسجد وفيه قاعة لا بأس بها للمحاضرات فيها بعض المقاعد ومكتبة صغيرة ، ويصدر عن هذا المركز مجلة إسلامية عنوانها (الاسلام) وعندما رأيتها تذكرت مجلة يصدرها مركز إسلامي

آخر بعيد كل البعد عن هذا المركز من حيث المسافة وتحمل الاسم نفسه (الإسلام) وهي مجلة المركز الإسلامي في مدينة كراكاس عاصمة فنزويلا .

كما يصدر المركز نشرات وكتيبات إسلامية بالفرنسية أهدوا إلينا نماذج منها ويقوم على إدارة هذا المركز الشيخ احمد سعيد انجار السابق ذكره .

وفي مقابل الجامع والمركز الإسلامي يقع متجر رئيس الجمعية الإسلامية في سانت دنيس الأخ يوسف رافت أو قل متاجره فقد طلب منا أن ندخل متجره



السيد يوسف رأفت
رئيس الجمعية الإسلامية
في رينيون

فإذا به أشبه ما يكون (بالسوبر ماركت) الكبير يشغل عدة أدوار من بناية حديثة يملكها ويؤجر أعلاها والباقي يستعمله متجراً ومكاتب لإدارة أعماله التجارية الواسعة ومتجره هذا مجهز بكل ما يلزم المتاجر الكبيرة حتى جهاز التلكس أرانا إياه وهناك حاسب آلي في طابق أعلى يستعمله . وقال : هذا كله من فضل الله . ثم قال إنه متزوج ولديه اثنا عشر ولداً وبنتاً هم ثمانية ذكور وأربع إناث ، وأرانا مكتبه في المتجر فإذا على رأسه لوحة مكتوبة بالعربية (توكلت على الله) وهو حريص على أن يتعلم العربية رغم أعماله الواسعة ولذلك يحفظ كمية طيبة من الكلمات العربية ويستعملها معنا وإلى جانب ذلك يجيد الانكليزية إجادة تامة أما الفرنسية فهي اللغة الوطنية وأما الكجراتية فهي يتكلم بها أحياناً مع موظفيه الذين أصلهم مثله من كجرات في الهند .

والحقيقة أنه عجب من العجب فهو شعلة من النشاط رغم أنه في عشر الستين ، وهو لا يعتني بمظهره كما يفعل أكثر الأثرياء فقد ترك له لحية وعارضين اتباعاً للسنة وإن لم يكن ذلك وافراً ، ولباسه لباس متواضع ولكنه نظيف . وهو ينفق على الأعمال الإسلامية بسخاء كما أخبرنا إخواننا المسلمون من أهل هذه البلاد .

إلى تاناناريف :

وصلنا مطار سانت دنيس في الساعة السادسة والنصف مساءً مع إخواننا الكرام من مسلمي أهل هذه الجزيرة فوجدنا فيه مندوب حاكم الجزيرة فتولى شئون سفرنا وبقينا نتحدث مع إخواننا فلما جاء موعد قيام الطائرة صحبنا إلى داخل مكاتب المطار ولذا لم تفتش حقائبنا ولم نمر بأي حاجز للتفتيش كالركاب الآخرين ثم ودعنا مبتسماً وقلنا له : (مرسي بكو) أي شكراً كثيراً بالفرنسية[١] .

قبل انقطاع الحديث عن رينيون

قبل مفارقة جزيرة (رينيون) وانقطاع الحديث عنها نود إعطاء القارىء الكريم لمحة موجزة عنها .

أولاً ــ لمحة جغرافيــة تاريخيــة :

تقع جزيرة رينيون في المحيط الهندي وعلى بعد (٤٢٠) أربعمائة وعشرين

---

(١) للكلام على مدغشقر في هذه الرحلة ورحلة أخرى كتاب مستقل اسمه «مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين» صدر عن النادي الأدبي في الرياض عام ١٤٠١هـ .

ميلاً إلى الشرق من جزيرة مالاجاش (مدغشقر) وتبلغ مساحتها حوالي (٩٦٩) تسعمائة وتسعة وستين ميلاً مربعاً وعدد سكانها (٤٨٠,٠٠٠) أربعمائة وثمانون ألف نسمة وعاصمتها : سانت دينيس .

وكانت مستعمرة فرنسية منذ عام ١٦٦٥ وكان لها ثلاثة نواب واثنان من الأعيان في البرلمان الفرنسي . وقبل الاستعمار الفرنسي كانت رينيون مستعمرة إنكليزية وكانت جزيرة موريشيوس وجزر سيشل للفرنسيين فحصلت معركة بين الإنكليز والفرنسيين كان النصر فيها للانكليز ، وانتهت بعقد اجتماع في هذه الجزيرة بين ممثلي الدولتين كانت نتيجته أن أصبحت رينيون لفرنسا وأصبحت جزيرة موريشيوس ومجموعة جزر سيشل لبريطانيا وكان لهذا الاجتماع نتيجة أخرى إذْ صار اسم هذه الجزيرة (رينيون) التي تعنى بالفرنسية الاجتماع بدلاً من اسمها السابق (بربوا) .

وعندما قررت فرنسا التخلي عن مستعمراتها على عهد الجنرال ديغول ما عدا تلك المستعمرات التي يصوّت سكانها بأنهم يريدون البقاء داخل الاتحاد الفرنسي صوّت أهالي رينيون بالبقاء ضمن الاتحاد الفرنسي فأصبحت الجزيرة بهذا جزءاً من الأراضي الفرنسية فيما وراء البحار وزالت عنها صفة الأراضي المستعمرة .

وقد أفاد ذلك سكانها كثيراً من الناحية الاقتصادية ومن ناحية توفير العمل لأبنائها إذ هاجر أكثر من ربع عددهم إلى فرنسا نفسها وأقاموا هناك للعمل .

وطبيعة الجزيرة بركانية ، وبها بركان ثار قبل وصولنا إليها بأشهر ، ولا يزال حتى وصولنا إليها يبعث بالدخان والأبخرة الخفيفة ، وكانت ثورته قبل أن تهدأ عارمة قذف خلالها بالحمم والحجارة البركانية الذائبة التي سالت من قمة الجبل إلى ساحل البحر وأتلفت ما مرت به من مزروعات ومساكن .

أما حاصلاتها فأهمها السكر وبعده الفانليا والتوابل ، كما يزرع فيها القمح .

ثانياً : — المسلمون في جزيرة رينيـون :

دخل الإسلام إلى جزيرة رينيون مع العمال المسلمين الذين جلبهم الفرنسيون من جزائر القمر وغيرها من مستعمراتهم الإفريقية إلا أن (القمريين) كانوا الأغلبية من المسلمين الأوائل . للعمل في مزارع قصب السكر ومع الهنود الذين وفدوا من جهات القارة الهندية للتجارة .

وللمسلمين جمعية إسلامية قوية اسمها جمعية السنيين . وبالجزيرة أربعة عشر مسجداً واحدى عشرة مدرسة يدرس فيها الدين باللغة الأردية وهم بحاجة إلى مدرسين يجيدون اللغة العربية واللغة الفرنسية لأنها اللغة الشائعة الاستعمال ولأن الاستعمار صبغ الجزيرة بها فهم لا يتكلمون غير الفرنسية حتى الانكليزية يجهلونها إلا من ندر من بينهم .

والسيد يوسف رأفت رئيس جمعية السنيين وأكبر تاجر مسلم في جزيرة رينيون والمسلمون هناك يحبونه ويحترمونه لجهوده في خدمتهم ورعايتهم . وليس في الجزيرة نشاط صهيوني ولا قادياني يذكر .

ورغم قلة المسلمين في العدد فان لهم مكانة ظاهرة واضحة سواء من الناحية التجارية أو السياسية لأن كثيراً منهم من التجار النشيطين وبخاصة من كانوا منهم من أهل ولاية (كجرات) الهندية في الأصل ، وبعضهم ولدوا في جمهورية جنوب إفريقية ، وهاجروا إلى (رينيون) وأسسوا فيها المتاجر . ثم أقاموا فيها ، واكتسبوا الجنسية الفرنسية جنسية أهلها . وقد سبق الكلام على شيء من ذلك في اليوميات .

ويبلغ عدد المسلمين في (رينيون) في الوقت الحاضر خمسة عشر الفاً من

مجموع السكان البالغ أربعمائة وثمانين ألف نسمة من المسلمين ٩ آلاف من أصل هندي وستة آلاف من أصل قمري أي من جزر القمر. ولكن النشاط الإسلامي الفعال يكاد كله يكون من نصيب المسلمين من ذوي الأصل الهندي لأن نشاطهم التجاري واتصالهم الثقافي المستمر مع موطنهم الأصلي في القارة الهندية يساعدهم على ذلك إذ لم يزالوا حتى الآن يستقدمون الأئمة والمرشدين والمدرسين المسلمين من الهند يدفعون إليهم الرواتب ويوجدون لهم المساكن من جمعيتهم الإسلامية القوية.

وأكثرية المسلمين يسكنون في بلدة (سانت دنيس) العاصمة تليها في ذلك بلدة: (سانت بيير) ثم (سانت بول).

أما الديانات الأخرى فان حوالي ٨٠٪ من السكان يدينون بالنصرانية وغالبهم من الكاثوليكيين وهناك الهندوكية التي تلي النصرانية في الكثرة.

وللمسلمين مركز إسلامي نشط في جزيرة رينيون يصدر مجلة إسلامية دورية بالفرنسية كما قام بطبع عدد كبير من الكتيبات والنشرات الإسلامية وأغلبها ترجمات لكتب إسلامية صغيرة صدرت في الهند أو غيرها مثل مؤلفات الشيخ المودودي والشيخ ابي الحسن الندوي ويشرف على المجلة الشيخ أحمد سعيد إنجار رئيس المركز الإسلامية وهو هندي الجنسية متعلم في الهند.

أما الأمور الإدارية المتعلقة بالمركز فهي منوطة بالشيخ اسحاق محمود كنقات الأمين العام للمركز.

ويتبع المركز مدرسة إسلامية يديرها الشيخ إبراهيم باتل، وقد تلقى تعليمه الإسلامي في الهند، ثم سافر إلى المدينة المنورة حيث ظل بعض الوقت هناك يتعلم اللغة العربية وبعض الدروس الإسلامية في المسجد الشريف النبوي.

ولكن جميع العاملين في المركز والجمعية يجدون في رئيس الجمعية الإسلامية السنية الشيخ يوسف رأفت أو (راوات) بلغتهم الدعم المستمر، والعناية المتواصلة وهو يضرب لأخوانه المسلمين المثل الذي يحتذى في العمل الإسلامي والصلاح في النفس والعمل والمال، وفقه الله إلى المزيد من الخير.

إلى جُزر القمر

يوم الجمعة ٤ صفر ١٣٩٨هـ ١٣ يناير ١٩٧٨م

من تاناناريف إلى مروني :

كان خروجي من فندق فرنسا في تاناناريف عاصمة مدغشقر في الساعة السادسة والنصف صباحاً وكان وصولي المطار في الساعة السابعة ، وقبل الوصول إلى المطار بحوالي مائة متر رأينا في الطريق ثعباناً لونه رمادي يضرب للسواد طوله في حدود متر ونصف ولما أُجفلت منه قال الذين معي في السيارة : إنه لا يستحق ذلك الانفعال لأنه لا يؤذي لأنه غير سام .

وبهذه المناسبة أذكر أن أهالي موريشيوس قالوا إنه لا يوجد عندهم حيات سامة ولا عقارب لاسعة . وكان معي بعض الأخوان منهم ذو المرؤة والديانة ، الأخ عبد القادر سيدات الذي كانا معي إلى داخل قاعة المغادرين لأن له معرفة ببعض العاملين وقد نفعتنا هذه المعرفة فلم يفتشوني كما فعلوا بغيري علماً بأنهم يدقّقون في ذلك تدقيقاً شديداً وسرعان ما انتهينا من الاجراءات كلها وكانت معقدة متعددة المراحل .

وفي تمام الساعة الثامنة ركبنا طائرة الخطوط القمرية التي كتب عليها بالفرنسية (أير كومورس) وكان من ألطف ما فيها شعار على مؤخرتها كبير هو الهلال تتوسطه نجمة وذلك لونه أحمر والهلال شعار لكثير من البلدان الإسلامية كما هو معروف .

والطائرة من طراز د ــ س ــ فور ــ ذات المحركات المروحية الأربعة وهو طراز من الطائرات نسيناه ونسينا ركوبه وكنا نعرف منه الصغير كالداكوتا والكبير مثل د ــ س ــ ٦ .

وكنت أول شخص دعته المضيفة الأرضية للركوب فأسرعت لأحجز لنفسي كرسياً أمام النافذة حتى أستطيع أن أرى الأرض منها وكان لي ذلك إلا أنني نسيت شيئاً كنت أعرفه فكدت أركب في مقدمة الطائرة عند المحركات ولكنني تذكرت أن الطائرات المروحية تكون مؤخرتها أفضل من مقدمتها وجلست في الوسط .

ولما رأيت المضيفَين تذكرت أنني رأيتهما في فندق فرنسا هذا الصباح وكذلك الطيار كنت تعرفت عليه في الفندق وحدثني بأنه فرنسي وأنه قد عمل في البلاد العربية وبخاصة في اليمن وأنه قد رأى عدة مرات مطاراتها مثل صعدة وتعز .

أما المضيفان فهما فتى وفتاة من القمريين ملامحهما تشبه ملامح السواحليين قال لي المضيف بعد أن انطفأت إشارة ربط الحزام : السلام عليكم ، ثم بالانكليزية أتريد شاياً أم شراباً بارداً فطلبت الشاي أما الفتاة فعندما أحضرت الشاي قالت : بالعربية : تفضل .

وقد رأيت جانباً من كراسي الطائرة قد نقل من محله ووضعوا مكانه بعض البضائع والصناديق لأن الركاب ليسوا بالكثيرين فهم أربعة من الفرنسيين وخمسة من القمريين بينهم أمرأة مسلمة محتشمة قد سترت كل رأسها وبدنها ما عدا الوجه والكفين .

وفارقت الطائرة الأرض في الساعة الثامنة والنصف صباحاً وعندما بدأت في الارتفاع بدت وكأنها مشدودة إلى الأرض مما يخشى المرء معه أن تكون قد عجزت عن الصعود وتذكرت أن ذلك لكوني قد ألفت الطائرات النفاثة التي تفارق الأرض فترتفع بسرعة .

وعندما استوت الطائرة في السماء كان المنظر على الأرض واضحاً وهو

تلال خضر غير كثيفة الخضرة فيها سهول مزروعة بالزراعة الحقلية ثم استمر الطيران فأصبحنا فوق أرض جبلية حمراء تقل فيها المنازل ولكنها فيما يظهر من منظرها صالحة للزراعة إلا أن نقص وسائل الزراعة الحديثة وعدم خبرة المواطنين وقلة السكان في هذه البلاد بالنسبة إلى سعة مساحتها ، كل ذلك من أسباب عدم عمارتها .

وبعد مسيرة ما يقرب من ٤٠ دقيقة تغيرت مناظر الأرض تحتنا فأصبحنا نرى تلالاً جبلية بيضاء وما بينها من الأرض يظهر عليه عدم العمارة إلا أنني رأيت فيه نهراً يجري وعلى ضفافه عمارة غير كثيرة . ثم عادت التلال الحمراء وبعض السهول الخضراء إلى الظهور ورأينا بعض المجاري المائية التي لون مجراها أحمر إلا أنها ليست مفعمة بالماء .

هذا ومحركات الطائرة التي استمرت تلح على آذاننا بضجيجها تؤذي الآذان .

وبعد ساعة من الطيران وصلت الطائرة إلى سهول خضراء كثيفة الخضرة إلا أن خضرتها طبيعية يجري فيها نهر كبير متعدد الشعب ولم أر عليه مساكن ، والغريب أن ضفته الشمالية ذات لون أبيض وضفته الجنوبية ذات لون أحمر ثم رأيت بعض المنازل القليلة وآثار خطوط غير مسفلتة للسيارات . وبعد ذلك مباشرة ظهرت لنا مدينة عامرة وظهر لنا ساحل البحر وإذا بها مدينة ماجنقا المدينة الثانية من حيث عدد السكان في مدغشقر وتقع على الساحل الشمالي الغربي .

ثم تجاوزنا البر ومدغشقر وأخذنا نطير فوق البحر . وذلك بعد مضي ساعة وخمس دقائق من الطيران .

وبعد دخول الطائرة فوق البحر بربع ساعة أشعل القائد إشارة ربط الحزام

وظننت أننا قد قربنا من مكان سننزل فيه لأنهم لم يعلنوا علينا في الطائرة أي شيء عن الطيران أو المسافة أو الجهة التي سننزل فيها أول مرة . إلا أنني عرفت سبب ربط الحزام وهو أن الطائرة كانت مقبلة على سحاب كثيف فوق مياه المحيط وقد هبط بها الطيار حتى أصبحت تطير بين الماء والسحاب إلا أن السحاب كان كثيفاً منخفضاً فدخلنا منه في لجة كان فيها تتطاير أجزاؤه التي تلفها مراوح الطائرة فتتناثر متراقصة كالأمواج على شاطىء البحر ، أو قطع صغيرة من القطن المندوف تطيرها ريح قوية .

وبعد هنيهة خف السحاب ، وظهرت الشمس إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً إذْ عاد السحاب إلى الظهور فوق البحر كثيفاً مطبقاً أو لنقل دخلنا في مجال ذلك السحاب وقد حرص القائد على أن يبقي الطائرة تحت مستوى السحاب ما أمكنه ذلك .

فوق جزيرة مايوت :

بعد مضي ساعتين من الطيران بدت جزيرة مايوت إحدى جزر القمر إلى يسارنا ممتدة ذات جبال متصلة وإلى جهة الجنوب منها مجموعة من الجزر الصغيرة تحيط بها مياه من البحر ضحلة خضراء اللون .

ونزلت الطائرة في مدرج ضيق واحد إلا أنه جيد التعبيد يكاد يتصل بالبحر تحيط به في سهل ضيق وتقرب منه تلال جبلية خضراء تطرز حواشيها أشجار النارجيل الرشيقة القوام .

في مطار مايوت :

رأينا في المطار طائرة حربية فرنسية وبعض الجنود الفرنسيين مع عدة سيارات حربية فرنسية ، وسألت قائد الطائرة الذي ذكرت أنني سبق أن

تعرفت عليه في فندق فرنسا في تاناناريف عن مدة وقوفنا في هذا المطار؟ فأجاب : خمس وعشرون دقيقة ، فأخذت ورقة من (الترانزيت) ، وكانت بناية المطار بعيدة عن موقف الطيارة فحملت حقيبتي اليدوية وأسرعت أمشي مع طريق للسيارات غير معبد ، ولما كدت أصل إلى البناء وصلت حافلة صغيرة تقل بقية الركاب ، ولم يخبرني أحد أنه ستكون هنالك حافلة كما أنها لم تكن موجودة عند الطائرة عندما مشيت .

وكانت بناية المطار وحالتها أعجوبة العجائب من أمة متمدينة كالأمة الفرنسية أدارت هذه البلاد عشرات السنين واختار أهلها أن يبقوا تحت حكم فرنسا مخالفين لبني قومهم سكان بقية جزر القمر حسب المزاعم الفرنسية .

إن المدخل الرئيسي — واستغفر الله عن هذا الوصف — فهو المدخل الأول والأخير لا يزيد طوله عن ثلاثة أمتار ولا يبلغ عرضه ذلك أرضه ممسوحة بالاسمنت وليس فيه بلاط وجدرانه ممسوحة بمادة تشبه الجص خشنة ليست متساوية الأجزاء ، وفي هذا الممر الذي يستحي الفقير أن يكون مدخلاً لبيته بابان أحدهما كتبت عليه بالفرنسية فقط (كنترول) أي : إدارة والثاني «ترانزيت» والإدارة رأيتها من الباب ولم أدخلها لأنني (ترانزيت) كما قالوا وما رأيته منها لا ترضى أمة صغيرة فقيرة أن ينسب إليها .

أما حجرة الترانزيت فإنها سُبَّة في جبين فرنسا التي بنت مطار شارل ديجول في باريس فأبدعت ما شاء لها الإبداع وكان علامة على الذوق الفرنسي الرفيع الممزوج بالمهارة الفنية البارعة ولن أعلق على حال هذه الغرفة وإنما أصفها : طولها في عدد أمتار خمسة وعرضها حوالي أربعة أمتار أرضها كأرض المدخل ليس فيها بلاطة ، وإنما هي ممسوحة بالاسمنت مسحاً رديئاً بدليل أنه تشقق فمسحوا مسحاً ثانياً على تلك الشقوق وليس هذا هو عيبها فقط وإنما العيب أنها

تجري فيها أسراب من الذباب تمشي مشياً بين أرجل الناس ووسط انتقالهم وحركتهم .

وفي هذه الغرفة غرفة (الترانزيت) حمام واحد فيه باب لولا أنه قبيح لقلت إنه للزينة فقط لأنه لا يغلق وقد دخلت الحمام للحاجة فحاولت غلق الباب فلم يستجب فضربت به بشدة عسى أن أتمكن من إغلاقه فلم أستطع ، وذلك مما لفت أنظار الموجودين في الغرفة فأسرع شاب من أهل البلاد يعاونني على ذلك فلم نستطعه جميعنا فاقترح الشاب أن يحرس الباب بأن يقف خارجاً منه ولكنني أدرت صنبور مغسلة لليد واحدة فإذا بها ليس فيها ماء أصلاً ، وليس في هذا المرحاض ورق ولا أي شيء من أدوات التنظيف فخرجت بدون أن أستعمله .

ولم يكن في هذه الغرفة كراسٍ وانما جعلوا فيها ما كنا نسميه في نجد قبل أن تصلنا المدنية الحديثة (حبس) بكسر الحاء وهو كرسي من البناء ملاصق للجدار ليس له أرجل بطبيعة الحال . ويظهر من حاله أنه ليس نظيفاً أيضاً فخرجت أطلب النجاة من هذه الغرفة إلى الممر الضيق فرأيت فيه ضابطاً فرنسياً يحادث جماعة من المواطنين واقفين وبينهم فتاة لم يكتب لها نصيب من الجمال وهو يضحك ويمزح معهم وبين آونة وأخرى يحك ساقيه بيديه لأن لباسه العسكري قصير والحشرات كثيرة في الجو تلهب الجلود وقد أحسست بها تأكل كفّي أكلاً ، ولا أدري ما هي إلا أن تكون حشرات صغيرة جداً تأتي أحياناً في المملكة إبان فصل الربيع إذا كان الهواء رطباً ساكناً .

وأدرت بصري في الخضرة التي حول المطار فإذا بها من الحشائش وليست من الزرع .

وقد تجمهر من ناحية أرض المطار بجانب البناية وخلف حاجز حديدي جمع من المودعين وبينهم عدد من النسوة وأخذوا يرفعون أصواتهم بالتوديع ،

وتأملت سحنهم وألوانهم فإذا بهم يمكن أن يقال فيهم : إن ألوانهم كألوان الصوماليين ، وتقاطيعهم بين السواحليين والصوماليين أي : أن ألوانهم شديدة السمرة أو سوداء خفيفة السواد ، هذا ما يتبادر للذهن من أول نظرة وهي في الغالب تكون صادقة لا تخلف . أما أذواقهم في اللباس فهي قريبة من الصوماليين ويظهر هذا واضحاً في ألبسة النساء اللآئي يحملن أردية خفيفة ذات ألوان زرقاء وسوداء فوق ثيابهن ، تماماً كما تحملها جمهرة النساء في الصومال .

هذا وقد صعد إلى الطائرة جمع من الركاب كلهم من المواطنين إلا اثنين من الأوروبيين ، وامتلأت جميع المقاعد الخالية في الطائرة .

إلى جزيـرة هنـزوان :

أقلعت الطائرة من هذا المطار الذي هو ممر وحيد في الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق . وعندما ارتفعت قليلاً بدت لنا بيوت قروية متفرقة بين أشجار من النارجيل تبدو أطرافها صفراء على غير العادة ثم أخذنا نطير فوق ساحل على يسارنا جبال خضر تكسو أشجار النارجيل وديانها وأسافلها وتكسو أشجار الغابات الأخرى أعاليها . وقد رأينا حول الجزيرة الرئيسية جزراً صغيرة جداً غير مأهولة ، ثم غابت اليابسة .

وبعد مضي ثلث ساعة رأينا على يسارنا جزيرة هنزوان ، وكانت مما يلي جهتنا وهي الجهة الشرقية ذات جبال شاهقة قد اكتظت وديانها المنخفضة بأشجار النارجيل وكذلك سفوحها ورأينا منازل قليلة في السفح .

مطـار «وان» في هنـزوان :

المطار ممر واحد في شبه وادٍ داخل في الجبال لا تستطيع الطائرة أن تنزل فيه

أو تقلع إلا من الجهة الشرقية التي هي جهة البحر بسبب شدة ارتفاع الجبال ارتفاعاً مباشراً .

ورأيت لأول مرة منذ غادرت مطار جدة الدولي عبارة بالعربية مكتوبة على مطار فقد كتبوا على هذا المطار الصغير المنعزل عن العالم العربي عزلتين أولاهما تلك الجبال الشاهقة الواقفة وقوفاً خلفه تفصله عن بقية أجزاء جزيرة هنزوان التي يقع فيها وثانيتهما : عزلة جزر القمر في موقعها هذا في وسط البحر . والعبارة هي : مطار وان .

بقي أن تعرف أن (وان) هو اسم للقرية التي يقع فيها المطار ، وان (هنزوان) هو اسم الجزيرة التي تقع فيها القرية .

وبعد ثلاثين دقيقة من الطيران نزلنا في هذا المطار الصغير في مساحته إلى قاعة الترانزيت ونحن نستظل بعلم دولة أخرى غير تلك التي كان مطار مايوت يستظل بظله فذلك يستظل بعلم فرنسا وأما هذه فهي تحت حكم دولة جزر القمر الفتية ، وبالفعل كان علمها الوطني يرفرف على بناية المطار بلونيه الأحمر والأسود .

وبنايته حديثة واسعة نسبياً منتظمة ، وفيها لركاب الترانزيت دورة مياه وهي ليست بالغة النظافة ولكن بابها يغلق من الداخل وفي داخلها إناء يتوضأ فيه المرء وليس كما كان عليه الحال في مطار (مايوت) .

وكنت عند النزول من الطائرة قد لاحظت أن سحاباً منخفضاً كان يظلل أعالي الجبل ويقبل علينا وسرعان ما بدأ المطر يتساقط ولكنه أقلع سريعاً كما بدأ سريعاً .

ومن وراء حاجز من شباك الحديد رأينا الأهالي وأكثرهم عليه لباس

السواحليين قميص عربي وفوق الرأس قلنسوة (طاقية) وإذا رآهم المرء على البعد لا يشك في أنه في ممباسا أوماليندي على الساحل الكيني .

كانت مدة الوقوف في هذا المطار عشرين دقيقة قامت الطائرة بعدها مسرعة تواصل الطيران ميممة وجهها شطر البحر الذي لا تستطيع أن تولي وجهها غيره في هذا المطار وارتفعت الطائرة وبعُدنا عن الجزيرة ولم نشاهد منها إلا جهتها الشرقية بسبب ارتفاع الجبال التي حجبت عنا الجهة الغربية .

إلى موهيلـي :

الساعة هي الثانية عشرة والنصف ظهراً عندما فارقنا جزيرة (هنزوان) قاصدين جزيرة (موهيلي) وكان الطيران فوق جبال تكسو ظهورها غير العالية وسفوحها والوديان الواقعة فيها إلا الأجزاء العالية منها أشجار النارجيل . ورأيت بعض الجزر التي شواطئها غير عميقة .

وكنت أفكر في هذه اللحظة في صعوبة المواصلات بين أجزاء هذه الدولة التي تتكون من عدة جزر وذكرت كيف تم حل هذه المشكلة في جزر البحر الكاريبي المشابهة بطريقة الطائرات المائية ولكن المشكل في الأمر أنه لا يوجد في هذه البلاد وأمثالها الرجال الفنيون الاكفاء الذين يمكن أن يديروا هذه الأعمال بل أن يفكروا التفكير السليم القابل للتنفيذ فيها ؛ إضافة إلى عدم وجود المناخ الحر الخالي من التعقيدات والعقبات الاقتصادية .

وبعد (١٠) دقائق بدت أمامنا على البعد جزيرة (موهيلي) وكان على يسارنا فوق البحر سحابة كثيفة تجود بمائها على البحر أو لنقل إنها ترجع إليه ما أخذته منه . وبعد خمس دقائق أخرى كنا نطير فوق جبال الجزيرة الخضراء ورأينا أشجار النارجيل فيها أكثر من غيرها .

في بنـدر سـلام :

هبطت الطائرة في مطار جزيرة (موهيلي) بعد ١٧ دقيقة من الطيران ، ووجدنا المطار مكتوباً عليه بالعربية فقط (مطار فمبن : بندر سلام) وبنايته صغيرة ، وقد رأينا الأهالي أكثرهم باللباس السواحلي الأصيل ، وكان الجو فيها أكثر رطوبة وحراً مما قبلها ولعلَّ مرجع ذلك إلى أننا قد صرنا في الظهيرة . ولكنه على كل حال يذكر المرء بالجوفي بعض البلاد الاستوائية البحرية .

ولم تطل الإقامة في مطار هذه الجزيرة بل كانت كلها عشر دقائق ، واستأنفت الطيران ، وكانت وجهتها هذه المرة جزيرة مروني عاصمة دولة جزر القمر وأكبر جزيرة في المجموعة ، والساعة قد بلغت عند مغادرتنا لمطار (بندر سلام) الواحدة وخمس دقائق . وبعد نصف ساعة من الطيران فوق البحر كنا نحلق فوق مطار مروني وكان أول ما رأيته ونحن نقترب من الأرض شاطىء البحر ذا الصخور البركانية لأن النافذة التي كنت أنظر منها وهي اليسرى لا ترى منها جبال الجزيرة .

مطـار مرونـي :

أسرع أحد العمال بالسلم الخشبي يدفعه أمامه لينزل عليه الركاب وأنا أقرأ الكتابة على المطار وإذا بها بالعربية (مطار مرون ــ اكو) وبالفرنسية (مروني) وهناك لافتة من القماش مكتوب عليها بالعربية (شعب جزر القمر المسلم يرحب بالأخوة العرب) وعرفت بعد ذلك أن هذه اللافتة كتبت لمناسبة زيارة قام بها سفراء الدول العربية المعتمدون في دار السلام إلى هذه الجزر بناء على دعوة من رئيسها .

دخلت إلى المطار وأنا لا أحمل تأشيرة دخول إلى جزر القمر لعدم وجود ممثل لها في بلادنا أو البلاد التي مررت بها إلا أن الأمين العام للندوة العالمية

للشباب الإسلامي في الرياض تربطه صداقة بالسيد عبدالله محمد الرئيس السابق للحكومة القمرية ووزير الدولة للشؤون الداخلية فيها الآن ، فأبرق إليه برقية بأن يضع تأشيرة دخول جاهزة في المطار لي ، وقال إنه — يقصدني — سيبرق لكم بموعد وصوله .

لكنني عندما وصلت إلى ضابط الجوازات فيه سألني : أمعك تأشيرة ؟ فقلت : لا ، فقال : كم ستقيم ؟ قلت : يومان ، فأسرع في التأشيرة ولم يكتف بذلك حتى قام معي إلى الجمرك ليساعدني إن احتجت إلى مساعدة ، وكان أول منْ لقيته بعد الجوازات ضابط الجمرك وقد أخذني إلى غرفة منفردة وأغلق الباب وكان فيما يظهر يعرف كلمات من العربية ففتش حقيبة يدي وكان تفتيشه على الأوراق وحرصه على الاطلاع على الرسائل التي فيها أكثر من حرصه على معرفة غيرها كالنقود مع العلم بأنه والحق يقال لم يفتح رسالة مختومة حتى التي في ظروف مفتوحة لم يخرجها والعلب الصغيرة لم يفتحها ثم أطلق سراحي .

فذهبت مع ضابط الجوازات في انتظار حقيبتي الكبيرة ، ولكنها أبطأت وقد عرفت السبب إذْ نظرت إلى الطائرة فوجدتهم يحملون الحقائب والأمتعة الواردة فيها على سيارة (قلّاب) وليس ذلك هو الذي عاقها وإنما الذي عاقها أن محرك السيارة رفض الدوران فأخذوا يدفعونها من الخلف من تحت الطائرة حتى دار المحرك ثم أقبلت فوقفت غير بعيد من القاعة ثم أخذ العمال ينقلون على أكتافهم الأمتعة والحقائب إلى المنصة المعدة لذلك ومن بينها زنابيل فيها الخضار من خس أخضر وغيره من مدغشقر ولا أدري لمَ يحضرونه من هذه المسافة البعيدة مع أن بلادهم خضراء ويمكنهم أن يزرعوه أو يزرعوا غيره إلا أن بعض الإخوان الذين هنا قالوا لي إن الأرض بركانية لا تصلح لذلك ولكن هذا غير صحيح لأنها تنبت أنواعاً أخرى من النبات ، وليست كلها صخرية

خالية من التراب .

كل هذا وضابط الجوازات — جزاه الله خيراً — معي فنادى صاحبنا ضابط الجمرك وكلمه باللغة القمرية بما فهمت منه أنه يريد ألا يفتح حقيبتي ولكنه أصر على فتحها وتحسس بيده كل ما فيها ثم رد غطاءها .

وكان الضابط قد أمر أحد العاملين في المطار أن يجهز لي سيارة أجرة إلى فندق أخذت اسمه من أحد رفقاء الطائرة ، وخرج معي حتى أركبني في سيارة أجرة مع ثلاثة من الركاب وأوصى السائق بأن يوصلني إلى فندق (سليكانت) ثم ودعني بحفاوة وكان الحديث مع الضابط طول الوقت بعربية مبسطة .

وسارت هذه السيارة وكل ما فيها يحدث صوتاً يشارك صوت محركها الذي تنقصه المرونة في الضجة حتى وقفنا على محطة للمحروقات ، وكان أمامنا سيارة تشتري وقوداً إلا أنها عندما أرادها صاحبها أن تمشي رفض محركها أن يدور فاجتمعوا على مؤخرتها حتى تحركت ، وبعدها عند الفندق رأيت سيارة أخرى فعلت كذلك . فعرفت عندئذ أن «القلّاب» الذي حمل الأمتعة من الطائرة إلى بناية المطار ورفض أن يتحرك إلا بعد دفعه إلى الأمام لم يأت ببدع من الأمر .

وفي الطريق بين المطار والفندق لاحظت الناس والأماكن التي على الشاطىء لأن المطار والفندق كليهما واقعان على شاطىء البحر فخيل إليّ أن هناك تشابهاً واضحاً بين هذه البلاد وبين مقديشو عاصمة الصومال إلا أن التربة في مقديشو فيما عدا الشاطىء رملية حمراء جميلة وهذه سوداء بركانية .

في فنـدق سليكانت :

وصلت فندق سليكانت ولم أكن أحمل نقوداً قمرية فأعطيت السائق نقوداً

مالاقاشية فلم يقبلها وأعطيته فرنسية معدنية فلم يقبلها ، وهو والذين معه لا يعرفون العربية ، هذا مع أن أجرته قليلة لأن المسافة بينهما لا تزيد على أربعة كيلات ، وكان معي في السيارة ثلاثة آخرون وأسرع خادم في الفندق يحمل حقيبتي الكبيرة فقلت له اصبر حتى أنتهي من السائق ولكنه لم يعرف كلامي فأشرت إليهم أن يقفوا ثم دخلت مطعم الفندق ولكني لم أجد مسؤلاً فيه يعرف الانكليزية ولا العربية ، فرأيت شخصين من الأوروبيين يشربان فقلت : أتعرفان الانكليزية ؟ فأجابا : قليلاً ، فشرحت لهما القصة فأشارا إلى أحد الخدم بأن يذهب معي إلى (المدام) فإذا بها أمرأة فرنسية في حدود الخمسين من العمر قد ذهبت الشمس الاستوائية بنضارة وجهها ولكنها لم تذهب بشيء من تهذيبها ولا أدبها فقلت لها : أتتكلمين الانكليزية ؟ فقالت : لا . قلت لها (تشامبر) وهي بالفرنسية تعني غرفة فقالت : وي ، وي ، فقلت في نفسي وهذه أول (وي) سارة في هذه الرحلة ووي : معناها (نعم) .

فأشرت إليها أن تتبعني إلى الرجلين الذين يعرفان شيئاً من الانكليزية ثم طلبت منهما أن يفهماها بأن تعطي السائق أجرته ، وتقيدها على الحساب فأسرعت بإعطائه أربعمائة فرنك قمري ، أي : حوالي ستة ريالات وهو لا يستحق ذلك ظناً منها أنه حملني وحدي ، وشكرتها على تخليصي من هذا المأزق إذ كان السائق يلح في طلب أجره ليذهب إلى حال سبيله ، وجميع من في المطعم يتفرجون برؤيتي أذهب وأجيء ، وكل من لم يفهم كلامي منهم إما أن يتحيّر وإما أن يضحك ، وأنا في حاجة إلى الراحة بعد هذه الرحلة الطويلة المتعبة .

وقال لي الأوروبيان : هل تريد أن تأكل ؟ قلت : طبعاً فقالا : عليك أن تخبر (المدام) بذلك لأن موعد تقديم الطعام قد قارب على الانتهاء ، ثم أخبراها بذلك .

فقادتني إلى مائدة في المطعم ، وأمرت أحد الخدم بالقيام على خدمتي وكل ذلك وهي لم تحمل حقيبتي إلى الغرفة ولم تسألني عن جنسيتي أو جوازي أي : انني لم أكن اعتبر نزيلاً في الفندق بعد .

وبدأ الخادم في تقديم الطعام ولم يكن يعرف العربية وأنا لا أعرف الفرنسية فكان الكلام بالإشارة إلا عندما أحضر اللحم فسألته ما هو ؟ فقال (موتن) وهو لحم الغنم بالفرنسية .

وكان أول ما أحضر طبقاً كبيراً فيه السلطة وهو وحده يكاد يشبع المرء لوفرته ، وذقته فتعجبت منه . وتذكرت أنني قد ذقته لأول مرة وهي آخر مرة في باريس في دعوة من صديق مغربي يعيش هناك اسمه (احمد المنصوري) قالت زوجته وهي من أصل إسباني مولودة في جزر الكناريا الاسبانية في المحيط الأطلسي : إنه جمار النخيل .

أما هنا في جزر القمر هذه النائية عن بلاد النخيل فلا شك في أنه من جمّار نخيل النارجيل لأنها تملأ أرضها .

وتذكرت أنه نظراً لشح الخضروات الطازجة مثل الخس في هذه البلاد فانهم يصنعون بدلاً منها سلطة لذيذة مفيدة مما هو متوفر لديهم ، وقد أتيت على ما في الطبق كله ، وكان من ألذّ ما ذقت . وقدّموا بعده الخضار المطبوخ وهو من الجزر والبطاطس وشيء يشبه القرع ثم لحم الغنم إلى جانب الخبز والماء المعدني ثم الحلوى المركبة من رقائق الخبز المطعمة بالسكر وضعوا عليها وفيما بينها بطريقة عجيبة شرائح من ثمار العمبة (المانجو) اللذيذة . وكان مسك الختام هو القهوة .

وكل ذلك كان نظيفاً غاية النظافة وبترتيب تام على حسب نظام الموائد الرسمية ، وكنت بحاجة إليه لأنهم في الطائرة لم يقدموا لنا طوال الرحلة أي

شيء إلا قدحاً من الشاي في أول السفرة .

وجاء الخادم بالقائمة للتوقيع عليها وإذا بها ١٨٠٠ فرنك قمري أي ما يساوي سبعة دولارات أمريكية ونصفاً أو : ثمانية وعشرين ريالاً سعودياً فوقعت عليها ، ولكن ماذا ينفعهم التوقيع الآن وأنا لم أسكن بالفعل ولم يعرفوا توقيعي ولا اسمي ولا بلدي ، وأومأت لهذه (المدام) الفرنسية المهذبة بالشكر والتقدير وطلبت من الخادم (التشامبر) أي الغرفة فحمل حقائبي ، وقادني إليها .

إنها غرفة من غرف متناثرة في وسط حديقة الفندق أو قل إن الفندق كله ما عدا حمام السباحة والمطعم واقع في أحضان الحديقة .

ودخلتها فإذا بها غرفة تضاهي غرف فنادق الدرجة الأولى واسعة فيها الحمام الخاص المزود بالمياه الحارة مع أن الجو حار ، ومكيف الهواء والأنوار المطلوبة .

وبعد أن استرحت قليلاً طرق الخادم الباب وأتى من عند (المدام) كما قال ببطاقة خضراء صغيرة هي التي يسجل فيها النزلاء أسماءهم فكتبت البيانات فيها ولكن لم يحضر أحد لأخذها .

ولم أسترح في الفندق بل حاولت أن أتصل بإحدى الشخصيات التي معي عناوينها أو شركة الطيران لمعرفة موعد السفر ولكن اليوم الجمعة هو يوم العطلة الرسمية في جزر القمر ، لذلك لم أستطع الاتصال بأحد .

ضيافـة الدولـة :

لم أبرق لأحد أن يستقبلني في المطار جرياً على عادتي التي أحببتها في كل الأوقات لأنها تريحني من تأنيب الضمير من أن أكون قد شغلت أحداً أو تسببت في إزعاجه كأن يكون لديه ما يكره معه الخروج ولكنه يخرج مضطراً

وهي أيضاً تريحني من تحمل معروف ومنة ، أنا في غنى عنهما وهي إلى ذلك وهذا أهم من سابقيه تتيح لي أن أختلط بسائر الناس وأطلع على تصرفات الموظفين وغيرهم من دون تكلف ولا مصانعة .

ومع ذلك كانت رئاسة الندوة العالمية للشباب الإسلامي قد أبرقت للشيخ عبدالله محمد وزير الدولة في وزارة الداخلية بقرب وصولي كما أبرقت رابطة العالم الإسلامي إلى رئيس الدولة (علي صالح) بذلك . فكان أن أذاع ذلك في الإذاعة ، وكانت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة قد أبرقت أيضاً لممثلها في منطقة المحيط الهندي الشيخ عبد الوهاب الدوكري وهو سفير سابق لبلاده (مالي) في عدة بلدان وهو متعاقد مع الرابطة ويحمل جواز سفر سياسياً أو (دبلوماسي) كما يعبر به العامة من المتعلمين أبرقت إليه الرابطة أن يسافر إلى جزر القمر ليكون في استقبالي وليرافقني طيلة المدة .

ونظراً إلى أن البلاد صغيرة فقد علما بوصولي بعد ذلك بنحو ساعتين وحضرا إليّ في الفندق ، وقالا إنهما قد خرجا عدة مرات ولاماني على عدم الإبراق بوصولي وكيف آتي وحدي ولا يكون في استقبالي أحد وأركب سيارة أجرة فذكرت بذلك ما فعله إخواني في موريشيوس وكذلك المسؤولون في حكومة تلك البلاد إذ كرروا القول عدة مرات بأن ذلك لا ينبغي فكنت أقول لهم : يا قوم أنا على لساني شيء من اللغة الإنكليزية ، وفي جيبي شيء من النقود العالمية ، وفي نفسي شعور بأن الله تعالى معي فما الذي يجعلني أطلب من غيري أن يخرج إلى المطار فيقابلني ؟

هذا وبعد قليل حضر إليَّ في الفندق السيد عبد الوهاب دوسار الأمين العام للجنة المركزية وهذه اللجنة هي بمثابة مجلس الوزراء لأنها هي التي تدير شؤون البلاد ، أما الوزارات فلا يوجد فيها إلا وزارتان إحداهما وزارة الداخلية

والثانية وزارة الخارجية ومعه مدير المراسم في رئاسة الدولة السيد أمباي أحمد وتلطفا بأن قالا : إننا نرجو المعذرة على كوننا لم نكن في استقبالك لأننا لم نعلم بموعد الوصول فشكرتهما على ذلك وبأنني أنا الذي تعمدت عدم الإبراق لأنني أشعر أنني في جزر القمر كما أكون في بلادي فأنني لا أطلب من أحد أن يستقبلني إذا قدمت على المملكة العربية السعودية . فقالا : إن الإذاعة قد أذاعت خبر وصولك ، فشكرتهما ، وقلت : هذا لا داعي له وقلت في نفسي : أية مصلحة لي أو للمسلمين في هذه البلاد أن يذاع خبر وصولي في الإذاعة ، وأنا لم أقدم إلى هذه الجزر في زيارة رسمية تتطلب أن يعرف الجماهير بوصولي ؟

ثم قالا : إن رئيس الدولة (**علي صالح**) غائب في إحدى الجزر وقد أخبرناه بوصولك فأمر أن تكون على ضيافة الدولة . وطلب إخبارك بأنه سيقدم غداً حتى يجتمع بك .

فقلت لهما : إنني الآن في هذا الفندق ، وأرجو إعفائي من الضيافة ، فقالا هذا لا بد منه ، فقلت : إذاً يكون ذلك غداً ، فقالا : نعم ، ولكن لا تدفع للفندق شيئاً فأنت فيه ضيف على الحكومة فقلت لهما : شكراً جزيلاً وأرجو إبلاغ شكري لفخامة الرئيس .

يوم السبت : ٥ صفر ١٣٩٨هـ ١٤ يناير ١٩٧٨م .

أول صباح قمري :

صحوت اليوم مبكراً على صباح هادىء لا تسمع فيه حساً إلا زقزقة خفيفة من طيور بعيدة وأزحت ستارة القماش عن النافذة التي تطل بعد الحديقة على مياه البحر الزرقاء الساهمة في هذا الفندق البديع ، وكأنني وحدي فيه إذ

غرفتي ليس لها جيران .

وكنت قد أخذت قسطاً كافياً من النوم بعد يوم كنت فيه كثير التنقل .

وكان أول القادمين رئيس المراسيم ومعه بعض الأشخاص والمهندس عبد الرحمن السعد وهو شاب عراقي تعاقدت معه الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض وأرسلته للعمل في جزر القمر بغية المساعدة على نشر اللغة العربية مع القيام بعمله الأساسي .

ونقلوني إلى قصر الضيافة وهو قصر أوروبي الطراز ، حديث البناء بناه أحد الفرنسيين ثم اشتراه أحد الوجهاء القمريين وأخيراً تسلمته الدولة ، وجعلوه مقراً للضيوف الأجانب وفيه كل ما يحتاجه المرء ، والخدمة فيه أعلى وأكمل من فنادق الدرجة الأولى ، وغرفه مكيفة الهواء ، وفيه شرفة للجلوس في الطابق الأول تطل على البحر من جهة الغرب ليس بينها وبين الشاطىء إلا شارع ضيق ، وشريط من الأرض التي تكسوها الحشائش وترتفع فيها أشجار النارجيل ولا يزيد عرضها عن عشرين متراً ، ومن الجهة الشرقية المقابلة يطل على هذا القصر جبل أخضر عالٍ ، بحيث يتفرق السحاب المنخفض عن قممه .

الحبس الأخضر :

سألت عن الطيران إلى دار السلام الذي كنت قد عرفت من قبل أنه موجود ، فقالوا : إنه موجود فأخذ أحد الأخوان تذكرتي ولكنه عاد قائلاً إنه لا توجد رحلة يوم الاثنين إلى دار السلام ولا غيرها . ولم أصبر في القصر فخرجت مع الأخوين الشيخ عبد الوهاب الدكوري والأستاذ عبد الرحمن السعد إلى مكتب شركة الطيران القمرية أسأل بنفسي عن ذلك فأخبرتنا الموظفة أنه لا يوجد أي طيران يوم الاثنين فقلت : ليكن إلى أيّ مكان غير دار السلام : فقالت : ولا أي مكان آخر ، فقلت : وأول طائرة تغادر الجزيرة

متى ؟ فأجابت : إن ذلك يوم الأربعاء وإنها إلى (ممباسا) في كينيا . فطلبت الحجز لي عليها ، مع الحجز من ممباسا إلى نيروبي ومن نيروبي إلى جدة يوم الخميس الذي يليه .

وهكذا عدت إلى قصر الضيافة آسفاً إذْ كيف أقضي زيادة يومين ؟ والبلاد جزيرة صغيرة حتى الجزر الأخرى يفصل بينها البحر .

وليست هي المرة الأولى في هذه السفرة التي يتغير فيها خط السير وتأكد في ذهني ما كنت قد نسيته في ابتدائها من أن السفر إلى البلاد المتخلفة إدارياً لا ينبغي أن يجزم المرء له بمدة محدودة وإنما يجعل لذلك أياماً عدة يتفرغ فيها تكون بمثابة المدة الاحتياطية اذ كثيراً ما يحلو للمسؤلين عن الطيران أن يلغوا رحلة أو يؤخروها دون مبرر ، أو أن تعرض عوارض لطائراتهم تجبرهم على ذلك . إضافة إلى أن موظفيهم لا يخبرون بالصحيح في بعض الأحيان إما لكونهم لا يدركونه لكسلهم وتهاونهم عن البحث عنه ، وإما لتهاونهم في الإخبار بغير الواقع أو لأهمالهم للواجب كله ، ويكون سواء عندهم أأخبروك أم لم يفعلوا فما من ضمير لديهم ينهاهم عن ذلك ، وليس من مسؤول فوقهم يحاسبهم فيعاقبهم على تقصيرهم .

على أن نفسي قالت لي : لمَ الجزع وأنت الآن ضيف عزيز في هذا القصر البديع في غرف مكيفة ، من مكان جميل تتوفر فيه جميع أسباب الراحة ، من جزيرة خضراء وادعة ووسط قوم يحبونك كما يحبون أنفسهم ، ويخدمونك أكثر مما يخدمون أنفسهم . ولديك وقت تستطيع أن تكتب خلاله ما يلزم أن تكتبه عن نتائج رحلتك من تقارير ربما لا نستطيع أن تجد بسهولة الوقت الكافي لكتابتها في بلادك وفي زحمة عملك ، — وأنت — بعد ذلك — إذا

لم يكن الأمر كذلك قد حصلت على إجازة إجبارية فلتجم فكرك ، ولترح جسمك ، وإن لنفسك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً .

فقلت : نعم إن هذا لصحيح ، وإنه ليس بإمكاني أن أقول غيره إذْ قولي غير ذلك لن يفتح لي باباً إلى السفر ولن يهيء لي طريقاً إلى العودة السريعة .

وارتحت إلى هذا الخاطر لولا أنه عاودني شعور بأنني مجبر على البقاء وقتاً أكثر مما أريده ، ومهدر زمناً لا أرغب في إهداره فتكدرت وتألمت ولكنني ذكرت الذين كانوا ينفون إلى الجزر الصغيرة ، أو يحبسون في الجزر النائية ، فهم مع الحبس في عزلة ، وهم مع العزلة في عقاب ، فهم ينتظرون العقاب أكثر مما ينتظرون الفرج ، وإذا أُطلق سراحهم . أو أمن خوفهم عدّوا ذلك نعمة من النعم .

فحمدت الله وشكرته ، ثم قلت لنفسي : ما لي ولضرب الأمثال بالنفي والاعتقال ؟ ولماذا لا أضربه بالمسافرين الأوائل الذين كان بعضهم ينتظر أسابيع وأشهراً قبل أن تصل سفينة تقله ، ثم إذا وصلت تلك السفينة الشراعية قد تظل أياماً وأسابيع تنتظر أن تهب ريح ملائمة لوجهتها . ولم يوقظني من خواطري الا صوت سيارة تدخل من باب قصر الضيافة وتقف في الحديقة ، وصوت خطوات على السلم تصعد إلى الطابق الأول الذي أسكن فيه .

فخرجت إليه فإذا به الأستاذ (امباي أحمد) مدير المراسيم في رئاسة الدولة وإذا به قد أحضر برنامج إقامتي في هذه البلاد وإذا به برنامج خفيف الظل ، لطيف الترتيب يشتمل على أشياء مفيدة ، وعلى أخرى مسلية ، ويشتمل من بين ما يشتمل عليه مقابلة لرئيس الدولة بناء على رغبة منه .

فارتاحت نفسي وقلت لأسجل وقائع هذا البرنامج كما ستكون إن شاء الله تعالى .

وهذا المساء كيف مضى ؟

ومضى هذا المساء ، وبعده مثله العِشاء ، في أكل وشرب واسترخاء ، أعقب إخواننا القمريون الغداء بالعشاء ، وبينهما من القهوة والشاي ما كنا نشاء .

ولم نبرح المكان ، وإنما حضر إلينا بعض الإخوان ، وكان الحديث يدور حول شئون هذه الجزر الخضراء ، وكيف تستغل تربتها العذراء ، وكيف يواجهون مشكلاتهم الكبرى ، وفي كلامهم عتب على بعض الأخوة العرب ، بل كان فيه العجب منهم كل العجب ، إذ كانوا لمعونتهم منتظرين وكانوا يعرفون أنهم على تلك المعونة من القادرين . إلا أننا عرفنا لمشكلاتهم أسباباً وأسباباً وأفهمناهم أن للأمور أبواباً وأبواباً ، وأنه لا بد لمن يطرق تلك الأبواب من أن يسمع الجواب ، أما من ينادي الناس من وراء حُجراتهم ، فانه لن يطمع في الحصول على إجاباتهم ، على أن الأمر بالنسبة إلينا الآن ليس من السهولة بمكان أن نبتَّ فيه برأي ، أو أن نحكم بشيء ، حتى نستكمل سماع ما يريده إخواننا القمريون ثم نزن ذلك بما يفترض أن الآخرين سيقولون .

يوم الاحد : ٦ صفر ١٣٩٨هـ ١٥ يناير ١٩٧٨م .

إلى أمفـوني :

امْفوني بلدة متوسطة العدد بالنسبة إلى سكان هذه الجزيرة الذين تكون مدنهم وقراهم غير مزدحمة وهي واقعة في الجبل الرئيسي المطل على مروني عاصمة جزر القمر .

والقصد من زيارتها ليس الفرجة بذلك فذلك يمكن أن يحدث دون برنامج ولكن المقصود هو زيارة (مدرسة النور الإسلامية) فيها وتفقدها .

وفي الساعة العاشرة برحنا قصر الضيافة في (مروني) في ثلاث سيارات مع أنه يكفينا واحدة ولكن إخواننا في المراسم أرادوا إكرامنا بكثرة المرافقين . وبدأنا الصعود إلى الجبل ابتداء من ضاحية (مروني) العاصمة أو قل ابتداء من العاصمة نفسها لأنها صغيرة لا يجد المرء فرقاً في المسافة بين قلبها وضواحيها ، ولأن الجبل نفسه يبدأ منها مباشرة في الصعود حتى يصل إلى السحاب .

وكما كان صعود الجبل مباشرة كانت الأشجار الكبيرة الكثيفة قد بدأت أيضاً مباشرة من عند العاصمة في التكاثف .

وكان السير في طريق جبلي جيد التعبيد إلا أنه ضيق تكاد السيارتان المارتان تصطدمان إذا التقتا فيه . أما الأشجار فهي الأشجار النافعة المفيدة من النارجيل والعمبة (المانجو) وأشجار العطور التي اشتهرت بها هذه الجزر حتى سماها بعض الفرنسيين جزر العطور ويسمونها هنا (إيلنج لانج) .

وبعد أن سرنا حوالي ٤ كيلات رأينا أشجاراً أخرى هي أشجار القرنفل ، ثم نبات الفلفل المتسلق على الأشجار الأخرى ، إلى جانب بعض أشجار القهوة التي بدت نضرة خضراء ، ربما كان لزراعتها مستقبل باهر في هذه البلاد .

وكلما علونا في الجبل زادت كثافة الأشجار ، وأصبحت كلها من الأشجار النافعة المفيدة ما عدا الموز فانه موجود من السفح حتى القرية ، وهو عندهم وافر ويتخذون منه غذاء وفاكهة .

وقد كدت أن أسميه جبل القمر أخذاً من واقعه ولكنني تذكرت أنه على العكس من جبال القمر التي اكتشفها الإنسان ذلك بأن هذا الجبل كله دون استثناء أخضر كثيف الخضرة ، أما جبال القمر الذي في السماء فانها جرداء جدباء ، إذاً لا يصح أن نسميه بجبل القمر .

وبعد مضي حوالي ٧ كيلومترات من السير وصلنا مشارف بلدة (امفوني) وكان أول ما رأيناه هو منظر الأهالي وقد خرجوا كلهم واصطفوا صفوفاً الرجال قد أخذوا كامل زينهم ، والنساء كذلك وزينة الرجال في اللباس في هذه البلاد هي الثياب العربية فلا تجد شخصاً منهم إلا رأيت عليه لباساً عربياً وهذا كان لباسهم القديم ، ولكن بعضهم الآن قد تخلى عنه إلا في صلاة الجمعة أو حضور الاجتماعات الدينية . وهو إما أن يكون لباساً عربياً كاملاً مشتملاً على القميص الطويل والطاقية المنقوشة وحدهما أو يكون معهما جبة طويلة سوداء أو صدرياً غالباً ما يكون أصفر مزيناً بخطوط سوداء ، أما الرأس فان على كثير منهم بل أكثرهم الكوفيات (الغتر) التي نستعملها في المملكة على الشكل الذي نلبسها به أو تكون على شكل عمامة مطوية على الرأس ، وبعضهم يضع على كتفيه شالاً أخضر أو أبيض مزيناً بخيوط سوداء وصفراء كما كان يفعل أهالي مكة وجدة قبل سنين طويلة ، وكما يفعل بعض أهالي جازان في المملكة وبعض أهالي اليمن حتى الآن .

أما الطاقية فإنها عجب من العجب إذْ سبق لي أن رأيت أمثال تلك الطواقي المنقوشة المزخرفة في كينيا ويوغندا والصومال ولكن هذه فيها من النقش ما في تلك وزيادة على ذلك كتابة عربية بالخيوط الملونة متقنة فمثلاً (الطاقية) التي تزين رأس مدير مدرسة النور الشيخ حسن بن علي مكتوب عليها الآية الكريمة (حسبنا الله ونعم الوكيل) وهكذا .

عندما وصلنا إلى الأهالي الواقفين لم أكن أعرف أنهم بهذه الكثرة فسلمت على أحدهم ثم الذي يليه وإذا بالعدد من الصفوف المتصلة يزيد ويزيـد ولا يمكنني شعوري بالإخوة الإسلامية من أن أقطع مصافحتهم ، فكان أن سلمت عليهم وقد بلغ بأحدهم التأثر أن صاح بأعلى صوته وأخذ يقفز كما يقفز من يرقص على إيقاعٍ موسيقي عالي النغمات إلا أن مرافقينا بادروه فأمسكوا به

وأخذوا يتكلمون معه باللغة القمرية وسرت في طريقي لا أدري بعد ذلك ما كان من أمره .

أما النساء فكن واقفات بأدب واحتشام وقد لبسن لباسهن الوطني الساتر الذي غالباً ما يكون عليه رداء أصفر سابغ شبيه بالرداء الذي تلبسه النساء في تونس ، ويسمى هناك (السفساري) وبالذي تلبسه السودانيات ما عدا تلميذات المدرسة أو لنقل المدارس لأنني أشعر بأن أهالي القرية خرجوا كلهم شباناً وشيباً وصبياناً وصبايا فقد لبسن جلابيب بيضاء كالتي يلبسها الرجال لدينا تماماً ووضعت الصغيرات منهن على رؤسهن كوفيات أي غترا بيضاء كالتي كانت على رأسي تماماً ، أما الكبيرات فقد وضعن على رؤسهن أردية صفراء أو بيضاء مزركشة بزرقة .

وكانت أولى فقرات الحفل نشيد الاستقبال أنشده عدد من تلاميذ المدرسة يقارب الأربعين بلغة عربية فصيحة ووجدناهم في طابور طويل يأمرهم المدرب بالوقوف أو المشي أو ينهاهم عن ذلك كل ذلك بالعربية إلا أنه إذا أراد أن يقول : قف : قال (مكان) ، أي : الزم مكانك .

وأنشدوا باللغة العربية الفصيحة التي لا تشوبها لكنة ، وليس في حروفها عجمةٌ النشيدَ التالي :

يا مرحباً بالزائرين أهلاً وسهلاً كل حين
فلقد وقفنا فرحين يا خيرة القوم الكرام

* * *

بقدومكم جاء الهنا والسعد وافى والمنى
بقدومكم زال العنا نلنا به أقصى المرام

* * *

وهنا يا (امفوني) الحبيبه بـانت تبـاشير الـنجاح
هـذا ونـور الـعـلم لاح نــــرجـو مـن الله التمام

وقالوا : إنه من تأليف الشيخ حسن بن علي المولود في ضاحية امفوني (هذه البلاد) ولا أدري أهو مؤلف لهذه المناسبات أم نقلوه من كتاب .

ثم قادونا إلى صفوف أخرى من الأهالي الرجال على اليمين والنساء إلى اليسار عبر الشارع الرئيسي في البلدة وكنا نرى بعض النسوة والأطفال خارج الصفين يراقبون ضيوفهم من بعيد أو قريب .

وما زلنا سائرين حتى وصلنا إلى مكان من الشارع الرئيسي فيه رواق لأحد البيوت بارز في الشارع . وكان هذا الرواق هو قاعة الاستقبال وقد وضعوا فيه كراسي كبار المدعوين .

ثم بدأ الحفل بالآيات الكريمة من القرآن رتلها مرتل مجوِّد متقِن يُخرج الحروف الكريمة من مخارجها الصحيحة في علم التجويد ، ثم بعد ذلك بدأ المتكلم بكلمة ترحيب ولم يكن معي ممن هو من غير أهل البلاد إلا السفير الشيخ عبد الوهاب الدكوري وهي كلمة مليئة بالسجعات ، وعبارات المبالغة في المدح كما كان يفعل الإنشائيون الأقدمون .

وكانت الدفوف من خلف الصفوف تطلق طرقات هادئة مشاركة في التعبير عن الشعور وكلها من فرقة خاصة بهذه المدرسة (مدرسة النور الإسلامية) إذ الذين كانوا يقرعونها هم من الطلاب .

ثم أعقب ذلك قصيدة في المدح أعتقد أنها منقولة من أحد الكتب لأنها ليس فيها ذكر الإسم وبعد هذه القصيدة أنشدت مجموعة من الطلبة نشيداً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بمصاحبة الدفوف .

ثم أنشدت فرقة أخرى نشيداً دينياً بشعر عربي فصيح بمصاحبة الموسيقى أيضاً .

ثم أعلن المذيع بأن فلاناً — يقصدني — سيلقي كلمة . وقد القيت كلمة شكرتهم فيها على عواطفهم ودعوت للإسلام والمسلمين بالنصر ، وقلت لهم إنني أتمنى لو كان كل فرد في المملكة يشاهد محبتكم لإخوانكم المسلمين ومشاعركم الجياشة نحوهم لكنني سوف أبلغ من تيسر لي إبلاغهم هناك بذلك .

وكان المترجمُ الشيخَ حسن بن علي مدير المدرسة .

وكان هذا نهاية الاحتفال وعدنا في شوارع القرية ولاحظت أنها خصبة إلى أبعد الحدود حتى إن أرض الشوارع وأصول الجدران في البيوت قد أصبحت خضراء عليها شبيه الطحلب من كثرة المطر . وليس فيها مستنقعات لأن موقعها جبلي ولكنها خصبة خصوبة عظيمة لأن أرضها مشتبكة متشابهة في الاخضرار ، وقد كثرت فيها أشجار القهوة والموز .

أما بيوتهم فمظهرها مظهر بيوت الفقراء ، وهي مكونة من بيوت مبنية بالحجارة يربط بينها بالجص وتسقف بالخشب ، وبعضها مبني بالقش ، وسقوفها مسنمة .

قسم البنــات :

دخلنا إلى الغابة لنرى قسم البنات بعيداً عن الشارع العام وكان يتقدمنا مدير المدرسة وبعض المدرسين وأهل البلدة وخلفنا ربما كل أهل البلدة أما بعض الأطفال الصغار الذين لم يشاركوا في الاحتفال فانهم كانوا يتسللون لواذاً من وراء الأشجار ليمشوا في ركب الزوار ، غير أن شخصين أو أشخاصاً ربما

كانوا مكلفين بردهم وصدهم أخذوا يطاردونهم ليبعدوهم عن الموكب فيولوا عنهم فارين ولكنهم يهتبلون غرتهم ليكروا راجعين .

ووصلنا إلى قسم البنات ، وما أدراك ما قسم البنات ، إن فيه عدداً كبيراً منهن ، وهن بين الأفريقيات كالزهرات كلهن في عمر الورود ما بين العاشرة إلى السادسة عشرة وقد لبسن حلاهن من الثياب النظيفة ، السابغة الساترة لكل شيء إلا الوجه والكفين .

أما الصغيرات منهن فقد لبسن فوق الرؤس الكوفيات البيض ، وأما الكبيرات فعليهن المناديل الملونة .

هذا هو أمرهن وأما أمر البناء فقد حشرن فيه حشراً وحِشي بهن حشواً ، وهو وما أدراك ما هو ؟ إنه عشة تخاف أن تسقطها الريح ، أو تحملها إلى حيث لا يجدها أهلها لولا الأشجار الكثيفة بل الغابة الملتفة التي تقع فيها .

ولقد كدت أبكي وأنا أراهن في هذا المكان ونحن المسلمين في وفرة من المال بل في فائض منه ، وماذا يضيرنا بل ماذا ينقصنا إذا بنينا كل مدارس البنات في جزر القمر بالإسمنت والحديد ؟ وعشرون مدرسة كافية . وانتبهت إليهن وقد بدأن بإنشاد شعر عربي فصيح قالوا إنه من إنشاء السيد أبي بكر بن شهاب الدين رحمه الله . وهو :

الفخر ليس بالحرير والذهب ... ولا بلبس سندسٍ ولا قَصَبْ
في نساء الفرس والنصارى ... من الحُليِّ ما غلا مقدارا
وكله فانٍ ، وان جاء الأجل ... أَفْضَتْ إلى ما قَدَّمَتْ من العمل
ما الفخر إلا بالعفاف والتقى ... وفعل ما كان بهنّ أَلْيَقَا
والبعد عن مجامع الفضول ... ورفض كل خلقٍ مرذول
فالاقتداء بالبتول الزّهْرا ... وأمّهات المؤمنين أحْرَىٰ

وقد أنشدنه بلفظ عربي فصيح لا لحن فيه ، ولا تعتعة فضلاً عن أن يكون فيه توقف .

وبعد ذلك نهضت فتاة من صغارهن عليها ملابس بيضاء لم أعرف أنها حقاً صبية لولا أنني في مدرسة للبنات وذلك قبل أن الحظ أن في يدها سواراً دقيقاً من الذهب واسمها (زبيدة بنت عثمان) وسنها إحدى عشرة سنة فألقت كلمة ترحيب بالعربية إلقاءً حسناً .

والفصل الذي دخلناه أو العشة مبنية من أعواد نخيل النارجيل مضموماً بعضها إلى بعض ومربوطة بعيدان أخرى معترضة وبحبال من النارجيل نفسه ، وسقفها مجلل بحصر من خوص النارجيل إن ذلك كله من بيئتهم ، ولكنني اشفقت من أن يسقط عليهن ونحن معهن لأنني رأيت في الخارج عدداً من الأطفال يستندون إلى جدران هذه العشة يسترقون النظر من خلال الشقوق التي في جدرانها .

ولكن كان هناك سبورة لا بأس بها مكتوب عليها الدرس بالعربية أولها : سؤال يقول : ما الدليل على أن الله تعالى أوجد المخلوقات ؟ وجوابه : بما ملخصه أنه لا يصح أن يكون كل هذا الكون الزاخر بالموجودات من دون موجِد .

وقد القيت فيهن كلمة قصيرة مناسبة عن مكانة المرأة في الإسلام

في مزرعة التوابـل :

تركنا مدرسة النور الإسلامية وتركنا أهلها الكرام بعد أن شيعوننا بعواطف لا يمكن أن ننساها مدى الدهر ، وركبنا السيارة راجعين مع طريقنا تحت ظلال أشجار النارجيل الباسقات ، وأشجار العمبة ، أي : المانجو الظليلات .

وتحت ذلك أشجار الموز ، وبينها أحياناً تقف أشجار القهوة ، وقد استشرفت إلى العلا ولكنها تعجز أن تطاول النارجيلة أو العمبة . وتحت ذلك كله بساط أخضر من حشائش خضراء قد كست الأرض فأغلقت طرقها حتى كان طريق الأرجل في الغابة لا يستطيع أن يمحوها .

ثم انحرف بنا الطريق ذات اليسار فلم يلبث أن وقف أمام بناء حديث قالوا إنه معهد المعلمين وإنه كان مدرسة زراعية للتجارب إلا أنه الآن معهد تجارب للمعلمين يقضون فيه سنة واحدة يأكلون ويشربون ويسكنون على نفقة الدولة ثم يخرجون بعد السنة إذا كانوا من الناجحين .

وكان أهم من فيه ما شرحه لنا أخونا الخبير الوطني واسمه (غريب) قلت له ممازحاً ، أنت قريب ، ولست غريباً فضحك لأنه كان سمح الوجه ، بشوش الأسارير .

جال بنا جولة ممتعة بين أشجار عدد من البهارات التي لم أكن رأيت تفاصيل أشجارها ولا عرفت تاريخ زراعتها قبل ذلك مثل شجرة القرنفل ، وهي شجرة كبيرة أي : طبيعتها أن تكون كذلك وتشبه على البعد شجرة نوع من أنواع (المانجو) إلا أنها أقل اتساعاً ورأينا لحسن حظنا قرون القرنفل ناضجة ، وبعضها قارب أن ينضج وبعضها فات أوان نضجه وتركوه كذلك . قالوا : لأن هذا يُعدّ للبذار .

وهو في شجرته يخرج عدة قرون على هيئة عنقود صغير ذي زهرات منفصلة القرون ، ويبدو القرن كتلة واحدة صغيرة تشبه بزرة البطيخ الأصفر غير أنها مستديرة إلا أنها بعد أن تقطع وتجفف في الشمس تضمر كلها ما عدا رأسها فيبقى على حاله وتتخذ شكل القرنفل المعروف لنا ، وقالوا إنها إذا غرست لا تثمر إلا بعد ٦ سنوات . وانها تنتج في موسم واحد في السنة بمعدل ٣٠ كيلاً

للشجرة الواحدة على أنه يمكن غرس عدة شجرات في مساحة محدودة لأنها ترتفع عالياً .

ومن شجرة القرنفل انتقلنا إلى شجرة (الهيل) إي نعم ، إنها بجانب شجرة القرنفل في مزرعة التجارب هذه فإذا بها تشبه نبات الذرة الحبشية وهي في الشبه بينها وبين شجرة قصب السكر إلا أنها أكثر فروعاً من قصب السكر ، ورأينا ثمرها (الهيل) في عروق متصلة كأنها السلاسل الصغيرة أو قل كأنها المسابح المكونة من صف واحد وهي على وجه الأرض لا مختفية في التراب ولا مرتفعة عنه ، وقالوا : إنَّها أبداً تكون كذلك .

وبعد أن أكلنا منها وكنا أكلنا قبلها من ثمار القرنفل الغضة انتقلنا إلى شجرة الفلفل الأسود التي هي طفيلية إتكالية فهي لا تنمو نمواً طبيعياً ، ولا تثمر ثمراً عادياً إلا إذا اعتمدت على شجرة أخرى قوية بجانبها لذلك يغرسون أشجاراً من أشجار الخشب غير المثمر ثم يغرسون نبات الفلفل بجانبه فينمو متسلقاً عليه ولكنه إذا بلغ الرشد كما رأيناه فإنه ينتج إنتاجاً لا يتوقع المرء منا أن يبلغه فقد رأيته عالياً على قامة الرجل ويديه الممدودتين فوق رأسه وهو من ذلك الارتفاع إلى الأرض قد حفل بأجراس الفلفل الأسود وهي لا تزال خضراء رطبة غضة أكلنا منها فإذا هي الفلفل الأسود الذي نعهده إلا أنها ألطف حرارة وألذ مذاقاً .

وكان مسك الختام لتجارب هذه التوابل الغضّة التي قطفناها بأيدينا من شجرها أن قدموا لنا شراب النارجيل اللذيذ البارد الذي وجدنا فيه حلاوة ظاهرة لم نعهدها من قبل فسألت الأخ (غريب) عن سببها ؟ فأجاب : لأنها من شجر جبلي يبعد عن سطح البحر . فكان أحد العمال يفلق رأس الثمرة بسكين حادةٍ معه ثم يعطينا إياها فنشرب منها ما يبرد الحرين حر الجو ، وحر

التوابل التي أكلناها للتجربة ، وبعد شراب النارجيل جاء بالملاعق لأخذ شحمه الذي داخله فكان أيضاً لذيذاً وهو دسم ولكنه ليس كالشحم وهو غليظ ولكنه ليس بالكثيف وعلى كل حال هو لذيذ جداً أو هكذا وجدناه لذيذاً في أفواهنا .

إلى البركــان :

ليس هذا العنوان للتهويل والتشويق وليس فيه تورية أو كناية فالبركان كان قد انفجر في هذه الجزيرة قبل حوالي ثمانية شهور وسالت حممه إلى قرية مجاورة تسمى قرية (سنقاني) ولكن كان الأهالي في كامل صحوتهم ظهراً فنجوا بأنفسهم وتركوا مكرهين قريتهم طعمة لحممه السائلة . ومازالت فوهته حتى الوقت الحاضر تطلق الدخان ولكن لا شيء غير الدخان ، أما حممه فقد كانت وجهتها البحر وكانت نهاية مطافها ان جمدت في مياهه الباردة .

غادرنا قصر الضيافة في الساعة الرابعة بعد الظهر وبعد ٤ كيلات وصلنا بلدة كتب عليها بالعربية (فوفوني) وكان الطريق يمر في وسط غابات من الأشجار الكثيفة النافعة حتى كادت تلتقي فروع الأشجار فوقه بل كانت تلتقي في بعض الأحيان .

ثم وصلنا إلى قرية كتب عليها بالعربية اسمها (سيليا) ثم قرية (بتسوج) وهي قرية لا بأس من حيث الكبر بيوتها مبنية بالحجر معه الجص وسقوفها مسطحة أو بالأعواد المأخوذة من شجر النارجيل ومسنمة السطوح وأخيراً وصلنا مكان قرية (سنقاني) الجديدة التي عينت الحكومة مكانها بدلاً من القرية التي خربها البركان .

وبعد ذلك مباشرة وصلنا فرأينا الحجارة التي خرجت من فم البركان منذ ثمانية أشهر وعلى وجه التحديد يوم ١٩٧٧/٣/٥ م وكان هذا هو أول أيام

فورانه الذي استمر لعشرة أيام ، ثم توقفت الحمم واستمر الدخان منه حتى الآن ويقول الأهالي إن المطر على فوهته لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً ، وذلك طبيعي لأنه واقع في قمة جبال عالية لا يحجزها عن أبخرة مياه البحر حاجز في هذا الجو الاستوائي الرطب .

ولم نكن بحاجة إلى أن نسأل عن تاريخ خلق هذه الحجارة فهي لم تخلق على وجه الأرض إلا قبل ثمانية أشهر وإذا بها في الواقع ربما لا يستطيع المرء أن يجزم بصحة إطلاق اسم الحجارة عليها من جهة اللغة لأنها ليست في صلابة الحجارة ولا تماسكها فهي أشبه ما تكون بالحجارة التي تتكون من الأملاح قرب البحر وقد كنا نسير عليها وهي لا تتماسك تحت أرجلنا بل تسمع للأرجل عليها خشخشة وأصواتاً غير مألوفة ولا غرو في ذلك لأنها كلها ذات مسام مفتوحة .

وأردنا الصعود أكثر من الجبل لرؤية المزيد من هذه الحجارة البركانية الحديثة ولكن أنى لنا ذلك ، فالجبل صعب وهذه الحجارة نفسها يصعب السير عليها أكثر مما يصعب السير على كثيب الرمال لأنها تنهال من تحت الأرجل وتتحطم وتتفرق عند الوطأ . هذا مع العلم بأن فوهة البركان في رأس الجبل العالي ولا يمكن الوصول إليها مشياً إلا بعد مضي مدة طويلة كما أخبرونا .

وبعد أن رأيت بقايا الأشجار الكبيرة وقد أحرقتها نيران هذه الحمم ورأيت الأرض من حولي كلها بركانية التكوين إلا أنها عامرة بالحياة من الأشجار والأزهار والحشائش ، بل العطور وفيها الناس والحيوان وذلك فيما عدا مجرى هذه الحمم وما قرب منه سألت نفسي لقد كانت كل هذه المساحة مثل مجرى هذه الحمم سوداء اللون ، كئيبة المنظر مقفرة من الحياة ولكن الحياة عادت إليها كما كانت قبل ذلك فمتى تعود إلى مجرى هذه الحمم ؟ وسألت الذين

معي : ما دام أرضكم بركانية هل تعرفون جواباً لهذا السؤال ؟ ونفوا معرفتهم بالجواب إلا أن أحدهم تبرع وقال : ربما لا يكون ذلك قبل ثمانين سنة .

ولكنني قلت له : هذا إذا ترك الأمر على طبيعته أما إذا امتدت إليه يد التعمير بأن عملت الجرافات على تسهيل أرضه ودكها ثم جلبت تربة جديدة لها وإن لم تكن كثيرة فان الحياة الزراعية التي تعتمد في هذه البلاد على المطر والطل ولا تعرف أي نوع من أنواع السقي والري ستعود عاجلة غير آجلة . والله على كل شيء قدير .

وعدنا في الطريق وسط عبق من رائحة زهور العطر التي يسمونها (إيلانج لانج) وهي شجرة العطر التي اشتهرت بها هذه البلاد والتي تزرع فيها بكثرة .

مكتب المشروعات الكويتي :

كان من بين فقرات البرنامج زيارة مكتب المشروعات الكويتي في الساعة السادسة من مساء هذا اليوم وذهبنا إليه في بلدة تساندرا وقد استقبلنا المسؤولون فيه وعلى رأسهم الدكتور محمد تاج البيلي مدير المكتب وهو سوداني يعمل في هذا المكتب يعاونه في ذلك عدد من الإخوة السودانيين وغيرهم ويقع المكتب في دارة بضاحية البلدة المذكورة التي تقع إلى الشمال من موروني العاصمة .

وحضر الاجتماع كل من : الدكتور محمد تاج الدين البيلي رئيس المكتب الفني لصندوق التنمية الكويتي ـــ سوداني والمهندس محمد ناصر عثمان عضو المكتب (سوداني) والدكتور (الطبيب) عبد الحميد دلال من مكتب الصحة الدولية وهو لبناني مسلم ، والسيد محمود اللبان من الصحة الدولية وهو تونسي .

كما حضر من القمريين السفير المتجول في الدول العربية (عبد المجيد

صالح) وهو من خير من رأيته منهم رزانة وأصالة رأيٍ ومدير الإذاعة (راشد مبارك) وكلاهما يجيد التحدث بالعربية بطلاقة والسيد (محمد الحسن شنقاما) مدير الإدارة العربية بوزارة الخارجية .

وقد تناولت الجلسة الشؤون العامة في هذه البلاد الشقيقة وتاريخها العربي القديم وما يعرفه كل شخص من الحاضرين عن حالها من وجهة النظر التي هو مختص بها .

واجمعوا أو كادوا يجمعون على أن لهذه البلاد مستقبلاً طيباً إذا ما نفذت فيها مشروعات اقتصادية مدروسة فبحارها تزخر بالأسماك ولم يصبها شيء من التلوث . والأمطار فيها غزيرة وأرضها تنبت التوابل الغالية مثل القرنفل والفلفل إلى جانب العطور النادرة . وأشجار النارجيل يمكن التوسع في زراعتها والتوسع في الانتفاع بها .

والأهم من ذلك أن هذه البلاد يمكن إذا ساعدتها الدول العربية والإسلامية أن تصبح بلداً عربياً لأنها الآن بالفعل تعتبر بلداً إسلامياً إذ جميع سكانها من المسلمين . أما اللغة فلهم لغة محلية قمرية ولكنها لا تستطيع أن تفي بحاجات حياتهم لذلك لا بد لهم من لغة راقية حية ولن يجدوا غير العربية أسهل منها وأقرب اذْ يوجد عدد منهم يعرفون العربية وأكثرهم يعرف شيئاً منها تعلمه في المدرسة عندما كان صغيراً .

وأجمع الحاضرون كلهم على أن العرب لا زالوا مقصرين في تقديم المعونة الواجبة لهؤلاء الأخوة على أن الأمر ليس من السهولة بمكان أن يطلق التقصير هنا فيكون كله على العرب ، وإنما يمكن أن يوجه بعضه إلى حكومة هذه البلاد لأمرين : أولها أنها لم تجر الاتصالات السياسية الكافية اللازمة لهذا الغرض ، وثانيهما : أنها تظاهرت بتطبيق نوع من الحكم لا يبعد كثيراً عن

نظام الحكم الاشتراكي الاستبدادي فأبعدت نفسها بذلك عن طائفة من البلاد العربية التي تزن الأمور بميزان إسلامي لا بميزان قومي أو اشتراكي .

يوم الاثنين : ٧ صفر عام ١٣٩٨هـ ١٦ يناير ١٩٧٨م .

إلى متساموحولـي :

غادرنا الفندق في الساعة العاشرة صباحاً وكانت وجهتنا شمال الجزيرة هذه المرة إلى بلدة (متسامحولي) على بعد ٣٩ كيلاً من مروني العاصمة ، وبعدها إلى مكان يبعد منها ٧ كيلومترات .

وكان المرافق الأستاذ (امباي احمد) مدير المراسم الحكومية ، ومعي السفير الشيخ عبد الوهاب الدكوري في سيارة وسيارة أخرى فيها ثلاثة من الإخوان الآخرين .

وأول ما رأيناه بلدة قريبة تسمى (تساندرا) تبعد ثلاثة كيلومترات من العاصمة ، وفيها فندق على شاطىء البحر جميل ، وهي كالعاصمة ذات مناظر بديعة إلا أنها أوسع شوارع من العاصمة ، وأحدث بيوتاً .

وبعد خمسة كيلومترات كنا نحاذي قمة غير عالية الارتفاع من الجبل . وهناك رأينا الموز مزروعاً بكثرة ، كما رأينا كثافة أشجار العمبة (المانجو) قد ازدادت . وقابلنا عدداً من الفلاحات من عجائز وصبايا يحملن على رؤسهن المكاتل مليئة بثمار العمبة . وبعد ذلك رأينا سيلاً بركانياً أي ما يشبه مجرى النهر من الحجارة السوداء حديثة التكوين وذكرت الحمم البركانية التي رأيتها أمس وقالوا : إن هذه الحمم قد مضى عليها ما يقرب من ٤٠ سنة .

مطـار دحـاي :

كتبت اللافتة بالعربية (مطار مروني دحايَ) وهو مطار مروني الدولي الذي

تنزل فيه الطائرات النفاثة وهي من الخطوط الأجنبية إذ لا تملك (جزر القمر) أي طائرة نفاثة ، وتنزل فيه الآن شركة (خطوط مدغشقر الجوية) وقد بنت لهم هذا المطار السوق الأوروبية المشتركة .

وتركنا (دحايَ) ومطارها مواصلين سيرنا إلى جهة الشمال بالقرب من ساحل البحر أو قل : من الشاطىء الأزرق ، والجبل الأخضر ، وقد اتسعت الأرض وأبعد الجبل من مزاحمة البحر ، وغام الجو وغابت الشمس في سحاب كثيف فذهب وهجها الحار ، وأخذ المطر يسقط رذاذاً .

أما مناظر الطريق فهي الخضرة الكثيفة التي تكاد تغلق الطريق في بعض الأحيان حتى ليشفق المرء منا إذا ما تقابل السيارتان أن يصطدما . وأكثر هذه الأشجار من الأشجار النافعة إلا أن الحجارة التي يمكن أن ترى أظهر ما تكون بقرب البحر هي حجارة بركانية سوداء ذات منظر غير بهيج . ومن حسن الحظ أنها لا ترى بكثرة ، بل إن شاطىء البحر يرى فيه في بعض الأحيان شاطىء رملي فضي اللون ولكنه يكون صغيراً قصير المسافة ، وذلك لأن هذا الشاطىء الرملي هو الأصل أي هو الشاطىء الأصلي القديم للجزيرة غير أن الحمم البركانية التي كانت تسيل إلى البحر منذ العصور القديمة حتى الآن قد طمست أكثره ، وركبته منها حجارة سوداء .

الحاجـة إلى الآلات :

قلت للأخ (امباي احمد) : أرضكم هذه خصبة شديدة الخصوبة بدليل أن الأشجار النافعة كالنارجيل ونحوه وكذلك الحشائش التي تأكلها الحيوانات تنبت على شاطىء البحر وبين حمم بركانية سوداء تكاد تكون عارية من التربة . فقال : هذا صحيح ولكن الصعوبة تكمن في أنها تربة حجرية خشنة ويحتاج تمهيدها وتسويتها إلى آلات قوية لا كما هي الحال عندنا الآن إذ يأتي

الأهالي بالأخشاب ، ويظلون يحاولون تمهيد الأرض بها بقوة أيديهم فيحتاج تنظيف الهكتار من الأرض إلى مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر .

وهذا صحيح ، ولكن الآلات جزء من العمل الاقتصادي أو قل جزء من تنمية البلاد وتنمية البلاد تحتاج إلى جهود سياسية واقتصادية وذلك لا يتوفر على الوجه المطلوب في (جزر القمر) الحديثة العهد بالاستقلال .

هذا وقد وصلنا إلى قرية كتب اسمها على لافتة خشبية بالعربية (دمون) .

بلـدة ساوينـي :

قالوا لنا إن هذه البلدة هي أول موضع دخله الإسلام في هذه الجزيرة وإنه بني فيها أول مسجد في تاريخها وأنه بني في عهد الخلفاء الراشدين . وأن فيها قبر رسول الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أرسله إلى هذه البلاد .

هكذا قالوا ، ولكن لم أجد في البلدة تواريخ أو كتابات تشهد لما ذكروه . لقد أوقفنا السيارة في الطريق العام لأن السيارة لا تستطيع أن تدخل القرية لضيق شوارعها وعدم استقامتها ، مما يدل على قدمها .

ودخلنا نمشي وسط أسواق غير مرصوفة ، ولا مستقيمة وبين بيوت بعضها بالحجر الأسود البركاني مربوطاً بالجص الذي يخرجون حجارته من البحر ويشوونها ثم يطلون به البيوت الحجرية ، وبيوت أخرى غيرها مبنية بالقش أو قل أعواد النارجيل ومسقفة بالقش ، وفي هذه الشوارع ترى الأهالي وأكثرهم من النساء والأطفال إذ الظاهر أن الرجال قد ذهبوا إلى أعمالهم ولم يبق في القرية منهم إلا قلة وكأن المرء وهو يراهم هنا يرى السواحليين سكان (لامو) وماليندي في ساحل كينيا .

ورغم مظاهر الفقر والعوز في هذه القرية فانني والحق يقال لم ألمح واحداً سواء أكان طفلاً أم شيخاً أم امرأة يمد يده بالسؤال أو يستجدي شيئاً منا أو غيرنا ، وكان النساء فيها على جانب كبير من الحياء فكانت الشابات يخرجن من بيوتهن للتفرج على أولئك القادمين الذين كان لوقع أقدامهم مع مرافقيهم صوت يمزق سكون القرية ، وكان للباسهم منظر فيه بعض الغرابة فلباسي كان عربياً كاملاً ما عدا العباءة . ولباس مرافقي السفير عبد الوهاب الدكوري كان لباس أهالي (مالي) الكامل وهذا كله أمر ملفت للأنظار إلا أنهن وبخاصة الشابات منهن إذا حاذيناهن أسرعن في الدخول إلى البيت أو إخفاء وجوههن خلف الأبواب .

وكان أول ما رأيناه مما يلفت النظر بيتاً مبنياً بالحجارة بناء متقناً عليه أمارات القوم يعلو مدخله قوس عربي جميل بحجارة مهذبة وبأبعاد متساوية ، ومكتوب على هذا القوس بخط جميل (نصر من الله وفتح قريب) قالوا : إن هذا البيت هو بيت أول رجل حج من أهل هذه الجزيرة .

وطبيعي أنه من الصعب إثبات ذلك بالنسبة إلينا لا سيما إذا علمنا أن السلف الصالح لم يكونوا يعنون بهذه الأمور بل كان همهم هو العمل ، وليس التسجيل ، إلا أنه مما يؤسف له أن الاعتناء بهذه الأمور في هذه الجزر قد بلغ به بعض الناس مبلغ الإعتناء بالأمور الدينية فللطرق الصوفية عندهم مثل الشاذلية والقادرية ، وللقبور والاضرحة والاعتناء بها مقام كبير في نفوسهم ، وللأناشيد والأغاني الصوفية منزلة في الاحتفالات والاجتماعات كبيرة بحيث لا يكاد يخلو اجتماع ديني منها كما شاهدت بنفسي ذلك .

وهذا أمر يمكن علاجه على مدى طويل ، وأهم وسيلة لذلك هي استقدام عدد من أبناء جزر القمر إلى المملكة وغيرها من البلاد الإسلامية

وتعليمهم الإسلام النقي الصافي ومحاربة البدع والخرافات التي أدخلها المتصوفون والمنحرفون على الإسلام حتى أصبحت على مر العصور جزءاً من شعائره ومظاهره في رأي بعض الناس الذين لا يعلمون .

أول مسجد في هذه الجزيـرة :

اسمه جامع (ساويني) لأنه الجامع الوحيد في بلدة (ساويني) أي الذي تقام فيه الجمعة ، وهو متوسط السعة ذو أعمدة عريضة تركبها أسقف من الخشب معترضة يستند عليها خشب السقف والسقف بالخشب فوقه رقائق من الحجارة البركانية الدهماء .

يحيط بالمسجد رواق غير عريض مبني بناء حديثاً بالاسمنت ، وأبوابه من الخشب المحلي المنقوش بنقوش عربية محفورة إلا أنني لاحظت أن اثنين منها قد انكسر منهما الوسط فأبدلوه بشيء من حشب الساج الساذج — أي (غير المنقوش) .

العـودة إلى المسير :

ودعنا القرية ، ولم يكن عدد الذين تجمهروا حولنا من أهلها يذكر إذ كانوا لأدبهم لا يتبعوننا خلاف ما كان متوقعاً في مثل هذه الحال .

وواصلنا السير حتى وصلنا قرية تسمى (شملي) ثم أخرى اسمها انزوار ، وهذه وما حولها يكثر فيها إحراق الاشجار لإعادة زراعة الأرض وليستفيدوا من ذلك في تمهيد الأرض وقد رأيناهم فيها وهم يحرقون بقايا أشجار الموز القديم .

واستمر السير حتى وصلنا هدفنا وهو بلدة (ميتسامحولي) أول ما رأيناه فيها شارع رئيسي مستقيم قد غرست على جانبه أشجار النارجيل صفاً مستقيماً من

الجانبين وهي على شاطىء البحر مما جعله يشبه منظر الشارع الذي يسمى في أكثر البلدان العربية (بالكورنيش) وبعد هذا الشارع إلى البحر بلاج رملي فضي يقل نظيره في هذه المنطقة على ترابه بعض القوارب الصغيرة التي ربما كانت لصيد السمك أو للنزهة ولكن ليس فيه سابحون ولا متنزهون.

وفي البلدة بنايات بالحجر بيضاء الطلاء، عربية الطراز، متعددة يمكن القول إنها أكثر بنايات رأيناها من هذا الطراز مجتمعة في مكان واحد منذ أن غادرنا (مروني) العاصمة.

أما أهلها فتظهر عليهم الوجاهة ونظافة الملبس والتأنق فيه أو قل المحافظة على اللباس التقليدي الكامل وهو القميص العربي الطويل الذي تبين من تحت أذياله أطراف سراويل طويل أيضاً وفوقه صدرية أي (جاكيت) ثم طاقية بيضاء مزينة بالنقوش على الرأس، وأكثر من رأيت أوكلهم نظيفو الثياب.

نياما وونـي :

ولم نقف في البلدة لأن لنا عودة إليها قريبة حسب البرنامج الذي وضعته مراسم الرئاسة، وانما واصلنا السير في طريق بدا لنا أوسع مما كان عليه الطريق قبل ذلك وأكثر اتقاناً وتبين لنا السبب بعد هنيهة إذ عرفنا أن هذا الطريق كان الفرنسيون قد بدأوه إلا أنهم تركوه مجمداً بعد الاستقلال، وبقي متروكاً حتى جاء الكويتيون جزاهم الله خيراً — فاستأنفوا العمل فيه، وقد رأينا الجرافات والآلات الكبيرة تعمل فيه وهذه بادرة طيبة لهم تجاه هذه البلاد لا ينبغي للمرء أن يذكرها دون أن يشكرها، وكانت الوجهة بعد بلدة (ميتسامحولي) هي مكانا على شاطىء البحر، لم يخبرونا خبره بالتفصيل إلّا بعد أن خرج السائق بالسيارة من الطريق المعبد متياسراً جهة البحو وكنا طيلة خروجنا من العاصمة مروني حتى هذه اللحظة نسير إلى جهة مهب الشمال جاعلين البحر على اليسار

أي جهة الغرب والجبل على اليمين جهة الشرق ، ووقف بنا على شفير بحيرة ليست واسعة إلا أنها عجيبة لأنها واقعة في مرتفع ولكنها عميقة جداً بها ضفاف مرتفعة قد كللتها أشجار برية تحتها حشائش برية أيضاً .

وتطل عليها من جهة الشرق هضاب جبلية إلا أن متونها ملساء مما يدل على أن أرضها مستقرة منذ سنين طويلة وهي بحق أجمل من كثير من الهضاب الجبلية في أوروبا .

وتسمى تلك البحيرة الصغيرة (نياما وونى) ويروي العامة من أهالي تلك المنطقة عنها قصصاً من الأساطير منها أن سبب وجودها أن رجلاً جاء إلى أناس كانوا في مكانها فطلب منهم أن يسقوه ماء فامتنعوا فخسف بهم وأصبح في مكانهم ماء هو ماء هذه البحيرة ، ومنها أن فرنسياً نزل يسبح في مائها فتزلع جلده ، بخلاف الأهالي فانهم يزعمون أن من أصابه جرب فاغتسل من مائها شفي لأن فيه مواد تسبب الشفاء ، وربما كانت فيها أملاح مركزة كما في البحر الميت هذا إذا لم يكن بينها وبين مياه البحر اتصال . إلا أنها صغيرة جداً بالنسبة إلى البحر الميت .

مسجد المفاجـأة :

غير بعيد من مكان هذه البحرية الصغيرة التي حيكت حولها أساطير توجد قرية فيما بين البحيرة وبلدة (متسامحولي) فيها مسجد يسمى (مسجد المفاجأة) أو (شوندا) باللغة القمرية .

قالوا : إنه مسمى بمسجد المفاجأة لأن أهالي القرية التي يقع فيها كانوا قلة فقراء وكانوا لم يستطيعوا أن يبنوا مسجداً للقرية رغم ما بذلوه من جهود .

وفي ليلة من الليالي كانوا قد باتوا فيها ولا مسجد في قريتهم وعندما أصبحوا

وجدوا أن هناك مسجداً مبنياً بناء جيداً بالحجارة ومسقفاً بالخشب ومطلياً بالنورة ، ومبلطة أرضه كل ذلك تم في ليلة واحدة ولم يعرفوا من فعل ذلك فأسموه (مسجد المفاجأة) واعتقدوا أن الملائكة هي التي بنته لأهل القرية رأفة بحالهم لأنهم لم يجدوا من الناس من يبني لهم مسجداً .

وسألتهم عن تاريخ هذه الحادثة فيما يعتقدون ؟ فقالوا : إنه قبل حوالي مائة سنة وقالوا : إنه نظراً إلى أن الملائكة هي بنته في اعتقادهم فان قبلته ستكون بالطبع على الاتجاه الصحيح لذلك أخذ الناس الذين يبنون مساجد في المنطقة يضبطون قبلتها بقبلة هذا المسجد .

والمسجد يبلغ طوله ٦ أمتار وعرضه ٥ إلا أنه زيد فيه قليلاً بعد ذلك من جهته الشرقية والغربية .

وهندسته كهندسة المساجد الموجودة في مروني وهي هندسة عربية الأصل تشبه ما هو موجود في جنوب الجزيرة العربية غير أنها هنا أظهر وأوضح لأنه أبعد عن المؤثرات الخارجية .

وقد قال لنا الأخ (إمباي احمد) مدير المراسم إنه كان فيه آيات قرآنية مكتوبة كتابة جميلة إلا أنها محتها السنون .

وقد تظرف أحد الحاضرين فقال : إن الملائكة الذين بنوه قد راعوا الاقتصاد والهندسة المحلية وربما كانوا كلهم من ملائكة تلك المنطقة . على حد قوله الذي هو هزل في هزل .

بقي أن أبين رأيي في هذا الأمر وهو أنني أعتقد أن بعض أهل الخير الذين لا يحبون أن يعرف الناس عملهم هو الذي بناه وأخفى ذلك ابتغاء للثواب من الله .



منظر من الشاطيء في جزر القمر

عـود إلى ميتساموحولي :

قصدنا المسجد الجامع فيها رأساً بناء على رغبة من رئيس الجمهورية الذي طلب مني أن ألقي كلمة في المصلين فيه فوصلناه مع الأذان ، فإذا به مسجد نظيف متوسط السعة محرابه مزوق بنقوش جصِّية بيضاء مشابهة لما كان الناس يستعملونه في نجد من تزيينات في جدران قاعة الضيوف في البيوت أو (القهوة) كما يسمونها .

وبجانب المحراب ساعة حائطية قد ركب الوقت فيها على التوقيت الغروبي فكان أن أقيمت الصلاة في الساعة السادسة والثلث .

أما سقف المسجد فانه بالأخشاب التي وضعت فوقها الأحجار .

وقد ألقيت في المجتمعين كلمة بعد الصلاة ترجمها الأخ محمد عثمان رئيس

الجمعية الإسلامية سابقاً من العربية إلى القمرية . وكان في المسجد عدد لا بأس به بل هو كثير بالنسبة إلى مثل هذا الوقت .

وبعد أن انتهت الكلمة نهض رجل من سائر الناس وتقدم حتى وقف أمامي وألقى كلمة قصيرة جداً بلغة عربية فصيحة تضمنت الشكر والتقدير على الكلمة واسمه (عيدي محمد) .

وحالما انتهى أقبل الناس يسلمون ويصافحون ، ولكن لاحظت أنهم قد ألفوا عادات في السلام على الذين يعدونهم من رجال العلم أو علماء الدين . منها إظهار التعظيم لهم بالانحناء عند السلام قليلاً وتقبيل اليد . وكنت أضطر لكي أتفادى تقبيل يدي أن أسحبها ممن يصافحني منهم بسرعة .

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر تركنا المسجد إلى فندق (مالوجا) يعني الموج في اللغة القمرية وهو فندق على البحر بني بجانب (بلاج) رملي فضي خال من الأحجار البركانية غرست في رمله غابة من أشجار النارجيل حتى كادت تتشابك فروعها .

ومطعم الفندق هذا مبني من الحصر والأخشاب بل إن عمده هي من جذوع شجر النارجيل فكأن بانيه لم يرد أن يدخل فيه شيء ليس من البيئة المحلية أما سقفه فهو من الأعواد التي فوقها الحصر .

وزاد فيه صاحبه وهو فرنسي أن جعل واجهته أشبه بمتحف صغير للأحياء البحرية ففيه سلاحف كبيرة محنطة وبعض الأسماك الغريبة ومنظر مجسم لقاع البحر منذ سنين كما تخيله صانعه ولم يكن كل ما في المتحف جامداً أو محنَّطاً بل كان فيه قرد صغير حي خفيف من الأنواع النادرة لا يوجد إلا في بعض البلاد . وقالوا : إنه أحضره من مدغشقر .

وجاء الطعام وهو جيد فيه سمك كثير ولكنه أوروبي الطابع والمذاق .

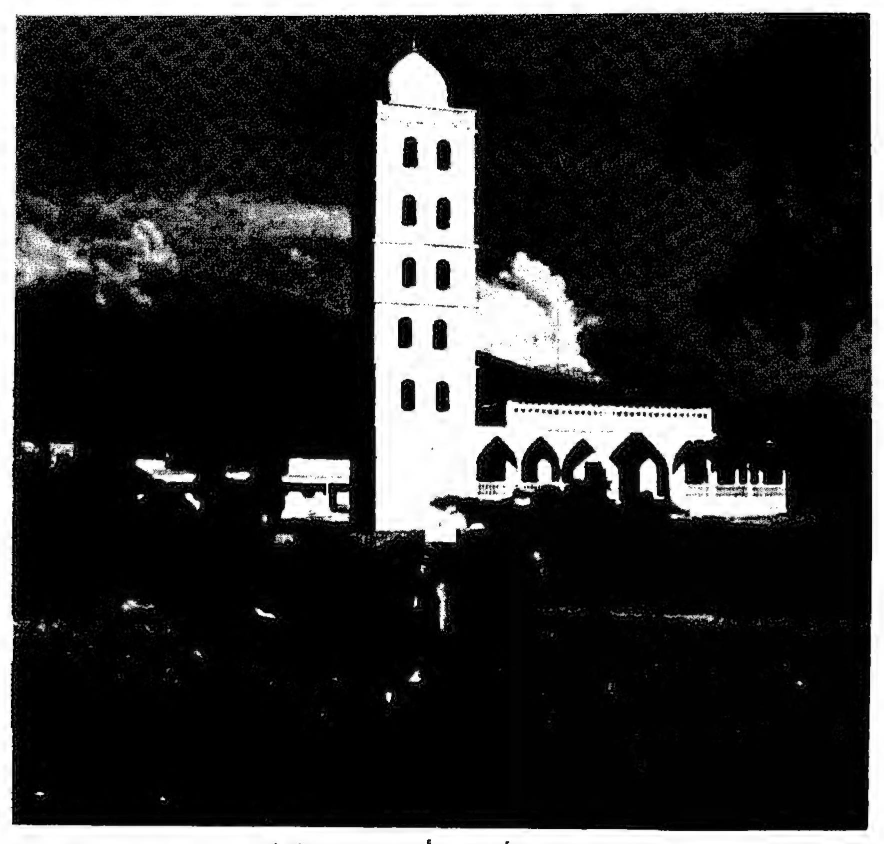


مطعم مالوجا على شاطىء البحر

إلى بلـدة (أكونـي) :

تبعد هذه البلدة عن العاصمة مروني بمسافة ٦ كيلومترات إلى جهة الجنوب ، وكان الطريق ككل الطرق في هذه الجزيرة الخضراء قد كللته الخضرة المطبقة وظلته الأشجار الكثيفة المتشابكة في كثير من المواضع .

وكان خروجنا عند الساعة الرابعة ظهراً ولم يستغرق الطريق أكثر من عشرين دقيقة حين لاحت لنا مئذنة المسجد الجامع في (اكوني) وهي مربعة عالية متساوية الاتساع على نظام هندسي دقيق بمعنى أنه لا يظهر فيها شيء من الخلل كالإتساع أو الضيق في بعض المواضع وحسبت أدوارها فإذا هي ستة والحقيقة أنها تساوي إرتفاع عمارة مكونة من ٧ أدوار على الأقل وذلك لأن ارتفاع طبقاتها أعلى من ارتفاع الأدوار المعتادة وهي مبنية بالحجارة ومطلية بالطلاء الأبيض .



مسجد أكوني بمأذنته المربعة العالية.

ولم يطل بنا الوقت لتأمل البلدة فكان وقت العصر قد حان بل قد حان وقت الدخول في الصلاة وبعد الصلاة تقدم عدد منهم وطلبوا مني أن ألقي فيهم كلمة فتكلمت بكلمة ترجمها إلى لغتهم في الحال الشيخ محمد شريف ، وكان المسجد غاصاً بالمصلين بل إن الساحات التي حوله فيها عدد منهم كثير وذلك لأنهم قد عرفوا بذلك من قبل.

وقد تضمنت الكلمة الحث على العمل بالدين الإسلامي وتطبيقه في جميع نواحي الحياة من عبادات ومعاملات ، وعلاقات عامة ، وذلك لأن بعض الناس يظنون أن الإسلام مجرد عبادات كالصلاة والصيام والحج وقلت لهم : إن هذه العبادات مطلوبة بل هي من أركان الإسلام ولكن المعاملات

مطلوب فيها أيضاً أن تكون وفق الإسلام فالمسلم لا يجوز له أن يغش أو يكذب أو يخلف الوعد ، أو يخل بالأمانة أو يؤذي جاره ، بل إن الإسلام حثَّ على إماطة الأذى عن الطريق وبيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم أن ذلك من الايمان . وقال : لا يحقرن أحدكم من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ، فأي حث على حسن المعاملة أكثر من ذلك .

إن الإسلام يأمر المسلم بألا يكون مكفهر الوجه ، عابس الأسارير. وفيما يتعلق باللسان أمر بقول الخير أو السكوت وقال صلى الله عليه وسلم : الكلمة الطيبة صدقة ...

ولم يقتصر الأمر على حسن التعامل مع بني الإنسان بل شمل ذلك الحيوان أيضاً ، في الحديث : دخلت النار امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، وهذا يقصد منه النهي عن إيذاء الحيوان . وفي الحديث الآخر أن بغيا دخلت الجنة بسبب كلب رأته قد أصابه العطش فسقته .

وقال صلى الله عليه وسلم قولاً عاماً وهو : في كل كبد رطبة أجر .

هذا وبعد إكمال الكلمة خرجت من المسجد ولم أكد أطيق الخروج إذْ تجمهروا — جزاهم الله خيراً — كلهم يحسن الظن بي يودون أن يسلموا عليّ ويحيوني وكلهم يحاول تقبيل يدي ولكنني أمنعهم منعاً باتاً من ذلك فليس من خلقنا ولا من عادتنا التي درجنا عليها أن نترك أحداً يقبل أيدينا ، لأن ذلك يربي روح الغرور فيمن تقبَّل يده ، كما نخشى أن يربي روح الخضوع فيمن يقبلون أيدي الناس . هكذا أخذنا عن مشايخنا ، وهكذا نعمل .

مدرسة الفتح الإسلامية في اكوني :

سرنا بين صفين من الرجال والأطفال ووسط جمع من أهالي بلدة أكوني من مسجدها الجامع إلى مقر المدرسة القريب من المسجد . فوجدنا الطلاب قد

اصطفوا صفوفاً ، وأولياء الأمور ووجهاء البلدة قد أخذوا مقاعدهم وعدة مكبرات للصوت تصدح بكلمات الترحيب .

ثم ابتدأ البرنامج بكلمة ترحيب فآيات من كتاب الله الكريم رتلها أحد الطلاب بصوت جميل ، وترتيل صحيح ثم طلب المذيع مني أن ألقي كلمة فألقيت كلمة بهذه المناسبة تضمنت أهمية الأخذ بالإسلام في الحياة ، وكيف أنه يطهر النفوس ويزكي القلوب إذا عمل المرء بكل ما يستطيع منه . وبينت أثر الشباب في الحياة الإسلامية .

ثم أعقب ذلك نشيد للمدرسة أنشدوه مع مصاحبة الدفوف وبألحان بديعة . وبعد ذلك قمنا بجولة على المدرسة شملت فصول البنات لأنهن لم يحضرن مع الرجال فزرناها كلها بصحبة المدير وبعض المدرسين وقد لاحظت أنهن كلهن دون استثناء من كبيرات وصغيرات يلبسن ملابس نظيفة سابغة ساترة وقد تلثم كبارهن حتى لا يرى المرء من وجوههن إلا النصف الأعلى ، أما صغارهن فقد أظهرن وجوههن وأكفهن لا غير .

وتكلمت في الفصل الأعلى فيهن كلمة قصيرة تبين أن النساء شقائق الرجال وأن على نساء المسلمين واجب تربية أبناء المسلمين على الخلق الإسلامي الرفيع وأن يتمسكن بذلك ولا تغرهن بهرجة المبهرجين .

وكانت فصول المدرسة نظيفة واسعة وبنايتها كلها من الاسمنت المسلح ، وقد أنشأوا فيها طابقاً ثانياً ولكنهم وقفوا عن إتمامه لقصور النفقة ، وطلبوا المساعدة فوعدناهم بذلك .

وقد غادرنا المدرسة عائدين ، وكان أمامنا عندما خرجنا منها رابية جبلية عالية تنتصب من شاطىء البحر انتصاباً كاملاً أي دون تدرج وتجلل هامتها وما سهل من جوانبها الأشجار الخضراء وهي إلى جانب شاطىء البحر تعطي مدينة

(أكوني) منظراً رائعاً إلا أن مما يكدر ذلك المنظر كونهم يلقون في البحر فضلات المدينة التي لا تبعد رائحتها في البحر كثيراً لذا تكون لها رائحة غير مستحبة فيما يليها من البلد .

أما بالنسبة لنا فانه كان لنا من رائحة الزهور التي تصنع منها العطور في هذه البلدة ما يعوضنا عن ذلك فكنا نسير عائدين في هذه الأمسية الرائعة في طريق ضيق وسط غابات وغابات من الأشجار ولم نفقد منها أشجار العطور (ايلنج لانج) فكان شذاها يعطر الجو الأخضر فيزيد حبوراً على حبور .

على مائـدة رئيس الجمهوريـة :

كان من ضمن البرنامج فقرة تتضمن إجابة دعوة عشاء يقيمها رئيس الجمهورية في الساعة السابعة والنصف من مساء هذا اليوم ، وقد وزعوا بطاقات الدعوة وذكروا فيها أن رئيس الجمهورية سيقيم حفلة عشاء على شرف معالي (فلان) فأخبرت رئيس المراسيم أنني لست ممن يستحقون هذا اللقب لأنه عادة يطلق على الوزراء ومن في حكمهم . أما أنا فانني لم أصل إلى هذه الرتبة فقال : لقد رأى رئيس الجمهورية أن تكون هكذا ، وقال أحد الحاضرين المسؤلين إننا نعلم أن العلماء في المملكة العربية السعودية لهم من المكانة ما يوازي مكانة الوزراء أو أعظم من ذلك فقلت : أسأل الله تعالى أن يجعلنا من العلماء العاملين .

ووصلنا في الموعد فاستقبلنا عند البوابة رئيس المراسم وبعض الموظفين ثم اخترقنا صفوفاً من الكراسي عليها المدعوون من كبار الموظفين والخبراء العرب الموجودين في جزر القمر ثم حضر نائب رئيس الجمهورية السيد محمد حسن علي ، وقال : إن رئيس الجمهورية يعتذر عن عدم حضوره لأنه يشعر ببعض التعب ، وقد أنابني عنه في الترحيب بكم وحضور هذه الحفلة وإنه يأمل أن

يراكم في الساعة الخامسة غداً في مقر الرئاسة كما هو في البرنامج فشكرته على ذلك .

وبعد قليل قمنا إلى موائد الطعام وكانت الرئيسية مائدة طويلة ممتدة على رأسها نائب الرئيس وأنا والشيخ السفير عبد الوهاب الدوكري ثم بعض كبار الموظفين من القمريين الذين يحسنون العربية مثل السيد (عبد المجيد) السفير المتجول في البلدان العربية والاستاذ (محمد الحسن شتقاما) مدير الدائرة العربية بوزارة الخارجية .

وكانت مائدة طيبة تبادلت فيها الأحاديث مع الأخوان القمريين حول الشئون الإسلامية العامة والشئون الخاصة بجزر القمر ، ونائب الرئيس يظهر عليه الإيمان والاستقامة وهو من جزيرة (موهيلي) إلا أن الناس يقولون : إنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً لأن شخصية الرئيس القوية ، لا تدع معها من يستطيع أن يقوم بعمل مستقل .

أما الطعام فكان على الطريقة الأوروبية أو قل العالمية في مثل هذه المناسبات إلا أن أهم ما فيه هو السمك القمري اللذيذ الذي لحمه في الطعم والماهية بين لحم السمك المعتاد وبين لحم سمك (التونة) . وكانت الفاكهة من فاكهة البلاد التي تنتجها بل تكثر فيها وهي العمبة (المانجو) والموز والأناناس .

يوم الثلاثاء : ٨ صفر عام ١٣٩٨هـ ١٧ نابر عام ١٩٧٨م .

جولة في مدينة مروني :

مدينة مروني هي عاصمة دولة جزر القمر وهي أكبر مدينة في جزيرة القمر الكبرى ، وهي مدينة قديمة تعتبر إحدى المدن الإسلامية القديمة ذات الطابع الإسلامي العريق .

وقد زرت صباح اليوم الحي القديم فيها وتجولت فيه ، ولا مجال للقول بأن تلك الزيارة كانت في السيارة أو على الأقدام ذلك بأنه لا يمكن زيارتها بالسيارة لضيق شوارعها وتشابك سككها وتلاصق بيوتها أو تقاربها .

وهذا بالطبع يعني زيارة القسم القديم من البلدة أما القسم الحديث فليس كذلك ، إذ نحن فيه منذ قدمنا إلى هذه الجزر .

كانت الجولة سيراً على الأقدام بصحبة الشيخ (عبدالله عيدروس) والأستاذ عبد الرحمن السعد وهو أحد إخواننا العراقيين وتخصصه في الكهرباء إذ هو مهندس كهربائي جاء إلى هذه الجزيرة بهذه الصفة إلا أنه رجل إسلامي النزعة ، حريص على القيام بالدعوة الإسلامية أكثر من حرصه على القيام بالعمل في القوة الكهربائية وقد ابتعثته إلى هذه البلاد الندوةُ العالمية للشباب الإسلامي في الرياض .

وكان أول شيء تفقدناه في الجزء القديم من المدينة (مسجد الجمعة) وهو المسجد الوحيد الذي تقام فيه الجمعة هنا رغم كثرة المساجد ورغم ازدحامه بالمصلين أو قل ضيقه بهم .

وهو متوسط السعة مبني بالعُمُد العريضة من الصخر عليها العقود الهلالية من الصخر أيضاً ومسقف بالأخشاب فوقها ألواح من الحجر .

ومطلي بالجص الأبيض الذين أصله من حجارة بحرية يخرجونها من البحر ثم يحرقونها ويدقونها حتى تصبح صالحة للاستعمال .

وهو مسجد قديم بدليل أنَّ فيه محراباً من الخشب المخروط المتقن الصنعة تم عمله عام ٨٦٣ هجرية أما المسجد نفسه فقد جدد بناؤه وكذلك طلاؤه مما أثر على الكتابات القديمة التي كانت فيه ومحاها .



مسجد الجمعة في مروني

ومن انفراداته أن المنبر المذكور قد غرزت فيه عصا غليظة قديمة جداً من الخشب الأسود أو المطلي بالسواد وتركت على المنبر تبدو لغير الخبير كأنها جزء منه ويستعملها الخطيب ثم يتركها في مكانها ومن الطريف أنه لا يفكر أحد في سرقتها رغم أنها تلفت النظر بشكلها وقيمتها ، وهذا أمر لا يكون كثيراً في غير هذه البلاد في مسجد مفتوح دائماً وليس عليه حراسة ، ومن انفراداته أيضاً أنه كتب على حائطه القبلي (أحمد رسول الله) (محمد رسول الله) .

والمسجد الجامع هذا هو أحد مساجد سبعة تطل على ساحة غير واسعة ، تسمى ساحة الشعب وتكاد تكوّن المساجد المذكورة فيها ثلثي دائرة ، أما الثلث الآخر فهو شاطىء البحر إلا أنه قد بني عليه حائط عريض غير مرتفع . ومن تلك المساجد واحد كتب عليه بالعربية بخط بارز (الله أكبر) وتستعمل تلك الساحة للاجتماعات الوطنية وكانت في القديم قد تستعمل للاحتفال بالمناسبات الدينية التي يحتفل بها المتصوفون وأتباعهم .

ويقدر قطر المساحة المذكورة بأربعمائة متر.

ثم صعدنا إلى الطابق الثاني من مسجد الجمعة فإذا به كالأول إلا أنهم قصروا الصفوف فيه بمقدار صف واحد وذلك حتى لا يكون المصلون فيه واقعين أمام الإمام الذي هو في الطابق الأرضي ، ومن شرفات هذا الطابق يرى المرء مسافات بعيدة من البحر إذ المسجد على شاطىء البحر لا يفصل بينهما إلا شارع ضيق.

والمسجد نظيف ومفروش بالحصر الملوَّنة الجميلة وفيه ساعة ومكبر للصوت.





يؤدون الصلاة في مسجد الجمعة

مع باب الجنان :

اسم الحي القديم في مدينة مروني (باجنان) وحدثني أحد إخواننا أن أصلها (باب الجنان) أو (باب جنان) جمع جنة ولكن العامة خففوها في النطق على مر السنين حتى أصبحت (باجنان).

ودخلنا باب الجنان مع أحد الشوارع التي ليس عليها أبواب، وكان حياً غريباً عجيباً إذ شوارعه ضيقة جداً، ولكنها نظيفة نظافة شوارع المدن الحديثة أو أكثر وهي مرصوفة بالحجارة أو بالبلاط الأملس، ولا ترى فيها شيئاً يؤذي النظر من قذى أو وسخ أو ما يشبه ذلك.

وهو ظليل رغم كون الوقت ضحى. وذلك لأن ضيقه وتلاصق بيوته وارتفاعها نسبياً يمنع عنه الشمس فلا تُصيب من فيه لذلك تجده بارداً ولكنه ليس رطباً ثقيل الرطوبة وفيه شرفات في أعلى البيوت تكاد تتلامس، وهي تشبه الشرفات التي كانت مستعملة في بيوت الحجاز قبل العهد الأخير الذي استغني فيه عنها بالتكييف الهوائي.

وليس ذلك هو الشيء البارز الوحيد في بيوت هذا الحي العجيب، بل إن هناك في أسفل البيوت عند المداخل ما يشبه الكراسي من بنيان البيت نفسه معدة لجلوس الرجال عليها في وقت الفراغ ولم نر عليها أحداً من الجالسين لأن الوقت كان وقت عمل إلا من قلة قليلة منهم. وهذه المجالس المبنية قد نجد شبيهاً لها أمام البيوت في مدينة (الطائف) القديمة.

والذي يجلس على تلك الكراسي الحجرية لا تمسه الشمس لأن الشرفات العالية البارزة في هذه الشوارع الضيقة تحجبها عنه.

ورغم أن المطر غزير على العاصمة فإنك لا تجد في هذه الأزقة نقطة بلل



من الأزقة الضيقة في الحي القديم في مروني.

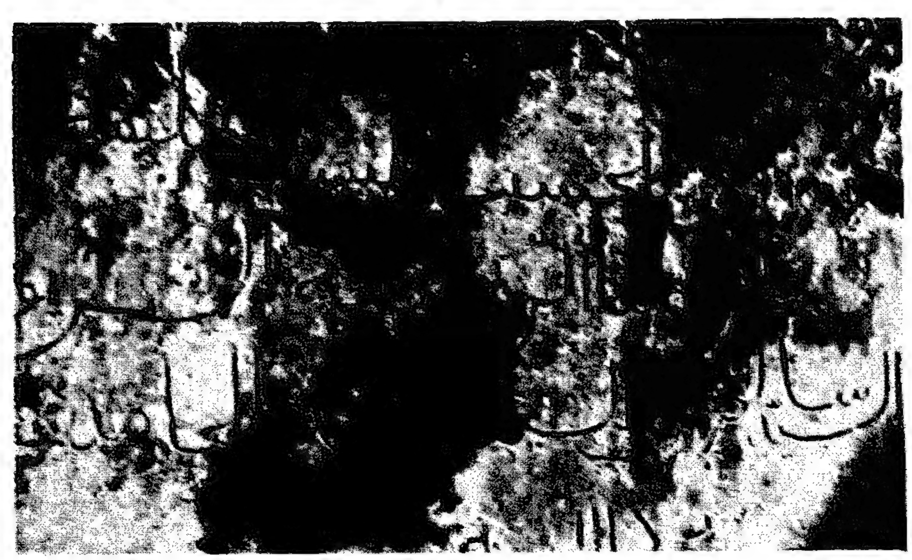
واحدة وذلك لأن المدينة مبنية على سفح جبل ابتدأ صعوده من شاطىء البحر واستمر في الصعود حتى إذا نزل المطر مرَّ بهذه الأزقة فغسلها غسلاً وذهب بدرنها إلى البحر.

وقادنا التجوال في هذه الأزقة الجميلة الغريبة التي تكثر فيها الالتواءات والانحناءات حتى وصلنا مسجداً عليه آثار العناية ظاهرة قال السيد (عبدالله العيدروس) إنه مسجد الشاذلية وإنه بني على قبر شيخ الشاذلية في هذه الجزيرة في زمانه وقد وجدت كتابة على مدخله نصها : (رياض الجنة ، زاوية العارف بالله السيد محمد بن الشيخ احمد بن الشيخ أبي بكر بن سالم) ولم يذكر تاريخ وفاته ولا تاريخ بناء المسجد ، ولكنني رأيت في جانبه مظاهر الوثنية والتمسك بالخرافات واضحة فالقبر قد رفع إلى مقدار وجه الرجل ، وعليه كتابات

متعددة ، وعلى الغرفة التي يقع فيها الفاظ من ألفاظ الصوفية توحي بالعناية بآثار أولئك المشايخ إضافة إلى عدد من الرجال الذين رأينا أحدهم واقفاً أمام القبر كأنه يدعو أو يبتهل ، والباقون راقدون في المسجد وثيابهم متسخة وآثار العناية بمظاهرهم الخارجية مفقودة .

وقد أخبروني أن صاحب هذا القبر يسمى الشيخ المعروف وان بعض الناس تعتقده في الولاية . فأسفت لهذه الأمور التي تخالف روح النقاء والصفاء في العقيدة الإسلامية التي تجرد القلب من التعلق بأحد غير الله تعالى ولا تجعل بين المخلوق وخالقه واسطة من ميت أو مخلوق حي أو غير ذلك . وذكرت أن أحد المساجد الواقعة على الساحة الوطنية يسمى (مسجد القادرية) وإن وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية اسمه (كعب اليشرطي) وأنني عندما سألت عن معنى هذه النسبة قالوا : إنها إلى طريقة صوفية تسمى اليشرطية .

وعدنا من طريق بل من طرق غير التي دخلنا منها إلى هذا الحي ، وقد لاحظنا أن كثيراً من الجدران قد نما النبات في عرضها وذلك للخصب وكثرة نزول المطر فيبدو النبات كأنه معلق في الجدران .



بعض الكتابات العربية على مقابر قديمة



سوق في إحدى جزر القمر

أدب القمريين :

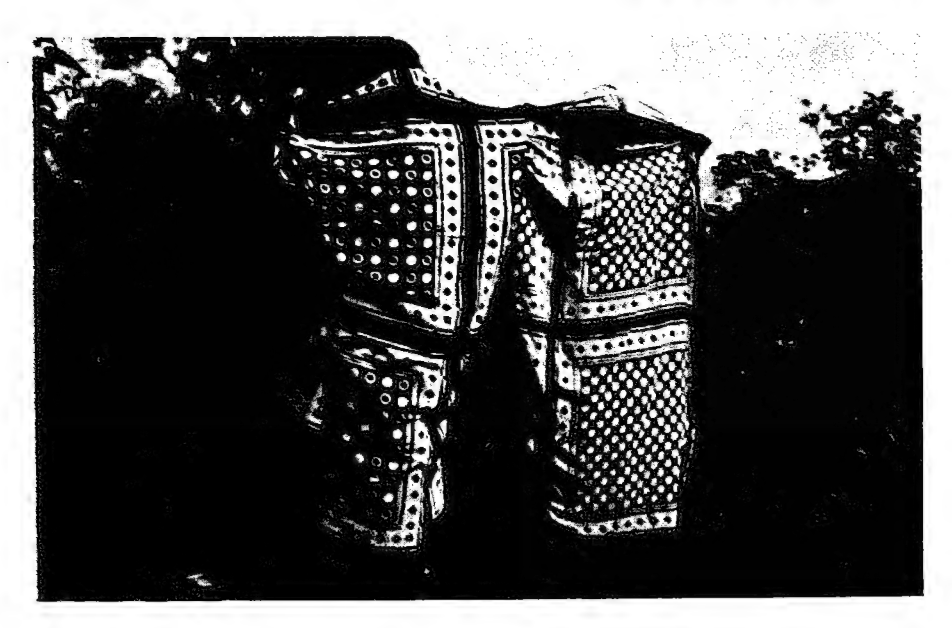
تأكد عندي ما لاحظته من قبل عن أدب القمريين الجم ، وأخلاقهم الفاضلة ، التي يفوقون بها كثيراً من الشعوب الأسيوية والإفريقية فقد لاحظت أشياء حميدة من آدابهم وسلوكهم وتصرفاتهم وسألت عنها بعض الأخوان العرب المقيمين هنا من غير القمريين فأيدوا ما رأيته .

فقد لاحظت أنهم لا يسألون أو يستجدون الغريب كما يفعل غيرهم كما أنهم لا يتبعونه ويتجمعون حوله كما يفعل بعض الفضوليين في الشعوب الأخرى . وانما ينظرون إليه بأدب وفي حدود اللباقة ، كما لاحظت أنهم لا يتطفلون بالإسراع بسؤاله عن بلاده أو مقصده أو كيف كان مقدمه .

ومن ذلك أن المخاصمة والمشاكسة عندهم قليلة أو نادرة ، وهم في أسواقهم لا تجد بينهم اعتداء من بعضهم على بعض في المشي أو رفع الأصوات باللغو من القول .

ونساؤهم محتشمات أغلبهن متحجبات ما عدا الوجه والكفين وبعضهن يسارعن بصرف وجوههن عن الغرباء حتى لا يقع نظرهن عليهم ولا أنظارهم على وجوههن وكن فيما رأينا في بعض الأرياف يتحجبن حجاباً عجيباً إذ كانت الواحدة منهن تلبس ما يشبه الرداء المغلق وتخفضه عن وجهها حتى إذا قابلها الرجال الأجانب أو شعرت أن أحداً منهم ينظر إليها رفعت مقدمته بيديها كلتيهما حتى يكاد يصل إلى محاذاة العينين ويلتقي بغطاء الرأس والجبهة فلا يرى من وجهها شيء ولكن ذلك قلّ الآن .

وأما اللباس العصري للنساء فهو نادر إلا في المتعلمات أو الموظفات وعددهن لا يكاد يذكر .



طريقة الحجاب عند التقاء المرأة بالرجال الأجانب.

حتى أطفالهم لم أرهم يتابعون الغرباء ولا يؤذونهم ولا يسخرون من مظاهرهم أو أشكالهم ولا يستجدونهم أو يتطفلون عليهم ، وهم إلى ذلك ذوو مظهر نظيف ، وعافية جسمانية ظاهرة .

وعندما خرجنا من الحي رأينا على مشارفه بناء قديماً عربي الطراز ، نجدي الشرفات ، قالوا : إنه بناء قديم كان يستعمل للبريد ثم نقل منه إلى بناء أحدث منه . مطل على ساحة المحافظة وكان لا بد لنا إذاً من الوصول إلى ساحة المحافظة ووجدناها ساحة متوسطة السعة تحيط بها الدوائر الحكومية والعامة وكلها بدون استثناء قد كتبت عليها أسماؤها باللغة العربية بعضها مقروناً بالكتابة بالفرنسية وبعضها بالعربية وحدها ، وفيما بينها بعض الحدائق الصغيرة والزهور المغروسة ، وأشجار الظل الضخمة ..



مقر الشرطة في جزيرة القمر الكبرى

وقرأنا من ذلك (البنك القمري) و(البريد والهاتف) و(معهد القروض وإصدار الوثائق المالية) و(اللجنة الإقليمية) لمروني بمثابة المجلس البلدي و(الوثائق الوطنية).



مكتب البريد في مروني

جلسة مع رئيس الجمهورية :

كان البرنامج الذي وضعته إدارة المراسيم في رئاسة الدولة يتضمن مقابلة رئيس الجمهورية ولما أخبرتهم بأني لست موفداً رسمياً من جلالة ملك المملكة العربية السعودية إلى رئيس الجمهورية في هذه البلاد أجابوا بأن الرئيس يود شخصياً مقابلتك والحديث إليك.

فقلت في نفسي ثم لأخي السفير عبد الوهاب الدوكري إن واجب اللباقة وقد أضافتني الدولة أن ألبي رغبته وان كان في ذلك خرق لقواعد السلوك السياسي إذ هو لم يقصد أن يستقبلني للسلام لمدة قصيرة، وإنما أراد أن يشرح لي سياسة (جزر القمر) كما علمت.

وفي الساعة الخامسة إلا ربعاً حضر إلينا مدير المراسم، وركب معنا في السيارة ولم يكن معي غيره الا السفير عبد الوهاب الدكوري ممثل الرابطة في منطقة المحيط الهندي. وخلفنا سيارة أخرى تحمل بعض المرافقين من الدولة

الذين كانوا لا يفارقونني في العادة ، وقد أُوعز إليهم أن يتخلفوا عندما وصلنا إلى بوابة القصر .

وحتى سيارتنا لم تدخل القصر وإنما وجدنا عند البوابة الخارجية مساعد مدير المراسم وبعض الموظفين والجنود فترجلنا من السيارة ودخلنا البوابة الخارجية فوجدناهم قد نصبوا في الحديقة عدة مقاعد بجانبها الموائد قد صفت عليها المكسرات والمأكولات الخفيفة مثل البسكويت وأطعمة بحرية خفيفة إلى عدة أنواع من علب التبغ الذي عافاني الله منه .

وكانت الحديقة غير كثيفة الشجر بل كانت تنتشر فيها أشجار النارجيل وأشجار ظل أخرى وأرضها كثيفة الخضرة منسقة .

فجلسنا على المقاعد ، وبعد هنيهة أقبل الرئيس خارجاً من البوابة الداخلية للقصر إلينا هاشاً باشاً ، وكان يرتدي بدلة بسيطة من قميص طويل وسروال مثله دون رباط عنق وقد علق فوق إبطه الأيسر علبة صغيرة أعتقد أنها مسدس لا يفارقه كما قيل لنا .

كان مظهره مظهر الصوماليين إذ هو أسمر شديد السمرة ولكنه لا يصل لونه إلى لون الإفريقيين من البانتو ولم يكن فارع الطول ، وكان حاد النظرات . قوي الملاحظة ، قسمات وجهه لاتنطق بالبشر والارتياح بل ربما كانت تنضح بالشك .

هذا كان أول مره ، ولكنه بعد فترة من الحديث إنشرح صدره ، واطمأن خاطره ، وبان السرور على وجهه وإن لم تفارقه الصرامة ، والنظرة الجادة .

وقد سكت في أول الأمر فابتدأت بأن شكرت له كريم الضيافة والعناية ، وبأنني قد شعرت عندما وصلت إلى (جزر القمر) بأنني كأنما وصلت إلى

بلادي ، وقلت : إنني في الواقع قد قررت زيارة (جزر القمر) لأن المرء إذا كان له قريب أو صديق حبيب ومر ببيته لا بد له من أن يعرج عليه ويحييه ، فأنا كنت في زيارة لجزيرة موريشيوس لحضور مؤتمر إسلامي عقد هناك . وفي طريق العودة قررت أن أزور (جزر القمر) زيارة خالية من الرسميات ، ولكنكم تفضلتهم باستضافتي وإكرامي حتى شعرت بأنني لست ضيفاً وإنما أنا واحد من أهل المنزل .

ثم إنني التفت إلى السيد محمد الحسن شنقاما مدير الدائرة العربية بوزارة الخارجية ليترجم كلامي للرئيس فقال الرئيس : إنني فهمت ذلك كله ، وتبيّن أنه يحسن فهم العربية ولكنه لا يحسن التكلم بها .

وهذا ملخص لما دار من حـديث أو مختصر له لأن الحديث دام ساعة كاملة متصلة وتطرق إلى نواحٍ شتى من سياسية وغيرها .

بدأ الرئيس كلامه باستعراض الماضي فقال : إن الرئيس السابق «أحمد عبدالله» قد أعلن الاستقلال من جانب واحد فسحب الفرنسيون كل ما في البلاد من مال وآلات ورجال وفنيين تابعين لهم إلا أنهم كانوا مازالوا موجودين في البلاد يتدخلون في شئونها فرأيت أنه لا بد من تصحيح الأوضاع فقمت بالحركة التصحيحية وأخرجت الفرنسيين وقطعت العلاقات معهم لأن وجودهم لم يصبح فيه أي فائدة للبلاد .

وكانت البلاد في ذلك الوقت خالية من كل شيء فالخزانة ليس فيها فرنك واحد ولم يكن يوجد لدينا حبة أرز ولا كيس دقيق ولا ملابس ولا عملات أجنبية نشتري بها ما نريد من ضروريات الحياة للشعب ، فسارعت الصين — يريد الشيوعية — إلينا فأرسلت ألفي طن من الأرز وبعض الملابس وطلبت فتح مكتب لها في البلاد فلم نستطع الممانعة إلا أن عدد أعضاء المكتب محدود

جداً ولا يوجد لدينا منهم خبراء ولا فنيون وقال إنهم لا يتدخلون في شؤوننا الداخلية .

وبعد فترة جاءنا رئيس صندوق التنمية الكويتي عبد اللطيف الحمد بطائرة خاصة وعرض علينا المساعدة فشكرناه فأرسلوا لنا باخرة فيها قمح وسكر وملح واسمنت — وفتحوا لهم مكتباً رحبنا به .

ثم اتصلت بنا حكومة السنغال واتفقنا معها على أن تمثلنا في كل البلاد التي لهم بها سفارات وبهذا السبب وفرنا نفقات فتح سفارات لنا في الخارج وطبيعي أن تفتح لها مكتباً هنا وهذا هوكل ما لدينا من الممثليات : ثلاث فقط وهي ليست سفارات ولكن بعثات محدودة الأفراد .

وقال : قد اتصل بنا الاتحاد السوفيتي أكثر من ثمان مرات عارضاً المساعدة وطالباً فتح ممثلية له فلم نوافق على ذلك وفي آخر مرة من محاولاتهم أرسلوا لنا فريقاً منهم دون إذن مسبق فأرجعناهم من المطار لأننا نعرف أن الاتحاد السوفيتي يتدخل في الشئون الداخلية حتى الليبيين مع أنهم اخواننا فإننا لم نوافق على فتح مكتب لهم لأنهم يتدخلون في الشئون الداخلية .

وقال : لقد بلغ عدد الدول التي طلبت منا أن نسمح لها بفتح سفارات أو مكاتب (٤٩) دولة فلم نوافق على ذلك . لماذا ؟ لأنني إذا سمحت لهذا العدد بذلك فانه سيكون لكل سفارة جهاز خاص وأتباع تحتاج منا محاولة صدهم عن التدخل في شئوننا إلى جهاز كبير منا يتابعهم ويرد مكائدهم ونحن لسنا في وضع اقتصادي ولا سياسي يمكننا في الوقت الحاضر من ذلك .

وقال : لقد بلغني أن بعض الناس قد نشروا في المملكة دعايات ضدي بأنني ضد الدين — وأنا في الواقع لست ضد الدين ولكن ضد البدع التي هي قائمة في هذه البلاد وضد التعلق بالأنساب والأحساب والخرافات التي ينهي

الإسلام عنها ، وهم يريدون استمرارها وأنا أريد إيقافهم مثل اعتقادهم البركة في المشايخ والقبور حتى إن بعضهم إذ تفل يسارع الناس إلى أخذ ذلك ويلطخون أيديهم به ومثل كون بعض المشايخ إذا توضأ وزع على الناس الماء الذي استعمله في الوضوء يشربونه يزعمون أنه يبرىء من الأمراض وقال : إنني أؤمن أنه لا يجوز في الإسلام أن يكون بين المسلم وبين ربه واسطة من المخلوقين وقال : إنني أرحب بفتح مكتب سعودي في جزر القمر أو إرسال بعثة سعودية إلينا وأرجو إبلاغ المسئولين في المملكة ذلك .

فقلت له : إنني إذ أشكر لفخامته هذا الإيضاح الذي سمعته — أخبره أنني لست موفداً رسمياً من المملكة إلى هذه البلاد فقال : أعرف ذلك ولكنني أتكلم معك كما يتكلم الأخ المسلم مع أخيه المسلم .

فقلت : لعل الأفضل أن تتصل حكومة (جزر القمر) بحكومة المملكة بالطرق الرسمية المعتادة وتطلب منها أن ترسل وفداً رسمياً توضح فيه للمملكة العربية السعودية كل ما ترون إيضاحه عن سياستها .

وفي ختام اللقاء طلب مني الدعاءَ في الحرمين الشريفين فودعته وانصرفت كما أخبرني أنه أمر بأن تترك لي الإذاعة مفتوحة على الهواء هذه الليلة لكي أتكلم فيها عن أثر الإيمان والإسلام في النفوس لأنه — كما قال — قد تابع كلماتي وخطبي في المساجد والمدارس فرأى أنه ينبغي أن يسمعها من هم خارج العاصمة وقد فعلتُ .

وفي الليل أرسل إليَّ السيد (كعب اليشرطي) وزير الدولة لشئون الرئاسة وقال : يقول لك الرئيس إننا كنا على عزم إرسال وفد رسمي إلى القاهرة في مهمة رسمية وإنه سيغادر البلاد بعد يومين فماذا لو عرج على المملكة واتصل بوزارة الخارجية في جدة ؟ فهذا مما يوفر علينا — اقتصادياً — إرسال وفد

يسافر من جزر القمر ؟

فقلت له : إن الوقت قصير وإن إرسال وفد رسمي يحتاج إلى موافقة الجهات المختصة على استقباله وترتيب اللازم لذلك في وقت كاف .

فقال : إذاً يمكن للوفد أن يصل إلى مكة للعمرة ويتصل برابطة العالم الإسلامي .

فقلت : هذا مناسب فطلب مني إخبار الرابطة بذلك وأن تتوسط لدى الخارجية لمنح أعضاء الوفد وهم ثلاثة تأشيرة الدخول لأداء العمرة .

وقد اتصلت بالرابطة هاتفياً حال وصولي الرياض وأخبرتهم بالأمر .

هذا ولا بد من ذكر خلاصة لما كونته من رأي حول الوضع في جزر القمر قبل إبداء الرأي في الإجراء الذي ينبغي إتخاذه نحو ذلك .

الحكم القائم في البلاد حكم فردي بكل معنى الكلمة حيث أن جميع السلطات والصلاحيات الصغيرة والكبيرة هي بيد رئيس الجمهورية « علي صالح » ولا يملك غيره شيئاً من ذلك حتى نائبه والوزراء أو على الأصح الوزيرين الموجودين في الدولة لا يملكان شيئاً .

فعلى سبيل المثال : يوجد وزيران اثنان للدولة فقط أحدهما وزير الدولة للشئون الخارجية ويتبعه عدة إدارات بمثابة الوزارات في الدول الأخرى ووزير الدولة للشئون الداخلية ويتبعه إدارات أخرى كذلك . وهذه الوزارة وزيرها الشيخ عبدالله محمد وهو رجل صاحب دين وفضل ولكنه رغم مقامه لم يستطع أن يقابلني لأن الرئيس لم يأذن له بذلك وأرسل إليّ سراً يخبرني بذلك ولم أره إلا في صالون الشرف في المطار عند السفر دون أن يتمكن من التحدث معي لأن هناك عدداً من المسئولين من جهة الرئيس .

أما بقية الموظفين فلا حول لهم ولا قوة . وقد أحيل عدد منهم على المعاش دون أن يصرف لهم معاش بحجة أنه لاتوجد نقود بل إن الموظفين الذين لا يزالون في الدولة قد مضى على بعضهم أكثر من ثلاثة أشهر دون أن تصرف لهم رواتب .

لذلك لم أجد للرئيس من القمريين أهل البلاد من يثني عليه حتى بعض المقربين منه يسبه في الخفاء إلا أنهم لا يستطيعون أن يعلنوا شيئاً لقوة شخصيته وشدة حذره وسوء حالة المعتقل الذي يعتقل فيه من يخالفونه .

وقد جمع حوله طائفة من الشباب قال إنهم يعاونونه وأعمالهم تتسم بالتهور وعدم الحكمة ومن الأمثال البسيطة على ذلك أنهم ذهبوا إلى المساجد وأخذوا السبح من المصلين وقالوا التعبد بالسبحة بدعة وهي من علامات الشعوذة والخرافة .

كما أنه أمر بأن تكون خطبة الجمعة باللغة القمرية بحجة أن الخطب العربية الموجودة لا يفهمها الناس .

بقي سؤال مهم وهو هل الرجل شيوعي ملتزم ؟

والجواب : حسبما فهمته من مقابلتي له ومن كلام بعض من اتصلت به من معارضيه ومن العاملين معه أنه ليس شيوعياً ملحداً ولا هو بالرجل المتدين أو المعتدل بل هو رجل يبحث عما يقوي سلطته ويحارب التقاليد والأعراف التي درج الناس في بلاده على اعتبارها من الدين مثل الاعتقاد في المتصوفين ونحوهم ولكنه يفعل ذلك عن غير تدين وإنما لكي يحطم قوة معارضيه . وربما يصح القول بأنه يشبه من بعض الوجوه بعض الشخصيات التي ابتليت بها البلاد العربية والإسلامية بعد استقلالها وتحريرها من الاستعمار مثل عبد الكريم قاسم في العراق .

لذلك أرى أنه ينبغي ألا يترك وشأنه حذراً من ألا يجد له ملجأ إلا عند الشيوعية فيمهد نفوذه للشيوعية أن تتغلغل في هذه البلاد الإسلامية التي لا يوجد لها ما يحميها من مثل هذه المبادىء لأنها منعزلة في الموقع ضعيفة في الثقافة العصرية ، منهارة إقتصادياً مما يسهل عزلها عن العالم الإسلامي عزلاً تاماً ثم القضاء على المقاومة الإسلامية قضاء تاماً لا قدر الله .

وأرى أن يُتَصل به إتصالاً حذراً عن طريق شخصية لبقة تحاول تعديل مسار سياسته بالترغيب والترهيب بأن يبذل له بعض العون المادي ولكن على نطاق ضيق جداً حتى يعرف أثر ذلك في المستقبل كما تقدم مساعدات عينية عاجلة لأهالي هذه البلاد الذين هم مسلمون ١٠٠٪ وهم بحاجة إلى تلك المساعدات مثل أن يقرر لهم خمسمائة طن من القمح وخمسمائة طن من الأرز كل شهرين ومثل إرسال مساعدات طبية والمساهمة في بناء بعض المشروعات العاجلة كبناء مدرسة ثانوية مثلاً في كل جزيرة من الجزر الثلاث وارسال بعض المدرسين الموثوق بهم لكي يقوموا بتدريس اللغة العربية ويكونوا عوناً للخير فيها .

ويمكن إرسال وفد رسمي لتقدير الاحتياجات المادية لتلك البلاد وترتيب أهميتها أما إرسال النقود وحدها على شكل مساعدة عاجلة فان ذلك غير مجدٍ إذ ربما استعمل في غير ما أريد له.

وفي أثناء الكلام كان الحديث لا يخلو من عبارات المجاملة ونحوها من العبارات الخفيفة مثل قوله : كيف وجدت جزر القمر؟ وقولي : إنها جميلة جداً ، وأجمل منها عواطف أهلها ! فقال أحد الحاضرين : هذا شعر .

وبعد أن خرجت من عنده ووصلت إلى قصر الضيافة بعد ساعة جاء الأخ

(إمباي أحمد) وقال : إن الرئيس مسرور لما دار في المقابلة وإنه قال له : إن الإنسان إذا تحدث مع شخص مسلم يفهم كلامه ويعلم ما يريد ويرمي إليه فإنه كإنما يكون قد ألقى عن كاهله حملاً من الهم فقلت له : شكراً ، والفضل لله ثم لفخامة الرئيس .

وفهمت السبب في نفسي وذلك أنه من الرجال الحذرين الذين يشكّون في أكثر الذين يتصلون بهم في أن تكون تصرفاتهم وما يرمون إليه من حديثهم يراد به نفع خاص لهم ، أو إلحاق ضرر بما يرمي إليه الرئيس . أما بالنسبة إلى الحديث معي فإنه ليس في الأمر شيء من ذلك بل إنه يعلم أنني أكلمه من باب النصح ، وأستمع إليه استماعاً مجرداً من الغرض الشخصي .

على متن الجبـــل :

منذ وصلت إلى جزيرة القمر الكبرى وأنا أحاول أن أصل إلى قمة هذا الجبل التي ترتفع فوقنا ، وقد لاحظت أن البرنامج ليس فيه ما يحقق ذلك ، فطلبت منهم زيارته فوضعوا في مساء هذا اليوم زيارة لإحدى القرى فيه وكان المقرر أن تستغرق زيارة رئيس الجمهورية ربع ساعة نصعد بعدها إلى البلدة المذكورة غير أن الزيارة استغرقت ساعة فكان الوقت قصيراً قبل الغروب .

ومع ذلك سارعنا إلى الارتقاء فيه حيث وجدنا رفقاءنا في السيارة الأخرى ينتظروننا عند سفحه وسرنا ثم سرنا وسط قرى وبلدان غارقة في الغابات الكثيفة والأعشاب الملتفة ، وكلها ندية الهواء رطبة الجواء بل إن تربتها تنضح بالماء ولكن الليل بدأ في إرسال نذره من جهة الشرق ، والشمس قد انحنت على البحر تقبله ، وستغرق في قبلاته بعد لحظات لذلك بدأنا العودة قبل أن نصل الهدف ، وإن كان جزء من هدفنا في استجلاء معالمه قد تحقق إلا أن سيرنا كان عجلاً واستجلاء الأراضي والأناسي فيه كان مرتجلاً ووجدنا فيه ما وجدناه في أكثر هذه الجزيرة من طيب الشعب ، وكثرة الخصب .

وقد مررنا بقرى لم أذكر أسماؤها إذْ لم أستطع أن أستطلع أعلامها .



غابة جميلة على جبل الجزيرة الكبرى

وكانت العودة إلى (قصر الضيافة) بعد الإظلام. ولنا موعد مع الإذاعة والإعلام.

في ساحة الشعب :

امتلأ مسجد الجمعة إلى آخره بالمصلين صلاة العشاء وهو المسجد المطل على ساحة الشعب كما أسلفت وقد طلب مني الحاضرون أن أؤمهم في الصلاة فأبيت ، إلا أنهم ألحوا في طلبهم فلبيت ، ولم يكن ذلك من عادتي ولا من سيرتي بل إنني أرى أن الإمام الراتب هو أحق بأن يؤم في الناس إذا كان هناك ضيف أو غريب فهو أحق بأن ينوه به ، ويقدم في مثل هذه الحال ولكنهم دفعوني إلى المحراب دفعاً ، ولم أستطع رداً ولا منعاً .

وصليت بهم صلاة العشاء ، وبعد ذلك مباشرة أخذوني إلى مكبرات للصوت قد نصبت وإلى مسجلات قد رفعت ، ورأيت الجمهور من الناس قد خرجوا من المسجد ليكونوا في الساحة وأقبل غيرهم من سائر البلدة راجلين وركبانا في سياراتهم .

وقال لي مسؤول في الإذاعة : إن الكلام سيكون على الهواء وإن الإذاعة مفتوحة الآن ثم بدأ يتكلم بلغته يمهد لذلك .

ووقف بجانبي فتى في حدود العشرين من عمره وهمس في أذني قائلاً : إنني المترجم . وتوسمت فيه أنه لا يحسن الترجمة كما ينبغي وكأنما فهم مني ذلك فقال : أرجو أن يكون كلامك سهلاً مثل كلامك في مسجد (اكوني) أمس فقد فهمته كله ، ولم يكن الوقت يتسع لاختيار مترجم آخر ، أو لم يكن من الممكن ذلك حتى لو اتسع الوقت ذلك بأن اختيار هذا المترجم قد تم بأمر رسمي ، ربما لأن بعض المترجمين الذين يحسنون العربية أكثر منه لا يوثق بهم عند المسئولين .

وهكذا بدأت الكلمة دون تقديم من المترجم للخطيب واستمرت الخطبة أو الكلام مدة خمس وأربعين دقيقة ، وكان كلاماً مرتجلاً غير مُعدٍّ تضمن أول ما تضمن أثر الإسلام في العرب والمقارنة بين ما كانوا عليه قبل الإسلام عندما غزا الأحباش بفيلهم أرض مكة عام مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بما أصبحوا عليه بعد ذلك بنحو ثمانين سنة حينما خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله سيوفهم في أيمانهم ، وإيمانهم في قلوبهم يدكون أسوار أكبر إمبراطوريتين معروفتين في الدنيا في ذلك الوقت وهما إمبراطورية الروم والفرس .

ثم بينت لهم أثر الإسلام والإيمان في النفوس التي تأخذ به ظاهراً وباطناً قولاً وعملاً سياسة وتشريعاً وعندما يلتزم به الأفراد من حاكمين ومحكومين

ومن رعاة ومرعيين .

ثم ذكرت لهم أن ذلك يقتضي أن يأخذ المسلمون بجميع الأسباب التي يستطيعون الأخذ بها كما في الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وهذا أمر ظاهره الوجوب ، وقوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) والإحسان هنا عام يشمل إحسان العمل للدنيا وللآخرة. وفي الحديث (استعن بالله ولا تعجزن فإن أصابك شيء فلا تقل لو أنني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ولكن قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان) ،

وقبيل انتهاء الخطاب تقدم رئيس القضاة السابق السيد محمد عبد الرحمن ويسمونه هنا (قاضي القضاة) وانتزع مكبر الصوت من المترجم ، وقام مشكوراً بتقديمي للمستمعين في الإذاعة ورحب بإسمهم جميعاً فشكرته على ذلك وقلت له : إنني لا أشعر أنني في بلد أجنبي وإذا كان الأمر يحتاج إلى ضرب مثل من الأمثال على ذلك فإنني أقول ماذا عند ما كنا نصلي في المسجد لو سمعنا جميعاً خبراً بانتصار المسلمين في الفلبين أو في أي بلد آخر يحارب فيه المسلمون أليس سرورنا بذلك يكون واحداً ومشتركاً ، والعكس صحيح ؟ فصفّقوا لذلك فقلت لهم : إن مشاعرنا واحدة وأحاسيسنا واحدة وآمالنا في المستقبل واحدة ثم شكرتهم ثانية ودعوت للجميع بالتوفيق .

يوم الاربعاء : ٩ صفر ١٣٩٨هـ ١٨ يناير ١٩٧٨ م .

وداعـاً يا جـزر القمـر :

لم آسف لفراق بلد أجنبي حللته منذ عدة أسفار مثل ما أسفت على فراق جزر القمر مع أنني كنت أظن عندما حبست فيها أكثر مما قدرته من أيام بسبب عدم وجود طيران منها أنني سوف أضيق بالإقامة بها ذرعاً ولكن أصبح

العكس هو الصحيح وأجدني الآن وقد أزف الترحل في صباح هذا اليوم قد ألفت هذه الجزيرة الجميلة ونعمت بصحبة أهلها الطيبين.

وكان موعد قيام الطائرة في الساعة السابعة والنصف ولم نغادر دار الضيافة إلا في تمام الساعة السابعة وذلك لقرب مكانها من المطار ولأن الطائرة حكومية وأنا ضيف الحكومة لذلك لم يخش أصحابنا في المراسم أن تفوتنا الطائرة.

وخرج معنا من خرج منهم إلى المطار، وكان من المصادفة التي عرفتها فيما بعد أن ضابط الجوازات الذي سهّل لي دخولي ورافقني إلى أن أنهى الاجراءات كلها هو والد الأستاذ محمد الحسن شنقاما مدير الدائرة العربية بوزارة الخارجية وكان الأستاذ محمد الحسن المذكور بين الذين خرجوا معي إلى المطار جزاهم الله خيراً وعندما أقبل ذلك الضابط التفتُّ إلى الإخوان الذين معي وقلت لهم: إنني أشكر لهذا الرجل الطيب حسن معاملته لي عندما وصلت إلى المطار فأجاب محمد الحسن: إنه والدي! فقلت: ليس بعجيب أن تجتمعا على كرم الخلق، ولطف المعشر إذاً.

إبعـاد المبشريـن:

قال لنا إخواننا ونحن في القاعة الخاصة بالمطار: إنه سيسافر على متن طائرتكم قوم من المبشرين طردناهم من هذه البلاد، وسوف ترون ذلك بأنفسكم. فقال صديقي السفير عبد الوهاب الدوكري: إن هذه فرصة لكي نأخذ لهم صورة نسجل بها ذلك فأجابوا: إن الصورة لا تعني شيئاً لأنهم ليسوا بملابس القسس والرهبان ولا في أعمار المبشرين والكهان: إنهم قوم من النساء والرجال بل من الفتيان والفتيات يتبعون مجلس الكنائس العالمي ومقر رئاستهم في مدينة ممباسا في كينيا وقد جاؤا إلى هذه البلاد بصفتهم مدرسين متبرعين لا بصفتهم دعاة للنصرانية عاملين ولكن تبين أن التدريس إنما هو مهنة بمثابة

الغطاء أما مهمتهم الحقيقية فهي الدعوة إلى دين المسيح ومحاولة فتن الشباب عن دينهم فكانوا إذا سمعوا بمريض زاروه وأهدوا له الهدايا ثم دعوه إلى ما يريدون ، وإذا رأوا شاباً تائهاً أرسلوا إليه إحدى الفتيات الجميلات من جماعتهم فكلمته ورافقته حتى تشعر بأنها قد فتنته ثم تقوم بعملها الذي أوفدت من أجله .

قالوا : وعندما تبين للمسئولين في جزر القمر أن قدوم هؤلاء القوم وقيامهم بالتدريس ليس لوجه الله ولا هو خالص للإنسانية كما أظهروه قرروا إنهاء وجودهم في هذه البلاد ، وقسموهم على فريقين أحدهما يسافر اليوم والثاني : يسافر بعد ذلك .

وعندما صعدنا الطائرة وسط وداع إخواننا الوداع الحار وكانوا قد حجزوا لي مقعداً منفرداً في مؤخرة الطائرة لأنه المكان المفضل في الطائرات المروحية مثل طائرتنا هذه التي هي من طراز : دي ، سي ، أربعة . ذات المحركات العادية الأربعة جعلت أراقب من مكاني أولئك الجماعة من دعاة النصرانية وإذا بأكثرهم من الشبان ، والفتيات فيهم أكثر من الفتيان وقائدتهم أمرأة نَصَف محنكة مجربة يظهر أنها واسعة الحيلة ، وتبين بعد ذلك أنهم كنديون أي : من كندا .

وقد لاحظت والطائرة تهم بالإقلاع أنهم أخذوا يلتقطون عشرات الصور لما يستطيعون أن يصوروه في هذه الجزيرة ، وكان في المقعد الذي أمامي منهم فتاة شقراء شابة في حدود العشرين من عمرها جميلة المظهر ، سمحة الوجه ، طيبة القسمات كانت بجانب النافذة وبجانب مقعدها رجل في حدود الأربعين وقد رأيتها تنظر وتنظر إلى الجزيرة والطائرة تسير على مدرج المطار فتغرورق عيناها بالدموع ثم ينسكب منها الدمع وعندما أقلعت الطائرة أجهشت بالبكاء

وأستندت إلى زميلها الذي بجانبها فأخذ يقبلها ويحاول تهدئتها وقلت في نفسي : أهذا كله إحساس بالألم لفراق جزر القمر كما أحسست أنا بالألم لفراقها ؟ أم ذلك حرصاً على أداء عمل في خدمة المسيحية اعتقدت هذه الفتاة الشابة أنه واجب مفروض عليها ؟ أم ذلك لأمر آخر لا أعرفه ، وإنما يعرفه من عرف نزوات الشباب في ديار الاغتراب ؟ ثم قلت : الله أعلم .

في سمـاء الجزيـرة :

من حسنات ركوب الطائرات المروحية القديمة أن المرء يستطيع وهو على متنها أن يستجلي المناظر التي تحته وذلك لأنها لا تسرع ولا ترتفع وهكذا كان في هذه الطائرة فقد ارتفعت في سماء الجزيرة وتوجهت صوب مهب الشمال جاعلة معظم الجزيرة على جهة اليد اليمنى والبحر إلى جهة اليد اليسرى طائرة فوق ساحلها مدة ، وقد كانت المشاهد تحتنا رائعة إذ هي مرتفعات خضراء يرى فيها المرء آثار براكين يبين منها أن بعضها قديم وبعضها حديث لم تعد الحياة بعد إلى مجراه الذي كونته الحمم البركانية وقد امتدت تلك الحمم من فوهة البركان في أعلى الجبل إلى البحر . وقد اقترن حاجب الأرض الأخضر بحاجب البحر الأزرق تحتنا في لونين بديعين منسجمين إلا أن هدير الطائرة واهتزازها إذا جازت بعض السحاب كان يكدر من هذا المنظر الجميل ، ولم يعلن مكبر الطائرة شيئاً من البيانات عن الرحلة وربما كان سبب ذلك أنه لا يوجد فيها مكبر ولكننا عرفنا من المضيف أن مدة الطيران ستكون ثلاث ساعات وثلثاً .

وبعد حوالي ثلث ساعة تجاوزنا الطيران في سماء الجزيرة ودخلت هذه الطائرة المروحية في لجة الفضاء في البحر ولمحركاتها أزيز ولجسمها كله هزيز مقلق . وقد اتجهت إلى الشمال الغربي قاصدة مدينة ممباسة على الساحل الشرقي لقارة إفريقية وفي جمهورية كينيا .

هذا وقد ركب معنا في الطائرة وفد رسمي قمري مؤلف من الأستاذ راشد محمد مبارك مدير الإذاعة والمسؤل عن الإعلام بالوكالة . والأستاذ محمد ناصر وهو خبير زراعي سوداني موفد إلى جزر القمر من الكويت والشيخ محمد شريف مدير مدرسة اكوني الإسلامية .

وقد أنست بالأولين ، وأمضيت جزءاً من الرحلة في الحديث معهما عن شؤون ذات شجون متصلة بهذه الجزر جزر القمر .

في مطـار ممباسـا :

بعد ثلاث ساعات من الطيران وعند الاقتراب من الساحل الإفريقي تكاثفت السحب حتى أطبقت على الطائرة فأخذت تطير في لجة رمادية لا يرى المرء منها شيئاً وهي تضطرب وترتعش ودام ذلك ثلث ساعة حتى نزلت الطائرة عن مستوى السحاب حائمة فوق مدينة ممباسة متدنية للنزول في مطارها الجميل الذي عرفته قبل ذلك عدة مرات ولكن منذ أثني عشر عاماً .

وهبطنا في المطار والمقرر أن ألبث فيه ساعة وعشر دقائق أركب بعدها الطائرة الكينية إلى نيروبي وعلى تذكرتي حجز مؤكد لذلك . ولكن المشكلة أنني لا أحمل تأشيرة دخول إلى كينيا لأنني لم أكن أظن أنني سأعود إليها ثانية في هذه الرحلة ، إلا أن الموظف المسؤول في المطار اطلع على جوازي وأن فيه تأشيرة رسمية مستعملة من سفارة كينيا في جدة فأعطاني تأشيرة دخول لمدة أسبوع مع أنني لن ألبث إلا يومين إذْ سأسافر إلى جدة مع الطائرة الباكستانية يوم الجمعة بإذن الله .

وأسرعت إلى الطائرة الكينية أركبها مع الراكبين ، وكانت نفاثة من طراز : دي ، سي ، ٩ ، فظهرت في عيني كأنها أحدث الطائرات وأنظفها مع أننا في المملكة قد استغنينا عن هذا الطراز النفاث منذ سنسن ولكن كان ذلك

بالنسبة إلى الطائرة القمرية المروحية .

فأقلعت الطائرة الكينية وما أسرع أن ابتعدت عن الأرض ، وارتفعت فوق السحاب ، وكان المضيفون فيها فتيان وفتاة من الإفريقيين وكانت الضيافة للراكب زجاجة من المياه الغازية لأن الرحلة كلها لا تزيد على أربعين دقيقة إلا أنهم نسوا أو تناسوا بعض الركاب فلم يعطوهم من ذلك شيئاً وكنت فيها من القوم المنسيين .

في نيروبـي :

وكان عوداً هذه المرة إلى نيروبي غير متوقع ، ولم يكن في المطار إجراءات إذ الرحلة داخلية وقد جاملوني في مطار ممباسة فلم يفتشوني ولم يسألوني عن شيء .

وقصدت مع سميي وزميلي في السفر المهندس محمد ناصر السوداني إلى فندق من فنادق الدرجة الأولى كبير هو فندق (سكس أيتي) أي : ستمائة وثمانون . وذلك لأن آخر رقم في غرفه هو (٦٨٠) .

وهو كبير حديث فاخر واجرة الغرفة الواحدة فيه (٢٧٠) شلناً إلا انهم أعطوني سعراً خاصاً لأنهم اعتبروا جواز سفري جوازاً سياسياً فكان السعر ٢١٠ مع الافطار أي : حوالي ٧٥ ريالاً سعودياً .

وأسرعت أرتاح في الفندق ثم خرجت مع صديقي الجديد وسميي الأستاذ محمد ناصر إلى مكتب شركة الطيران الباكستانية فحجزت منها إلى جدة بعد غد الجمعة .

ولم أغادر الفندق هذا المساء .

وعندما غابت الشمس وغابت معها النجوم في ستار من الغيوم نُثِرتْ في

أفناء الفندق وأبهائه وفي مطعمه ومشاربه نجوم إفريقية سوداء قد تحلَّت بما استطاعت من الحلي ، وتسربلت بما رأت من الطلاء أنه ينطلي ، فسألت أحد الأصحاب : ما هذا الاستعراض ؟ فقال ما معناه : إنه عَرْضُ الأعْراض !

فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله لقد أخذ المستعمَرون ، من المستعمِرين ما يشين ، وتركوا ما يزين . وذلك فعل القوم القاصرين .

ولم تشذ عن هذه القاعدة عاملة في الفندق قالت إنها من الكيكويو وهي بحق فريدة بين أولئك القوم في الصباحة والملاحة وفي الرشاقة واللباقة فأخذت تتودّد وتتقرب ولم تدر أنها تتقرب إلى غير مقرِّب ، فلما أبْصَرْتُ أقْصَرَتْ ، ثم وَلَّتْ وأدبرت ! ! !

العـودة إلى الوطـن :

وفي مساء الجمعة بعد منتصف الليل عدت مع الطائرة الباكستانية إلى جدة فالرياض . وانتهت هذه الرحلة الجزائرية الزنجية .

لمحة تعريف بجزر القمر

تقع جزائر القمر في مضيق موزمبيق إلى الشمال الغربي من جزيرة مالاجاش (مدغشقر) وإلى الجنوب الشرقي من تنزانيا .

وقد حصلت على استقلالها عن فرنسا في شهر يوليو عام ١٩٧٥ م إذ أعلن ذلك السيد احمد بن عبدالله من جانب واحد وبذلك ولدت جمهورية جزر القمر غير أن جزيرة مايوت لم تنضم إلى هذه الجمهورية وأعلنت الحكومة الفرنسية أن الشعب فيها صوت في استفتاء عام إلى جانب بقاء الجزيرة تحت حكم فرنسا وعَلَّلَ بعض الناس ذلك بأنه بسبب وجود مسيحيين في الجزيرة غير أن ذلك ليس بصحيح إذ أن عدد المسيحيين فيها من المواطنين الأصليين لا يزيد على خمسمائة من مجموع سكانها الذي يبلغ (٥٧) ألفاً على وجه التقريب .

وتتألف جزر القمر من أربع جزر رئيسية هي :

جزيرة القمر الكبرى وتسمى أيضاً «انجازيجه» وفيها مدينة (مروني) العاصمة مساحتها طولاً سبعون كيلاً وعرضها أربعة وثلاثون كيلاً .

الثانية : هنزوان مساحتها ٤٢٤ كيلاً مربعاً .

الثالثة : موهيلي ومساحتها ٢٩٠ كيلاً مربعاً .

والرابعة : مايوت ومساحتها ٢٧٤ كيلاً مربعاً .

وهناك عدد من الجزر الصغيرة أقل شأناً من تلك بكثير وبعضها صغير إلى درجة أنها ليس فيها سكان ويبلغ عدد السكان في جزر القمر كلها حوالي خمسمائة وعشرين ألفاً .

تسميتها :

من الخطأ الشائع أن تسمى « جُزر القمر » بفتح القاف وفتح الراء على لفظ الجزر : جمع جزيرة مضافاً إلى القمر ـــ مفرداً ـــ ذلك بأن وصف القمر هو للجزر هذه وهو بضم القاف والميم ـــ على لفظ جمع قمراء : مؤنث أَقْمر . والأقمر في اللغة هو الأبيض بياضاً غير ناصع ، ومنه ناقة قمراء : بيضاء .

وإذاً فالصحيح في لفظها (جُزُر الْقُمُرْ) والأصح (الْـجُزُر القُمْر) والسؤال المُلحّ هو : لماذا سميت بذلك ؟ ومن أسماها به ؟

والجواب : ليس واضحاً كما أن أشياء كثيرة من أمرها غير واضحة تماماً وانما الذي نعرفه أن جزيرة القُمْر هو اسم أطلقه الجغرافيون العرب القدماء على جزيرة مدغشقر ومنهم المسعودي الذي نقل ياقوت الحموي كلامه في معجم البلدان .

وقد يكونون قصدوا بالقُمْر جبالاً في مدغشقر لونها أبيض ، ثم أطلقت هذه التسمية على هذه الجزيرة لكونها أقرب الجزر إليها أي : الى مدغشقر . ثم بقيت التسمية لها ونسيت تسمية جزيرة مدغشقر نفسها ، وهذا أمر له نظائر كثيرة من أقربها اطلاق اسم البحرين التي كانت تعني الساحل الشرقي للجزيرة العربية من قطر إلى الكويت على هذه الجزيرة الواقعة في الخليج والتي كانت تسمى في القديم جزيرة (أوال) ونسي مسمى البحرين الأصلي .

إلا أنني سمعت من عدد من أهالي جزر القمر أنفسهم يقولون إن هذه التسمية بدأت عندما كان جماعة من العرب تائهين في سفنهم في خضم هذا البحر فإذا بهم يشاهدون جزيرة هنزوان إحدى جزر القمر لأول مرة وقد انعكس على جبلها الواقف ضوء القمر وهو بدر فقالوا : هذه جزيرة القمر ، ثم عمت التسمية كل الجزر .

وهذا القول عندي ليس بذاك لأن التسمية بجزيرة القمر لتلك الجزيرة الكبرى (مدغشقر) كانت معروفة منذ عهد قديم ، اللهم إلا إذا قلنا إن أولئك العرب — إذا كانت قصتهم صحيحة — كانوا يقصدون الذهاب إلى مدغشقر فوقعوا على جزيرة (هنزوان) فظنوها مدغشقر وقالوا : هذه جزيرة القمر فهذا له وجه ، وان كانت التسمية المحفوظة في المراجع العربية وهي بضم القاف تخالفه . مع أننا إذا قلنا إن تسمية جزيرة هنزوان هذه كانت في الأصل بضم القاف وإسكان الميم زال الاعتراض . والله أعلم .

دخول الإسلام إلى جزر القمر :

أهل جزائر القمر ، أو الجزائر القُمْر كلهم مسلمون إلّا قلة نادرة تقطن في جزيرة مايوت والنادر لا حكم له .

ولذلك لا مجال للبحث في نسبة المسلمين فيها . وأهلها يسيرون على المذهب الشافعي الذي هو المذهب السائد في شرقي إفريقية .

إلا أن الشيء الذي يستحق البحث هو كيفية دخول الإسلام إلى جزر القمر وهذا أمر يصعب الجزم فيه برأي ذلك بأن المنطقة القريبة من جزر القمر مثل ساحل تنزانيا كانت بلاداً إسلامية ذات ملوك وحكام مسلمين مقرهم في (كلوه) وكانوا معروفين بالجهاد والدعوة إلى الله .

ذكر ابن بطوطة أحدهم عندما زار كلوة في القرن الثامن كما أن إقليم سفالة الذي يعني ساحل موزمبيق وجنوب تنزانيا ، كان فيه مسلمون قبل ألف سنة وكان المسلمون يترددون عليه وذكره بذلك الإمام المسعودي في ذلك التاريخ أي : قبل ألف سنة .

إضافة إلى أن زنجبار كانت بلاداً إسلامية بحكامها وأكثرية أهلها منذ القرن

السادس حسب ما قرأنه بنفسي على أحد مساجدها القديمة وهي ليست بعيدة عن جزر القمر .

إذاً جزر القمر تقع في منطقة مجاورة لمنطقة إسلامية وإذاً لا عجب أن يدخلها الإسلام في عهد قديم .

وهي أيضاً جزائر مفتوحة بمعنى أن المجاهل الواسعة ليست موجودة فيها مثل ما كانت توجد في مدغشقر وأهلها ذوو طبيعة ودية فكان المفترض لذلك السبب أن يدخلها الإسلام منذ عهد قديم .

وهنالك لمحات قليلة تدل على ذلك منها الخرافة التي تقول إن مسجداً في بلدة ساويني في جزيرة القمر الكبرى بُني في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

ومنها حكاية سمعتها في أكثر من موضع وهي أن جماعة من العلويين هربوا من الحَجّاج بن يوسف إلى ساحل إفريقية الشرقي فاستقروا فيه ثم من هناك انتشروا في جزر القمر وزنجبار ودعوا إلى الإسلام فتابعهم بعض الناس عليه .

ومنها أن طائفة من الأمويين هاجروا من الحجاز عندما تولى العباسيون السلطة فنزلوا في الساحل قرب ممباسا من الشمال فأقاموا فيه وتوجه بعضهم إلى جزائر هذا البحر الزنجي وهذه الأقوال ليس لها سند قوي من مرجع معروف قديم يعتمد عليه إلّا أننا نرى أن مثيلاً لها حدث في عصور متأخرة أي منذ أربعة قرون على وجه التقريب وذلك هو هجرة الشيرازيين السنيين الذين هربوا من جنوب إيران عندما تغلب الحكام الذين يعتنقون المذهب الشيعي في بلادهم وضغطوا عليهم .

فكان مجيء الشيرازيين إلى سواحل إفريقية الشرقية التي هي مع جزيرة

زنجبار كانت تسمى قديماً (بر الزنج) ثم صارت تسمى (زنجبار) ولا يزال هؤلاء لهم أعداد كبيرة من الناس تنتمي إليهم بل هم حزب كامل قوي في زنجبار اسمه (الحزب الإفريقي الشيرازي).

ويقولون إنه من زنجبار اتجه فريق منهم إلى جزر القمر فأقاموا فيها غير أن المرجح أنهم عندما وصلوا إلى جزر القمر كانت بلاداً مسلمة بأغلبية أهلها مثلها مثل زنجبار وساحل كينيا التي كانت بلاداً من بلاد المسلمين بأغلبية سكانها قبل أن يصلها الشيرازيون والشواهد على ذلك كثيرة من أقربها ما ذكره ابن بطوطة في رحلته عن تلك البلاد. التي ذكر فيها مدينة ممبسة (ممباسا) وكلوة على الساحل الأفريقي.

أما العرب فإن هجراتهم إلى تلك الأماكن كانت قديمة متصلة ولكنها ليست على هيئة هجرات جماعية لأن البلاد العربية التي كانوا يقدمون منها ليست مزدحمة بالسكان وهي حضرموت وجنوب الجزيرة العربية وعمان، مما ظهر جلياً في اللغة السواحلية في زنجبار وشرقي إفريقية التي كانوا يتخذونها منطلقاً لهجرات فردية أو بإعداد قليلة إلى البلاد المجاورة الأخرى مثل جزر القمر هذه ومدغشقر وموزمبيق ورواندا وبروندي وشرقي الكنغو (زائير حالياً).

السكــان :

السكان في جزر القمر يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام رئيسية وانْ لم تكن متساوية الأعداد أو المقادير في المجتمع أو في قوة التأثير فيه.

الأول : القسم الإفريقي وهم من يُعْتقد أنهم السكان الأصليون وهؤلاء من (البانتو) أو الزنوج.

الثاني : العرب : وهؤلاء بعضهم لايزال محتفظاً بلغته العربية وبعضهم

فقدَ لغته العربية ولكنه لا يزال محتفظاً بشخصيته العربية وملامحه المميزة وأغلب هؤلاء هم من الحضرميين الذين لاحظت أنهم من أكثر العرب الجنوبيين المهاجرين محافظة على مقومات الشخصية العربية .

ومنهم رجال الدين وطائفة من التجار بل منهم كثير من الحكام حتى رئيس الوزراء الذي أعلن الاستقلال السيد/ أحمد عبدالله هو منهم فهو السيد أحمد بن عبدالله بن عبد الرحمن آل الشيخ أبي بكر بن سالم .

الثالث : الشيرازيون وهم الذين قدموا من شيراز واختلطوا بالإفريقيين إلا أنه لا توجد في جزر القمر حزازات بين الشيرازيين والعرب مثلما كانت توجد في زنجبار .

ومع امتزاج العناصر المذكورة وتأثير الطقس فقد صارت جمهرة السكان في جزر القمر أشبه بالسواحليين منها بالأفريقيين الذين يسكنون في داخل القارة تحت الدائرة الاستوائية الذين يسمون الزنوج أو البانتو .

اللغـــة :

مثلما كان هناك فرق في العلاقات بين الاجناس في جزر القمر عنها في زنجبار كان هناك فرق هام جداً في اللغة .

فاللغة الشائعة بل ربما نقول إنها اللغة الوحيدة بين أفراد الشعب في زنجبار وساحل كينيا وتنزانيا وهي السواحلية التي فيها من العربية النصف أو أكثر من النصف من الكلمات فان اللغة السائدة في جزر القمر هي لغة أخرى غير السواحلية وهي اللغة القمرية نسبة إلى جزر القمر وفيها كلمات من السواحلية والعربية ولكنها ليست هي عمادها بل هي أي اللغة القمرية لغة أخرى قائمة بذاتها لا يشارك أهالي جزر القمر النطق بها أهالي بلاد أخرى .

والحكم عليها يحتاج إلى دراسة طويلة ولكنها كاللغات المحلية الإفريقية ليست لغة تدوين ثقافي لذلك كان المتعلمون في البلاد قبل الحكم الفرنسي يتعلمون العربية ويتخذونها لغة للثقافة ويتعلمون الخط العربي وحده .

وخلاصة القول أنه يمكن لإخواننا القمريين من واقع كونهم مسلمين مخلصين يعتبرون الإسلام ديانة أصيلة لهم وليس ديناً وافداً من قوم غرباء ومن واقع شعورهم بأنهم جزء من العالم الإسلامي فانهم بأغلبيتهم يحبون اللغة العربية وإذا تيسرت لهم الأسباب يمكن أن تعود للغة العربية مكانتها في بلادهم ، فتصبح لغة الكتابة والثقافة كما كانت من قبل .

غير أنهم لا يستطيعون القيام بذلك وحدهم لو أرادوه لأنهم ليس لديهم المعلمون الكفاة وليس لهم المعاهد التي تستطيع أن تعد أولئك المعلمين لتلك المهمة فهم بحاجة إلى جهود إخوانهم من العرب الذين وهبهم الله من كثرة المال ووفرة الرجال ما يستطيعون به أن ينشروا الدين الإسلامي الذي شرفهم الله بحمله وان ينشروا لغتهم القومية التي هي لغة القرآن الكريم الأصل الأول من أصول الدين فهل هم فاعلون ؟..

إلى زنجبار

سبب الرحلـة :

دعت حكومة تنزانيا وفداً إسلامياً سعودياً مؤلفاً من أربعة أشخاص هم الشيخ إبراهيم بن صالح آل الشيخ نائب الرئيس العام لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد والأستاذ الأديب عبدالله بن عبد العزيز بن إدريس مدير العلاقات الثقافية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض والشيخ محمد بن إبراهيم بن قعود مدير إدارة الدعوة في الخارج ، ومؤلف هذا الكتاب ، فزار الوفد تنزانيا ، وزار زنجبار التي هي داخلة مع تنزانيا في إتحاد سياسي . وهذا هو ما كتبته في زنجبار من تلك الرحلة .

يوم الخميس : **٢٥** ربيع الأول عام **١٣٩٩** هـ الموافق **٢٢** فبراير **١٩٧٩** م .
من كيقوما إلى الجزيرة الخضراء :

كان البرنامج الذي أعدته الحكومة التنزانية لنا نحن أعضاء الوفد زيارتنا هذا اليوم الى (الجزيرة الخضراء) (بيمبا) وقد وضعت تحت تصرفنا طائرة خاصة كان طيارها ملازماً لنا ولم يكن يذهب بها ويجيء كما كان عليه الحال في مدينة تانقا ، وذلك بسبب بعد المسافة من هذه البلاد (كيقوما) إلى العاصمة (دار السلام) وغلاء الوقود وإلا فان بإمكانه أن يذهب ويجيء إلينا عند السفر لأننا وصلنا أمس من مدينة موانزا إلى كيقوما ظهراً وموعد سفرنا اليوم هو الساعة التاسعة صباحاً .

وقد أخبرنا الطيار في الليلة البارحة أن السفر الى الجزيرة الخضراء يستغرق مدة لا تستطيع الطائرة أن تقطعها في طيران متواصل بسبب قلة الوقود المتوفر لها في (كيقوما) ولذلك يجب علينا أن نمر ببلدة (تابورا) في تنزانيا لتتزود منها بالوقود ثم من هناك إلى الجزيرة الخضراء (بيميا) .

وهكذا كان فقد أقلعنا في الساعة التاسعة والثلث وسط حشد من المودِّعين في المطار كان على رأسهم حاكم المنطقة ، وزعماء المسلمين وعدد من الجمهور ، وكان الجو غائماً بل كان ملبداً بالسحب لذلك عندما استقلت الطائرة ولّاها الطيار جهة الجنوب الغربي فوق بحيرة تنجانيقا فكنا نرى الجبال التي تقع في الضفة الأخرى للبحيرة الكبيرة وهي الضفة الغربية وعندها حدود (زائير) بل إن الجبال التي تقع عليها بزمبورا عاصمة (بروندي) ترى بوضوح وان كانت المدينة لا يبين منها شيء بسبب البعد الشديد .

ثم انحرف الطيار بطائرته إلى جهة الجنوب الشرقي ليصحح المسار الذي سيستمر إلى تلك الجهة وكان يطير فوق غابات خضراء شديدة الاخضرار كما هي الحال في أكثر جولتنا هذه التي شملت أنحاء تنزانيا وانما تزيد كثافة الاخضرار وتنقص حسب وضع البلاد الزراعي فقد تكون الخضرة حقولاً وهذا هو الأقل وقد تكون غابات ملتفة ، وهذا هو الأكثر وقد تكون مراعي للماشية تنتشر فيها الحشائش والأعشاب التي تأكلها الماشية وتحرق الأشجار الكبيرة .

وكان ما زاد المنظر جمالاً هنا أن هذه الأشجار والغابات الملتفة هي ذات تربة حمراء شديدة الإحمرار نعرف ذلك من الطرق غير المسفلتة ، ومن ضفاف مجاري المياه ، وإلا فان أغلب رقعة الأرض إنما هو مغطى بالأشجار والأعشاب .

وبعد قليل شاهدنا تحتنا نهراً مياهه حمراء ربما كان ذلك من أثر الأمطار الغزيرة التي سقطت أمس ولعدة أيام قبله فأحالت الأرض إلى مستنقعات وأحالت المياه في مجاري المياه إلى اللون الوردي لما جرفته من تربة حمراء شديدة الإحمرار .

وأمعنت الطائرة في سيرها إلى هدفها وواصلت الجبال الخضراء والتلال

المكسوة بالغابات إمتدادها من تحتها كذلك .

وكان السحاب كثيفاً حتى إن الطيار كان يجاهد في أن ينفذ من خلاله فإذا لم يجد فرجة ينفذ منها فانه كان يخترق السحب المنخفضة ويظل يطير بين طبقتين كثيفتين منه حتى إذا وجد الفرصة للفرجة نزل بالطائرة إلى ما دون ذلك فتكرر المنظر الذي لا منظر غيره طول الرحلة وهو المنظر الذي يجمع بين خضرة الأرض في الأسفل وبياض السحاب في الأعلى .

ولم نزل كذلك أبصارنا مشدودة إلى هذين المنظرين ، وأجسامنا مشدودة إلى المقاعد بالأربطة ، بسبب حالة الجو ، على أنه ليس هناك مجال لغير الجلوس في هذه الطائرة الصغيرة المخصصة لحمل عشرة ركاب مع أمتعتهم لأن سقفها أكثر انخفاضاً من أن يكفي للوقوف ، ولأن المساحة فيها أضيق من أن تتسع للمشي ولأنه لا يوجد فيها حمام وليس فيها شيء من الشراب أو الطعام .

وبعد ساعة وربع أخذ الطيار يهبط بالطائرة والتفت إليّ مشيراً إلى جهة من الأرض قد غطاها السحاب المنخفض قائلاً : هذه (تابورا) وحاولت أن أراها فلم أستطع فليس فيما قرب منها من الأرض ما يميزها عن غيرها . وإنما الأرض كلها خضراء تنتشر فيها كلها مناقع المياه .

وأخيراً رأينا المطار . فإذا بأكثره ذو تراب أحمر . وقد سفلتوا جزئين صغيرين منه أحدهما في أول المهبط والثاني في آخر الموقف .

إلا أن المشكل أن القسم الترابي منه مليء بالمستنقعات ، وكاد الطيار ينزل إلا أنه لمح طائرة (مغرزة) في جانبه قد أمسكت بعجلاتها المياه ، وتكلم مع الموظف في المطار فأمره بشيء جعله يعدل عن الهبوط ويدور دورة أخرى ثم يهبط على القسم المسفلت الذي فيه مياه أيضاً ولكنه مأمون من (التغريز) ثم يسير مسرعاً إلى الأجزاء الأخرى غير المسفلتة فتتناثر المياه والطين الذي تمر به

عجلات الطائرة ثم تظل تدرج وهي تبذل قوة إضافية حتى وصلت ساحة الوقوف

في مطـار تابـورا :

ولم نجد في المطار عندما وقفنا أحداً من الموظفين فسألت الطيار عن المدة التي سنقضيها في هذا المطار الصغير المنعزل ؟ فأجاب : إنني لا أدري لأنني لا أرى أحداً هنا ، والأفضل أن تذهبوا إلى غرفة المقصف وإذا انتهيت ناديتكم .

فتوجهنا إلى غرفة المقصف مشياً نخوض مناقع الماء حيناً ونتفاداها أحياناً أخرى والمطر يهطل رذاذاً خفيفاً والسحاب متراكم والهواء نديّ والحر ليس شديداً .

والمناظر حول المطار هي جماعة من الناس حول الطائرة (المغرزة) وأربعة من العمال يَحدُّون من ارتفاع الحشائش فيما حول بناية المطار ، وذلك ليس بقطعها بالمناجل وهم جلوس كما يفعل الناس في بلادنا وإنما بضربها بمناجل كبيرة يحملونها في أيديهم يطوحون بها يميناً وشمالاً وهم وقوف . ومنظر أشجار نخيل الزيت ذات الاعجاز الضخمة والقوام الغليظ التي هي ليست كأشجار النارجيل ذات القوام النحيل ، وطيور بيضاء تحلق هنا وهناك ، وطيور بنية اللون صغيرة لا أدري ما اسمها .

وطائرة نقل عسكرية واقفة في ساحة المطار وهي من ذوات المحركين .

ودخلنا المقصف المؤلف من غرفة واحدة فيها موظف واحد فسارع بعض المرافقين إلى دورة المياه لعلمهم أن الطيرة التالية ستكون حوالي ثلاث ساعات وليس في الطائرة حمام ، ولكنهم وجدوا ظاهر دورة المياه قذراً من القذر ربما كان لا يفترق عن باطنها . وقد شمل الاهمال جميع الأعمال في هذا المطار بعد أن كان عامراً بالرُّواد عندما كان الأجانب موجودين بكثرة في هذه البلاد وكانوا هم الذين يستعملون الطائرات .

ولم يكن في المقصف ما يغري بالجلوس مع أننا لم نكن بحاجة إلى الجلوس لأن أمامنا جلوساً في الطائرة غير قصير فخرجنا نتجول فيما حول المكان فإذا بهم قد أعدوا فيما حوله أكواخاً كأكواخ الإفريقيين الأقدمين إذ أقاموها من الأخشاب ويبيس الأعشاب تحت ظلال نخيل الزيت الظليل ، ولكن الرواد أقل من القليل بل لم نر فيها أي نزيل .

ورأينا الطيار يتعاون مع عامل آخر على ضخ الوقود إلى الطائرة بأيديهما من خزان على عجلات فيه مضخة يدوية وطال البقاء مع أننا كنا نفضل البقاء في جزيرة (بيمبا) التي هي جزء من زنجبار .

العـودة إلى الطائـرة :

وعندما أكمل مؤشر الدقائق دورته الستين منذ وصولنا إلى مطار تابورا الذي ربما ظن من لا يعرف أن هذا الاسم هو إفريقي أصيل أنه مشتق من التبار ، فعجب من هذا الاختيار . عدنا إلى طائرتنا الصغيرة لمواصلة الطيران فأقلعت بعد أن بح صوتها من الشكوى من هذا المطار الذي اختلط طينه بمائه وقصد بها الطيار جهة الشمال الشرقي إلى (بيمبا) كما يقول الإفريقيون أو هي الجزيرة الخضراء كما يسميها العُمانيون . والتفت إلينا مخبراً أن الطيران سيدوم ثلاث ساعات إلّا عشر دقائق .

وكلما عدنا للطيران عادت السحب المترادفة ، والغابات المتكاثفة هما المنظر المألوف حتى وصلنا بعد ساعة ونصف من الطيران إلى سحب مطبقة ، قد تظاهر وابلها مع هاطلها على أن يغلقا أمام الطائرة الطريق إلا أن الطيار صمم على النفاذ والمروق فأخذت الطائرة تنطح جباه السحب فيبدو وجهها وكأنه يتصبب عرقاً إلا أن سرعتها تحيل ذلك العرق إلى خيوط من الحرير الأبيض الذي ينزلق عليها في لحظات بل ومضات .

وبعد أن أمضينا ساعتين وعشرين دقيقة من الطيران لمحنا ساحل البحر الزنجي الذي لا يبعد كثيراً عن دار السلام ففرحنا لأن ذلك يشعرنا بأننا قد قربنا من هدفنا المنشود . وكان ذلك بالفعل إذ ما أن مضت عشر دقائق أخرى حتى لمحنا على البعد جزيرة (بيمبا) .

وبعد دقائق أخرى كنا نطير بقربها فإذا بها كبيرة ذات رؤوس داخلة في البحر وخلجان والجة في الأرض وإذا بها كسائر أنحاء هذه البلاد الإفريقية خضراء شديدة الاخضرار ولهذا أسماها العُمانيون بالجزيرة الخضراء . وحولها عدد من الجزائر الصغيرة .

ودخلنا في أجوائها فإذا بأشجار القرنفل بل غاباته تختلط فيها بأشجار النارجيل .

وكان المطار في الشرق وقد جئنا من الغرب فأتاح ذلك لنا رؤية وسط الجزيرة من فوق .

في مطـار بيمبـا :

هبطت الطائرة في الساعة الواحدة والدقيقة الخمسين من بعد الظهر في مطار بيمبا الذي اسمه (مطار كرومي في بيمبا) كما كتبوه عليه وهو مطار نظيف ، معبد المدارج حسن البناء وسط منطقة جميلة خضراء .

فوجدنا في ساحة المطار جماعة من المستقبلين على رأسهم الشيخ جمعة مكامِ محافظ شمال بيمبا والشيخ حبيب علي كومبا رئيس القضاة في زنجبار ، والأستاذ سعيد محمد عبد الرحيم مفتش اللغة العربية والدين في المدارس الحكومية في بيمبا .

وبعد السلام المعتاد مشينا خطوات إلى طلاب كبار السن ومتوسطين فيه



محافظ بيمبا يستقبل الوفد في المطار

عددهم حوالي الثلاثين قد لبسوا كلهم الملابس السواحلية القديمة وهي الثوب الطويل وفوقه صدري أو دون صدري وفوق الرأس طاقية ، وقد صفوهم صفين وأمامهم أحد الأساتذة بمثابة قائد الفرقة وهم ينشدون (طلع البدر علينا) الخ .

ثم انصرفوا إلى خارج الساحة . وذهبنا إلى غرفة الاستقبال الخاصة في المطار فلبثنا فيها برهة ننتظر أن يحملوا أمتعتنا في السيارة .

ثم نهضنا إلى خارج القاعة مما يلي البلد فألفيناهم قد أعدوا السيارات وهي سيارتا جيب وحافلة صغيرة كتب عليها (إدارة ياعافية) وهي بالسواحلية معناها : إدارة الصحة وهي كلها عربية ما عدا (يا) التي يأتون بها لتربط بين المضاف والمضاف إليه مثل كلمة (أف) بالانكليزية وكلمة (دي) بالفرنسية في بعض المواضع . وأما السيارتان اللتان معها وهما سيارتا الجيب فإنهما

جديدتان ، وقد كتب على الأمامية التي أركبوني مع الراكبين فيها كلمة « ثمني يا قاري » أي : ثمن السيارة فثمن كلمة عربية و« يا » رباط الإضافة وقاري سيارة مأخوذة من الانكليزية «كار» وتحتها هذه الكتابة الرقم (٩٣) ألف شلن أي : أربعون ألف ريال تقريباً .

وهذا ربما يدل على أنهما مستعارتان من إحدى الشركات أو هما جديدتان عند الحكومة . أما الطلاب الذين كانوا ينشدون النشيد وقائدهم ومعهم بعض الذين خرجوا إلى المطار فانهم جميعاً قد اجتمعوا على ظهر سيارة من سيارات النقل غير الكبيرة (لوري) وتزاحموا فيها حتى ليخاف المرء ألا تسعهم وأما السيارات الصغيرة فلا أثر لها هنا فيما رأيته حتى الآن .

جزيـرة بيمبـا :

هي الجزيرة الثانية التي كانت تتألف منها سلطنة زنجبار وهي كبيرة إلا أنها أصغر من جزيرة زنجبار وأقل قليلاً منها في عدد السكان فمجموع مساحتها هو (٦٤٠) ميلاً مربعاً وعدد سكانها ١٩٧ ألفاً .

واسمها الإفريقي كان بيمبا وإنما سماها العُمانيون الجزيرة الخضراء ولكن عندما دالت دولتهم ، وزالت قوتهم عادت إلى اسمها الإفريقي وحده (بيمبا) .

انطلق الموكب مؤلفاً من سيارات ثلاث اثنتان من (الجيب) وحافلة صغيرة أما الأولى ففيها محافظ شمال بيمبا الشيخ جمعة مكامِ والشيخ إبراهيم بن صالح آل الشيخ وكاتب هذه السطور واثنان من المرافقين اللذين يعرفون العربية أحدهما الأستاذ سعيد محمود . والسيارة الثانية فيها بقية أعضاء الوفد والمرافقين الذين جاؤا معنا من غرب تنزانيا والحافلة الصغيرة فيها بعض المستقبلين من أهل البلاد وسرنا في طريق جيد السفلتة قد بذلت فيه وفيما حوله عناية كبيرة ، وهو



أشجار النارجيل في زنجبار

يخترق غابات كثيرة من النارجيل وشجر القرنفل الكبير إلى جانب الموز وحشائش وأعشاب أخرى .

وبعد مسيرة خمسة كيلات وصلنا إلى مطعم في جانب الطريق يقع قرب خليج صغير من البحر داخل في البر ولكن المطعم مرتفع عن الأرض وفي مياه هذه الخليج البحري نبتت أشجار خضراء لا أدري ما هي إلا أن الأرض سوداء كأنها الوحل .

وفي غرفة جلوس في هذا المطعم وكنا نظنه الفندق الذي سننزل فيه جلسنا مع إخواننا المستقبلين الذين على رأسهم المحافظ (جمعة مكامٍ) وحال وصولنا بدأ العمال في المطعم يضعون الطعام على الموائد ، وقد دخل أثناء ذلك مزيد من المستقبلين منهم محمد محمود محافظ جنوب بيمبا وهو يعتذر بعذر شغله عن الاستقبال في المطار . وكانت حاجتنا الى الراحة تفوق حاجتنا إلى الطعام غير أن مضيفينا أرادوا شيئاً ولا بد للضيف أن يتبع إرادة المضيف ، وكان الطعام من اللحم والأرز والسمك المتوفر في مياه هذه الجزيرة ، وفيه من الطعام المحلي الموز المقلي بزيت جوز الهند الذي هو ثمر النارجيل .

وبعد الفراغ قالوا لنا : تفضلوا . وهنا سنحت الفرصة فسألناهم : إلى أين ؟ فأجابوا إلى المرور على المدارس والمساجد — وكان التعب قد بلغ بنا مبلغه وكل واحد منا بحاجة إلى فنجان من القهوة أو الشاي ولم يكونوا قدموا من ذلك شيئاً على الغداء وانما اكتفوا بالفاكهة التي كانت من العمبة (المانقو) الفاخرة ومن الأناناس ومعها الموز ، فقلنا لهم : إننا بحاجة إلى الراحة وبعد الراحة تكون الجولة ، فقالوا : لا مانع من ذلك أو هكذا قال لنا المترجم من السواحلية إلى العربية الأستاذ سعيد بن محمد ولكن الذي حدث غيره .

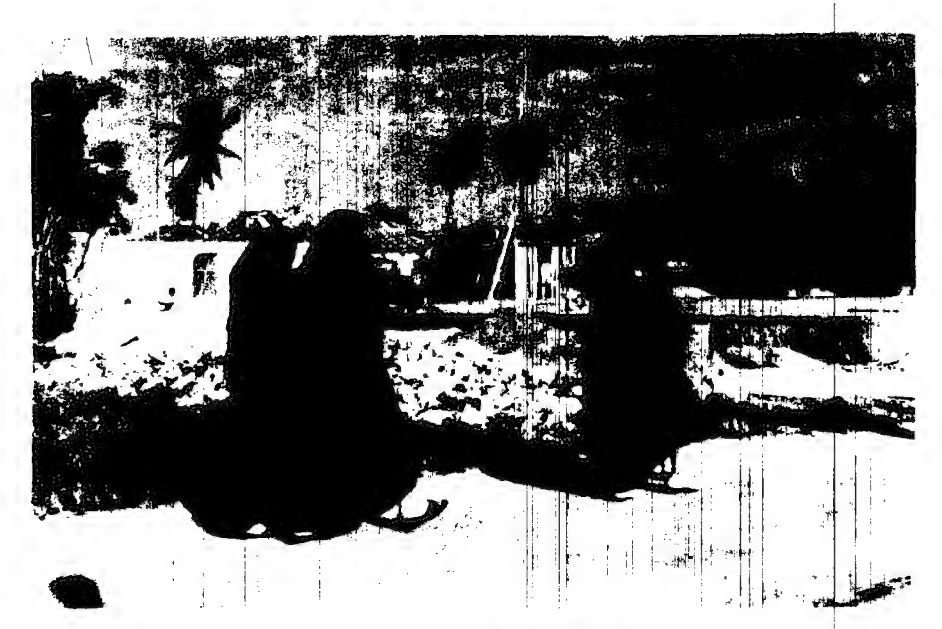
شك شك :

بشينٍ وكافٍ مكررتين وهذا هو اسم بلدة صغيرة في هذه الجزيرة المطيرة إذْ وصلناها وكنا نظن أننا قد قصدنا الفندق الذي سنستريح فيه ولما سألتهم عن اسمه ؟ أجابوا : إنه (شك شك) فلم أدر ما يقولون . وإنما قلت : أهذا اسم الفندق ؟ قالوا : لا ، إنه اسم بلدة .

ورأيتها بالفعل بلدة مررنا بسوقها العام فرأيناه ذا بيوت متلاصقة وحوانيت متراصة إلا أن بعضها مغلق ، والمفتوح منها يدل على الفقر ، أو صعوبة الأمر في التجارة .

وأما المارة في الشوارع والباعة في الحوانيت فانهم الجنس السواحلي الشهير ، والنادر منهم من يكون لونه اللون الأسمر لون العرب الذين اسودَّت بعدهم زنجبار فكانوا كالشفق الذي ولى الأدبار .

ويرى المرء النساء هنا من السواحليات الأصيلات فالعباءات هي الشائعة ، وهي عباءة مؤلفة من قطعتين إحداهما من النصف الأعلى إلى الرأس والأخرى على النصف الأسفل ، أما العضدان فانهما ظاهران لا يسترهما إلا ما يكون من العليا من القطعتين إذا ضمت المرأة اليدين .



نسوة بالعباءات السواحلية في زنجبار.

أما شوارع (شك شك) فإنها ضيقة ما عدا الشارع الرئيسي فإنه متوسط الاتساع ، وأما مظاهر الناس فان العوز والحاجة هي التي تظهر على أحوالهم ووجوههم وذلك رغم أن البلاد خصبة وأن الخضرة عامة وأننا رأينا أبقاراً كثيرة ترعى في بعض الجهات مما يدل على وفرة الحيوانات الموجودة .

ووقفنا عند مسجد في حارة من البلدة تسمى (ممبيني) إمامه اسمه (شيخ حاج حمد) وهو مسجد قديم إلا أنه أحدثت فيه زيادة في عام ١٣٩٨ هـ أي في العام الماضي بسبب ضيقه بالمصلين وهو الذي تقام فيه الجمعة في هذا الحي ، وقد كتب تاريخ بنائه هذا باللغة العربية .

وموقعه على ربوة مرتفعة نوعاً ما من البلدة مع أن البلدة نفسها تقع في أرض مرتفعة عن سطح البحر رغم أن البحر منها ليس بالبعيد .

والقسم القديم من هذا المسجد هو ذو أقواس عربية وسقوف خشبية ، وشرفات عربية جميلة على جدران سوره الخارجي .

ومنه انتقلنا في هذه البلدة إلى مسجد آخر اسمه (مسجد ساشاني) بابه عربي النقش ذو مربعات محفورة في الخشب حفراً مناسباً ينطق بالذوق الرفيع إلا أنه مهمل يحتاج إلى عناية لم تتيسر له . وعلى جدرانه شرفات حجرية عربية الطراز جميلة الشكل شبيهة بتلك الموجودة في مصر والشام منذ عهد المماليك .

والمسجد نظيف إلا أنه أصغر مساحة من سابقه وهو مسقف بالخشب وسقفه مسطح كما هي عليه الحال في أكثر البنايات ذات الطابع العربي في إفريقية ، كما أن بناءه من الحجر الجيد . وفي مقدمته منبر من الخشب المحفور عربي الطراز إلا أنه ليس فيه كتابة عربية .

وفي مؤخرة المسجد قسم للنساء قد حجز بينه وبين المكان الذي يصلي فيه الرجال بجدار فيه باب يغلق ونافذتان عن يمينه ويساره .

وصعدنا من المسجد على درج حجري خارجي إلى غرفة كبيرة في سطح المسجد فيها مدرسة صغيرة فيها مدرس لا يعرف من علوم الدين شيئاً أو أن الخجل والارتباك قد غلبا عليه حتى نسي ما كان يعرفه منها واسمه حامد علي ومستوى المدرسة ضعيف أيضاً .

وقد خرجت إلى سطح الغرفة العليا من هذا المسجد الذي هو في مكان عالٍ استطلع المنطقة التي تحيط به فإذا بها مؤلفة من بيوت على شكل أكواخ متفرقة معظمها مبني من الأعواد المطلية بالطين والسقف بالقش أو سعف النارجيل على شكل السنام ، وبعضها مبني بلبن الاسمنت وهو الأقل إلا أن سقفه يكون من القش أيضاً وحالتها سيئة ، ويبدو الفقر والعوز على سكانها . وهذه الأكواخ والبيوت معظمها تحت أشجار النارجيل الباسقة ، وبينها أشجار الموز كما توجد أشجار أخرى من أشجار الظل .

وبعض أحواش المنازل تكون حوائطها من الأعواد كما في جزر مالديف .



أشجار (المانقو) والقرنفل في زنجبار

وكان المنظر من فوق السطح ممتعاً للغريب الذي يراه لأول مرة إذ يشرف على مساحات بعيدة.

وخلف المسجد بركتان للوضوء كالتي تستعمل في البلاد الإسلامية التي يسودها المذهب الشافعي مما يدل على أن الذين عمروا هذا المسجد بالبناء أو الذين يستعملونه هم من المعتنقين للمذهب الشافعي أي أنهم الإفريقيون السواحليون لا العرب العُمانيون. إن لم يكونوا من العرب الحضرميين.

التلال الخُضْر:

بعد ذلك انطلق الموكب يصعد إلى رَوَابٍ خُضْر كثيفة الاخضرار مع طريق اسفلتي ضيق رديء السفلتة مليء بالحفر والنُّقَر بحيث يكون بالنسبة إلى الراكب هو والطريق المعبد غير المسفلت سواء بل إن الأول أسهل غير أن هذا لا يحدث غباراً لبقايا الاسفلت فيه. ولأن الموضع كان قد أصابه المطر منذ وقت قصير.

وهذه الروابي الخضر كلها ترفرف عليها فروع النارجيل فلا يخطىء الناظر منها شيئاً أينما التفت وأسفل منها أشجار الموز النضير ، وأشجار العمبة (المانقو) الضخمة موجودة في أكثر الأماكن ولكنها ليست في كثافة النارجيل ولا في كثرة الموز .

وتتخلل هذه الروابي وديان منخفضة لا يرى المرء لها أرضاً بسبب كثافة أشجارها والتفاف أعشابها .

ولم نزل كذلك في صعود دون هبوط وللسيارات مع أنها جديدة في هذا الطريق قرقعة مزعجة . والأهالي هنا لا يراهم المرء كثيراً لأنه ليس هناك قرى متشابكة المنازل ، وإنما هي أكواخ متفرقة كلها قد أقيمت من طبيعة الأرض ، أي من الأعواد والأخشاب وفروع النارجيل والطين الذي تطلي به الجدران .

في بيكـي :

هذه قرية في الطريق عدلنا منه إلى جهة اليسار فرأينا مدرسة قد خرج طلابها فاصطفوا صفوفاً تحت الأشجار الضخمة التي تشابكت فروعها فأغنت عن أي ظل آخر . وقد استقبلونا بالتصفيق الحاد .

ثم قرأ الطلبة آيات من القرآن الكريم قراءة لا بأس بالتجويد فيها ثم تقدم أحد المدرسين فألقى كلمة باللغة العربية رحب فيها بالضيوف الذين تربطهم بأهل هذه البلاد رابطة الإسلام ، وروابط تاريخية ثقافية .

وبعد ذلك أعلن عريف الحفل أن بعض الطلبة سيمثلون أمامنا تمثيلية «الأب الجاهل والولد المتعلم» وتقدموا وهم ثمانية من الصبيان والبنات ما بين سن العاشرة والرابعة عشرة فقاموا بالتمثيل قياماً جيداً بالنسبة إلى كونهم قد

تعلموا اللغة العربية تعلماً وتبين فيما بعد أنهم قد جلبوهم من مدرسة أخرى غير هذه المدرسة وقد نفحناهم حلواناً هو مائة شلن لكل طالب أو طالبة ومائتا شلن للمدرس الذي أشرف على تلقينهم العربية واسمه عبدالله بن ناصر ، فكان جميع ذلك ألف شلن أي أربعمائة ريال تقريباً .



مع تلاميذ مدرسة بيكي في بيمبا تحت الأشجار

وكانت حالة الطلبة متوسطة في النظافة والنظام وهم طلاب مدرسة إبتدائية حكومية كنا نظن أول الأمر أنها مدرسة إسلامية خاصة ولا أدري لماذا أوقفونا عندها وهم يعرفون أن هدفنا هو رؤية المدارس الإسلامية ، إلا أنهم أحضروا أولئك الطلبة الذين مثلوا التمثيلية بالعربية من مدرسة أخرى لم يذكر لنا اسمها ولا الجهة التي هي تابعة لها ، وهم يتكلمون العربية بلهجة عُمانية ، أو هكذا خيل إليّ .

أما المدرسة هذه فان اسمها مدرسة (بيكي) أي القرية التي تقع فيها واسم مديرها (علي سالم علي) وبعد أن انتهى البرنامج قدموا لنا شراب النارجيل من ثمر أصفر لذيذ .

وقد لاحظنا أن المدرسين في هذه المدرسة الابتدائية التي هي تحت ظلال الأشجار عندما رأيناها كلهم من الرجال ما عدا ثلاث مدرسات شابات قد سترن جميع أبدانهن حتى رؤوسهن بما يشبه الأردية ولم يبق ظاهراً من ذلك إلا الوجه والكفان كما تفعل المرأة عندما تريد الصلاة في بيتها .

ثم واصلنا السير على إمتداد الطريق نفسه وهو يمتد صاعداً في تلال خضر ، وكان من بين ما رأيناه قرية صغيرة اسمها (زيواني) ذكروا لنا أن هذا معناه (النهر) .

أما المناظر فتكاد لا تتغير فهي الغابات بينها المنازل القليلة كالأكواخ ، وقد مررنا بغابة من غابات أشجار القرنفل التي تشتهر بها زنجبار من بين العالم كله فأرونا الثمرة كيف تكون ثم كيف تقطف وهي أشجار ضخمة أكبر من التي رأيتها في جزر القمر . والعجب منهم كيف يستطيعون الصعود إليها لجني ثمرها وأكثَرَ رفاقي أعضاءُ الوفد ممن لم تسبق لهم رؤيتها من الدوران حولها وتفقدها ، وأكلت من ثمرها الغض الذي فيه طعم القرنفل ورائحته ، ولكن ليست فيه شدة حرارته لأنه لم ينضج بعد .



عامل يقوم بتجفيف القرنفل

ثم مضينا صُعُداً مع الطريق إلى تلال عالية ذات منحدرات خضراء وهي رغم كونها تلالاً فانها ليست جبالاً بل هي أراضٍ طينية مرتفعة تشبه التلال الجبلية وليست بها .

هذا وقد أصبحت حالة الطريق أحسن من ذي قبل وربما كان ذلك لأننا قربنا من إحدى القرى وقد مررنا بحقول صغيرة من الأرز في بعضها العمال الذين غاصت أقدامهم في الوحل وهم يعملون في الزراعة وهناك بعض النسوة اللائي يعملن في الحقول وبعضهن تحمل معها مجرفة طويلة اليد .

ثم بدأ الطريق بالانحدار الخفيف وذلك عند مكان اسمه (كيتو) فيه السجن الرئيسي في هذه الجزيرة الخضراء .

بلـدة ويتـي :

وبعد ذلك وصلنا مشارف بلدة (ويتي) ، وكان أحدهم يبشرنا بوصولها لأن نزولنا سيكون فيها وقد لاحظ أننا بحاجة إلى الراحة .

قابلتنا بلدةُ (ويتي) بشارع واسع ذي اتجاهين تفصل بينهما جزيرة ضيقة قد غرست فيها حشائش ذات زهور وردية صغيرة وعلى جانبيه أشجار النارجيل الفارعة القوام ، وأشجار المانقو الضخمة وفيه حوانيت متلاصقة ، وبيوت عربية الطراز ، وعمارات للإسكان الشعبي سيئة المظهر ، ومارَّة من السواحليين الأصليين وقلة قليلة جداً تشعر بأنهم في الأصل من العرب العمانيين أو الحضرميين ، ونساء بالعباءات السواحليات ، وغيرهن وهن الأقل باللباس الأوروبي الحديث إلا أن تقصير الثوب ، وتوسيع الجيب هنا شيء معروف .

وانحدرنا مع هذا الطريق حتى وصلنا إلى نهاية البلد الذي هو في ربوة عالية تشرف على ميناء صغير جهة الغرب منه وعلى خليج بحري داخل في الأرض .

فأنزلونا في دار الضيافة وهي في مستوى فنادق الدرجة الثانية المهملة ، ولو كان الأمر أمر ترف أو طلب متعة لما كان ذلك يستحق الذكر فاننا لم نأت للمتعة ولا للترف ولكنه أمر يتعلق بمستوى المنزل من حيث النظافة ، ومن حيث الراحة بالنسبة لما تعودنا عليه في بلادنا في الوقت الحاضر ولله الحمد .

فهذا المنزل الذي هو دار الضيافة ، هو بيت متوسط على طراز هندي قديم البناء ويحتاج إلى ترميم غرفه واسعة إلا أنها غير مرتبة ، وحماماته ليست مريحة ، ونوافذه بعضها لا يغلق وقد وضعوا عليها ستارة من القماش .

وأسرعنا إلى الغرف لننال قسطاً من الراحة بعد هذا التنقل الكثير ، ولكن الرطوبة ثقيلة ، والغرف ليس فيها مراوح والحر بذلك شديد ، والعرق يتصبب من الجسم وطلب أحد الأخوان ماء بارداً من الخادم الذي لا يعرف إلا السواحلية فقلنا له (ماجي باردي) أي : ماء بارداً . فأجاب : (ماجي موتو) أي : ماء حار . ثم أشار إلى الثلاجة مشيراً إلى أنها لا تعمل بسبب انقطاع الكهرباء .

وأراد أحد الإخوان أن يلومه على ذلك وقال : إن بإمكاننا نحن أن ننزل في فندق جيد على حسابنا لأن معنا من النقود ما هو كاف لذلك ، إلا أنه تذكر فقال : كيف نلومهم وهم قد أنزلوكم في أحسن ما عندهم جزاهم الله خيراً .

ولما كانت الشمس قد قاربت أن تغرب وكان الجلوس غير مريح رغم حاجتنا إليه فقد ذهبت مع أحد الإخوان في الوفد نتمشى في ساحل هذه الجزيرة فنزلنا مع درج حجري من قرب دار الضيافة إلى ساحل البحر وهو طويل بسبب ارتفاع التلة التي عليها بلدة (ويتي) فلما نزلنا رأينا جماعة من المواطنين من رجال ونساء وكلهم من الإفريقيين ما عدا فتاة عربية بيضاء

وطفلة مثلها كذلك ، أما الطفلة فانها جعلت تنظر وتنظر لغرابة المنظر ، وأما الفتاة فقد منعها الحياء فصدَّت .

أما الميناء فانهم قد دفنوا له طريقاً داخلاً في البحر لا بأس بجودته وهو مرتفع عن مستوى سطح البحر غير أن ذلك لم يمنع وصول الرائحة الكريهة الخبيثة من أن تعم المكان ، وتؤذي السكان ولا أدري مبعثها إلا أن أرض الميناء كلها سوداء منتنة ربما كانت مصب مجاري البلدة وهذا ليس بالبعيد لأن البلدة مرتفعة وقد يكون غير ذلك .

والمنظر قرب الميناء ليس جميلاً ، وجماعات من الناس يتهيأون لركوب السفينة وقد تجمهروا في الميناء ولا أدري أهي مسافرة إلى زنجبار أم إلى مكان آخر في الجزيرة تكون أجرة الباخرة إليه أرخص من أجرة السيارة مع أننا لم نلاحظ وجود سيارة أجرة في هذه الجزيرة بل لم نر سيارة صغيرة واحدة تسير ، وإنما رأينا طائفة من السيارات الصغيرة خربة مهجورة في بعض الميادين في هذه البلدة التي يظهر أن مستوى العمارة فيها أحدث وأفضل من مثيلاتها من محلات الجزيرة التي شاهدناها . ولا شك أن السبب في ذلك اقتصادي وهو عدم وجود قطع الغيار ، أو نقص دخول أرباب هذه السيارات بعد الهيجان الذي أسموه ثورة إشتراكية .

وبعد الوقوف على الميناء ذهبنا نمشي مع شارع على شاطىء البحر فإذا ببعض الباعة معهم الموز وثمار العمبة (المانغو) التي اشتريت منها ستاً صغيرة بشلن واحد وهو أقل قليلاً من نصف ريال .

وأسرعنا نصعد مع الدرج الذي نزلنا منه إلى التل الذي فيه دار الضيافة

ومنه إلى جولة على الأقدام فيما قرب من دار الضيافة .

وهنا كانت الشمس قد غربت ، وصلاة المغرب قد حانت ، ففرح الإخوان وقالوا : عسى أن تكون الثلاجة قد عملت وأن تكون مياهها قد بردت ، ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك لأن بابها لا يقفل فيتبدد ما بها من برودة .

وصلينا المغرب ، وعدت إلى غرفتي بعد أن عادت الكهرباء لأنظر في كيفية البدء في الكتابة لهذا اليوم فإذا بها خالية من أي نور عدا مصباح صغير معلق في سقف الغرفة لا يكاد المرء يستبين فيه شيئاً أما الكتابة فغير ممكنة ، وكان هذا سبباً من أسباب عدم الراحة أكثر عندي من غيره .

فناديت الخادم وكلمته ولكنه لم يفهم وطلبت من الأخ الشيخ عباس المقبول أن يكون المترجم وأن يطلب منه إحضار مصباح مؤقت لغرفتي حتى أستطيع القراءة والكتابة وكان زميلي الأستاذ عبدالله بن ادريس يطلب أيضاً مثل هذا الطلب .

فذهب الخادم ثم عاد سريعاً ، وقال : نأسف لكون المصباح غير موجود ، فقلنا له : إذاً خذ ما شئت من النقود ، واشتر به مصباحاً من السوق ، فأجاب : إنه غير موجود في السوق ، هذه هي المشكلة وهنا جاء بعض إخواننا المرافقين ، وقال : إن موعد الذهاب إلى جامع (ويتي) قد أزف وان جماعته لكم منتظرون .

ولو كنا في غير هذه الدار لقلنا : إنه لا مانع من الانتظار ، غير أننا قلنا في أنفسنا إن الجامع على كونه عند الأقدمين يضرب به المثل في الفراغ خير لنا من بقاء غير مستساغ . فأسرعنا إلى الجامع فوجدناه مزدحماً بالمصلين ووجدنا غيرهم في السوق مزدحمين والجميع لنا منتظرون .

وكان اللقاء وكانت المصافحة والرد بالإشارة لمن لا يستطيع منهم أن يصل إلى المصافحة ومَن صافحنا نحن إخوانه منهم عد نفسه سعيداً . وهذا أمر عجيب من هؤلاء الأخوة الكرام ، وتأكيد لقوة أخوّة الإسلام .

ورأينا المسجد خلاف دار الضيافة ــ قد سطعت أنواره ، ودارت مراوحه تمزق ذلك الحر الكثيف ، وليس ذلك فحسب ، وإنما فيه عند مقام الإمام ، ماء بارد في أوانٍ زجاجية موضوعة ، وأكواب مرفوعة ، وفي المسجد كله فرش مبثوثة فشربنا من مائه علـلاً بعد نهل .

وقرب أحدهم مكبر الصوت فصدح القارىء بتلاوة شجية ندية لو سمعه أحد العرب دون أن يراه لظنه مقرئاً من المقرئين . وبعد هذه التلاوة التي عطرت المكان ، ودخلت الآذان ، دون استئذان ، من هذا القارىء الذي اسمه راشد محمد يعمل في أحد المستشفيات وكنت ظننته أحد العاملين في التدريس . أخذ الشيخ يقرأ بالعربية الفصيحة كلمة مكتوبة في صحيفة تضمنت شكر الله تعالى على ما قدره من اجتماع في هذا الموضع الطاهر ، وبث بعض ما في نفوس القوم بما يحتاجونه حتى يُقوُّوا أسباب الدعوة إلى الله في هذه البلاد .

ثم أعقب أحد الأخوة من الوطنيين هذه الكلمات العربية بترجمتها السواحلية حتى يستبينها من لم يكن بالعربية يستبين واسم الخطيب محمد بن عبدالله وعمله قاضٍ في إحدى نواحي الجزيرة .

وكان لا بد من رد الشكر بالشكر ، ومقابلة الذكر بالذكر فنهض زميلنا الشيخ محمد بن قعود فرد رداً حسناً ، ونصح نصحاً بيناً .

وهنا كان أذان العشاء قد قرب وقته ، فأسرعوا بشيء لم نره عند غيرهم في المساجد وهو أطباق الحلوى يتبع بعضها بعضاً كل طبق على يد رجل بدأوا بنا

يقدمونها فيأخذ المرء واحدة والذي بعده مثلها لا يزيد .

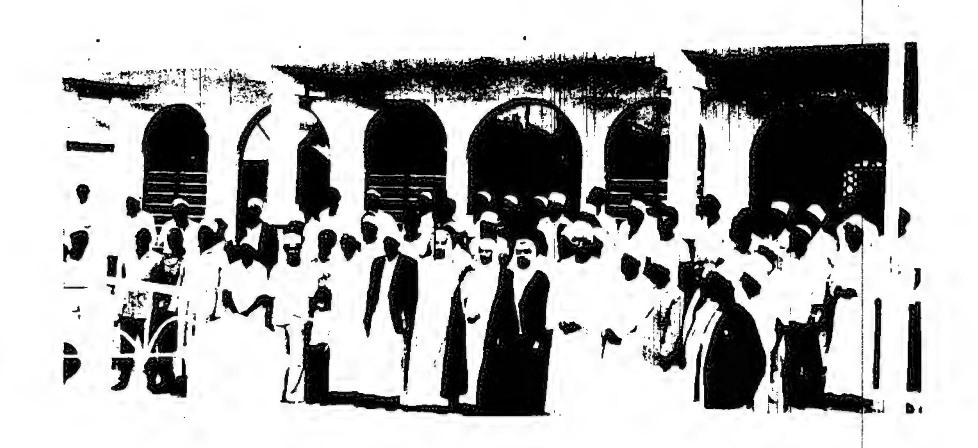
وهنا كان المطر قد انهمر انهماراً ، وأرسل وابله مدراراً ومع الوابل كان هواءٌ حنون ولكنهم اضطروا لإغلاق نوافذ المسجد في الجانب الذي يلي مهب الريح وهي جهة الغرب .

وبعد لحظات من تناول الحلوى بأطراف الأصابع جاء شخص واحد معه منشفة مبللة أخذ كل واحد يمسح بها أطراف أصابعه . ثم أقبل عدة رجال يحمل الواحد منهم إناء للقهوة ويحمل الآخر أكواباً (فناجيل) كالتي نشرب بها القهوة في بلادنا سواء بسواء ، وهم يصبون لكل شخص (فنجاناً) واحداً فقط من قهوة شبيهة بالعربية السورية .

واستمروا فترة وموزعوا الحلوى يجولون بين الصفوف ، وساكبوا القهوة يتبعونهم حتى شملوا جميع من في المسجد أو أكثرهم إظهاراً للفرج بوجود إخوانهم من العرب المسلمين ، لا سيما لكونهم من بلاد الحرمين الشريفين .

وبينما كانوا يوزعون الحلوى والقهوة كنت أتأمل المسجد فأجده نظيف الفراش ، نظيف البناء ، عليه آثار العناية التامة ، وفيه أكثر ما يحتاج إليه من مرافق . وفيه نوافذ واسعة جداً وكثيرة ، وبناؤه بالاسمنت وقد كتب على واجهة محرابه الآية الكريمة (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وجملة : (الحمد لله والله أكبر) . وفيه لوحات أخرى بالعربية إحداها : دعاء منظوم وبرنامج دروس دينية بالسواحلية وعليه تاريخ بنائه في عام ١٩٥٣ م .

ثم تقدم أحدهم فأذن لصلاة العشاء آذاناً شجياً فصيحاً صحيحاً لا أثر فيه لعجمة ولا لكنة ومباشرة أقيمت الصلاة بعد ذلك ودخل الإمام (صالح أحمد عبدالله) في الصلاة فقرأ قراءة متقنة وصلى صلاة حسنة . وكان الوداع بعد الصلاة حافلاً . كما كان في الاستقبال مماثلاً .



الوفد السعودي مع جموع المسلمين بالقرب من المسجد في بلدة ويتي

وعدنا إلى الدار ، وكان ضيفنا المحافظ ومرافقوه في الانتظار ، فأقاموا مائدة العشاء وهي تشبه مائدة الغداء ، وكان نجمها اللامع هو طبق الموز المقلي في الزيت زيت رفيق شجره ، ورصيف صِغَره ، في هذه البلاد جوز الهند الذي هو ثمار النارجيل .

هذا وقد برد الجو قليلاً بعد هطول المطر وإن كان قد بقي من حر النهار أثر أي أثر ، إلا أن المشكلة ليست هذه وانما هي في الحشرات (الناموس) الصغيرة اللاسعة ، غير أننا عندما دخلنا غرفنا الواسعة ، الفيناهم قد نشروا (الناموسيات) البيضاء فوق السرير . وقد انقطع الكهرباء فترة فما بالينا ، إلا أن انقطاع الماء كان صعباً علينا .

يوم الجمعة : ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٩هـ ٢٣ فبراير ١٩٧٩م .

لم يكن صباح الجزيرة الخضراء أخضر بالنسبة الى بعض الرفاق فقد كان نومهم في الليل متقطعاً لذلك كان صباحهم تَعِباً بسبب الحر في الليل ، والصخب من أشياء مختلفة تجاور الفندق .

ولكن الذي جعل الصباح ينقلب من التعب إلى الطرب هو عواطف إخواننا في هذه البلاد ففي الصباح الباكر جاؤا إلينا يحيون ، يبدون التحية ويعيدون ، وعلى رأسهم محافظ جزيرة بيمبا الشيخ جمعة مكام وبدأ الخدم في إعداد الفطور وكان من أهم ما ألفت النظر فيه اللحم المطبوخ الذي لا يقدم عادة إلا في الغداء أو العشاء والموز المقلي بزيت النارجيل الذي هو في جزيرتهم كثير .

وبعد الافطار ، وعند مغادرة الدار دار الضيافة قَدَّم المحافظ الشيخ جمعة لكل واحد منا هدية قال إنها من إنتاج هذه الجزيرة وهي نعال من عمل أهل البلد ، وقارورتان من زيت القرنفل وكيسان صغيران من القرنفل نفسه ، وذلك لكل عضو من أعضاء الوفد . وأُخذت الصور التذكارية لهذه المناسبة .

وحملنا أمتعتنا في الطريق إلى المطار حيث نغادر هذه الجزيرة الخضراء إلى جزيرة زنجبار . إلّا أنهم وضعوا في البرنامج قبل المغادرة زيارة مدرسة إسلامية اسمها (المدرسة الشمسية) وما أكثر الشموس في هذه البلاد التي شمسها تكون مختفية في كثير من الأوقات خلف السحاب ، وهي مدرسة أشبه بالكُتاب بتشديد التاء كما هو حال أكثر المدارس المماثلة لها في أكثر المهاجر الإسلامية ، إسم مديرها هو (احمد محمد عمر) قال : إنها أسست في عام ١٩٦٦م وتقع في (ويتي) وهي البلدة التي فيها دار الضيافة التي قضينا فيها ليلتنا البارحة ولم نلبث فيها طويلاً وانما واصل الموكب سيره مع الطريق التي قدمنا منها أمس وقد

زادتها الأمطار التي هطلت الليلة البارحة سوءاً إذ كثرت نُقَرها وحُفرها ، وتجمع الماء في تلك النُّقر .

ولم يكن في الطريق ما يسلي لولا الحديث مع الشيخ جمعة مكامٍ بوساطة المترجم الشيخ سعيد من السواحلية إلى العربية لأن الشيخ جمعه ليس ممن يجيدون الانكليزية وكان من حديثه أننا الآن نعمل لأمور ديننا ودنيانا وكنا في الماضي نعمل لأمور ديننا فقط إذْ كان أهلنا يمنعوننا من الالتحاق بالمدارس العصرية الانكليزية مخافة على عقائدنا . وقال : إن نتيجة ذلك أن أصبحنا نحن المسلمين ونحن الأكثرية من حيث العدد في تنزانيا قد استأثر بالوظائف الكبيرة عنا المسيحيون وهم أقل منا لكونهم أكثر تعلماً .

وكان من كلامه حديث عن الروابط الإسلامية بين هذه المنطقة وبين البلاد العربية إلا أنه كان يبدو في هذه النقطة متحفِّظاً بطيء الإقدام على الكلام .

وبعد أن قطعنا (٣٥) كيلاً من دار الضيافة في (ويتي) وصلنا المطار .

وانتظرنا في قاعة الجلوس الخاصة بينما كان العمال يرفعون الأمتعة إلى الطائرة التي وجدناها في الانتظار .

إلى جزيـرة زنجبـار :

قامت الطائرة الخاصة في التاسعة وعشر دقائق . وكان المنظر تحتها أول ما نهضت من الأرض شاطئاً من البحر أخضر المياه ، وساحلاً أخضر شديد الإخضرار . ثم إرتفعت الطائرة فغاب ذلك كله في ستار من الغمام .

وعندما تقدمت هذه الطائرة قليلاً كانت تخترق ساحل جزيرة زنجبار الشمالي الشرقي .

وكان المنظر الذي يراه من يطل من الطائرة هو منظر الحقول المزروعة المنسقة ، والغابات الكثيفة من أشجار النارجيل وبعض أشجار القرنفل إلا أن منظرها ليس منظر الغابات الطبيعية وإنما هو منظر الزروع المنظمة .

وعندما قاربنا الوصول إلى المطار في جنوب الجزيرة التفت إلينا قائد الطائرة وقال : إني سوف أتعمد أن أحوم بكم فوق مدينة زنجبار حتى تروها من الجو .

وكان ذلك بالفعل ولم يكن طيرانه مرتفعاً وعندما رأيتها كذلك خيل إليّ أنها لم تختلف عما رأيتها عليه قبل خمس عشرة سنة إلّا في شيء مهم فيها ظاهر ، ألا وهو بناء مجموعة من العمارات السكنية الشعبية التي بنتها الحكومة لسائر الناس وهو كثيرة وعالية ، ومنسقة بشكل بديع ، وهي تعطي منظراً أخاذاً لمن يحوم على المدينة من الجو فيراها بين بيوت المدينة القديمة ذات الطراز العربي القديم المسطحة السقوف وبين مناظر أكواخ المواطنين المسنمة السقوف .

وتجاوز الطيار مدينة زنجبار التي تقع في غربي الطرف الجنوبي لجزيرة زنجبار إلى البحر ليدور مرة ثانية يساراً إلى جهة مهب الشمال ثم يهبط ، فكان منظر غابات النارجيل النحيلة القوام ، الكبيرة الفروع ، الكثيرة الريانة في الالوان شيئاً مبهجاً ، ويبدو في البحر قريباً من شاطىء الجزيرة عدة جزر صغيرة كأنها السفن العائمة في هذا الجزء من البحر الزنجي . وكانت هناك قطع بيضاء من السحب المنخفضة تسبح فوقها كأنها أشرعة السفن الخافقة . وبعد أن أمضت الطائرة من الزمن (٣٥) دقيقة كانت تهبط :

في مطـار زنجبـار :

وهذه المرة كان للهبوط في مطار زنجبار أثر في نفس كاتب هذه السطور بليغ يختلف عن هبوطه فيه في المرات السابقة . ذلك بأنه في كل مرة من المرات

السابقة كان ينزل في المطار ، ولكنه لا يستطيع دخول الجزيرة مع شوقه العظيم إلى ذلك وبخاصة في المرة الأولى عندما كان للعرب بقية فيها .

ولكنه اليوم يهبط في المطار بطائرة خاصة من حكومتها ، ويتوقع أن يجد استقبالاً كريماً من أهلها ويوضع لإقامته فيها برنامج يستطيع تعديله أو تبديله بما يريد .

وعجبت من تصاريف الأمور ، وتغير الدهور .

وكانت الطائرة تهبط في أرض المطار وأنا تراودني هذه الأفكار إلى أن لمحت مجموعة من المستقبلين وهي تقبل على الطائرة في موقفها قبالة بناية مطار زنجبار القديم الذي جددوا طلاءه ، وطهروا أرجاءه مما كان فيه من لوحات تمثل الانسان الزنجباري وهو يكسر (القيد العربي) بيديه ، أو تمثل العربي (تاجر الرقيق) وهو يبيع الزنجباريين كما يبيع الماشيةَ ربُّها ويشتريها . ولكن التغيير شمل حتى الكلمة المحببة الباقية من العهد العربي القديم وهي كلمة (مطار زنجبار) باللغة العربية فقد ازيلت هذه الكلمة التي كانت بمثابة الشعار لعهد دال عليه الزمان بالبوار .

وكان الاستقبال استقبالاً حاراً شارك فيه مصورو التلفاز ومصورو الصحافة إلى جانب بعض آخذي الصور الخاصة .

وقد عرفنا من المستقبلين الأستاذ عبدالله علي ممثلاً لمحافظة زنجبار والشيخ (عمر زهران) الأمين العام للمجلس الأعلى الإسلامي في زنجبار والشيخ (حبيب علي كومبا) رئيس القضاة في زنجبار سبقنا إلى هذه الجزيرة .

وأجلسنا القوم الكرام في قاعة المسافرين في هذا المطار الذي أسموه عندنا (خاصاً) فقالوا : إنه لا ينزل فيه إلا ركاب بعض الطائرات لأن المطار العام الكبير هو الذي بجانبه وفيه كانت نزلت طائرتي عندما قدمت من مدغشقر إلى

دار السلام عن طريق مطار زنجبار قبل أشهر.

وبعد أن تمّ نقل الأمتعة والتعرف على المزيد من المستقبلين ، سار الموكب تتقدمه سيارة عسكرية فيها عدد من الجنود ، ويتبعها رتل من السيارات الصغيرة التي لم نر مثلها حتى واحدة في الجزيرة الخضراء (بيمبا).

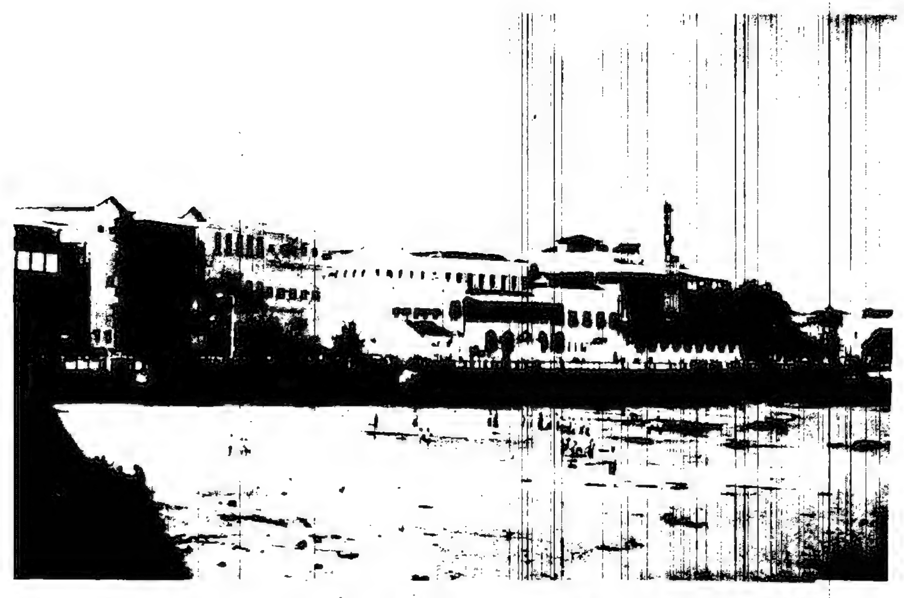
جزيـرة زنجبـار :

هي الجزيرة التي كانت في وقت من الأوقات بل في طويل من الاوقات جزيرة عربية من حيث الحكم والطراز إذْ لبث فيها العرب وان كانوا الأقلين قروناً من السنين هم كانوا الحاكمين إلا أنهم لم يكونوا يحكون البلاد حكماً عنصرياً كما كان يفعل المستعمرون الاوروبيون بل كانوا يفعلون ذلك لأنهم مسلمون كما كان الأتراك في البلاد العربية يفعلون.

وكان سلطان زنجبار تتبع حكمه الجزيرة الخضراء ويشملها اسم زنجبار إذا أريد بذلك دولة زنجبار كما كان يتبعه حكم الساحل الإفريقي الشرقي في كينيا إلى عهد الاستعمار الانكليزي ، وكان ذلك الاسم اسم زنجبار يشمله في القديم أيضاً إلا أنه تقلص عندما دخل الاستعمار.

وبعد الاستقلال بأربعين يوماً ثار الوطنيون الأفارقة على العرب ثورة عارمة فأسقطوا حكمهم وأزالوا دولتهم وذلك لأسباب ذكرتها في كتاب (في إفريقية الخضراء) . وذكرت أيضاً أن معنى اسم (زنجبار) هو (بَرُّ الزنج) أو ساحل الزنج في العربية الفصحى . وان هذا الاسم كان يشمل الساحل الشرقي لأفريقية كله ثم تقلص وانتقل إلى هذه الجزيرة (زنجبار) وجزيرة بيمبا المجاورة لها . مثل ما انتقل اسم (البحرين) الذي كان يشمل الساحل الشرقي للجزيرة من حدود قطر حتى حدود البصرة ويدخل فيه الأحساء والقطيف وما على الساحل من مرافىء قديمة إلى تلك الجزيرة الصغيرة التي تقع في مياه الخليج

والتي كان اسمها القديم (جزيرة أوال) فأصبحت (البحرين) ونسي الاسم الاصلي .



منظر للبيوت على شاطىء زنجبار .

ويبلغ سكان جزيرة زنجبار في الوقت الحاضر قرابة ثلثمائة ألف نسمة لم يبق فيها من العرب الذين كانوا موجودين فيها قبل عام ١٩٦٢م إلا أقل من ١٪ وذلك لما لاقوه من العناء فيها إن لم يكن القتل والنهب والسلب ولأن الذين منهم لم يكن لديهم ما ينهب أو يسلب وبقوا فيها أو في تنجانيقا وبخاصة من العمانيين الذين هم كانوا حكامها قد تحسنت الأحوال في بلادهم عمان وفي أقطار الخليج الأخرى التي رحبت بعودتهم وان لم يكونوا من سكانها الأصليين وهي إمارة أبو ظبي التي كان لحاكمها يد بيضاء في استقبال أول فوج من اللاجئين العمانيين الهاربين من زنجبار . وكان سلطان عمان السابق سعيد بن تيمور قد رفض السماح لهم بدخول عمان . أما من الناحية السياسية فان زنجبار قد أنضمت في اتحاد مع تنجانيقا كان اسمه أول الأمر (إتحاد تنجانيقا وزنجبار) ثم أصبح اختصاراً (تنزانيا) كما هو عليه اليوم .

سار الموكب من المطار قاصداً المدينة في طريق مزدوج جيد بين شقيه الذاهب والآيب جزيرة غير عريضة مزروعة بالأعشاب وفيها بعض الورود الجميلة .

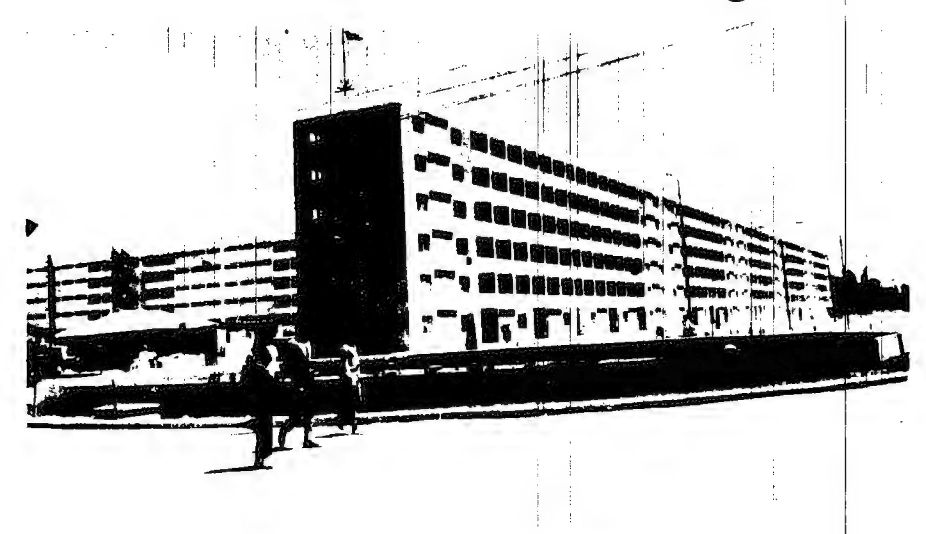
وبعد فترة وجيزة أصبحنا نرى بيوتاً مبنية من الاسمنت ومسقفة بالصاج أي : رقاق الحديد أو الصفيح وقد يرى المرء امرأة عليها العباءة السواحلية وهي ليس بذات اللون الأسود فيتخيل أنها من بقايا العرب المهجنين وان لم يسألها عن ذلك .

أما المنطقة التي يخترقها الطريق فانها تشبه بعض المناطق في سيلان : خضرة مطبقة أكثر ما فيها أشجار النارجيل الباسقة إلا أنها هنا يانعة الخضرة ريَّانة الفروع تظهر العناية بها أكثر منها في تنجانيقا وتحتها أشجار الموز وحشائش تغلق الفراغ من الأرض بينها .

وأحياناً يرى المرء بيوتاً مسطحة السقوف تشبه طراز البناء العربي الجنوبي أو هي مستوحاة منه . وربما لا يتيقن العربي مثلي من ذلك حتى يرى ما رأينا فيعجب وهي شجرة من أشجار الأثل التي هي نادرة في هذه المنطقة من إفريقية بل هي معدومة فلا يشك في أنها عربية المولد ، عمانية الانتماء أو حضرمية النشأة ولكنه يجدها هنا وقد وجدت في هذه البلاد الريانة ما تفتقده في بلادنا العربية الضمآنة فتراها قد اخضل ورقها ، وتكاثرت الأوراق في أغصانها ويرى فيها شيئاً آخر إن لم يكن من الواقع فانه من نسج الخيال إلا وهو سمرة في أغصانها وهدبها ربما كان سببها الخضرة الشديدة وقد يقول الخيال : ان سببها أنها حلت في هذه الأرض الإفريقية التي تصبغ شمسها الأجساد بالسواد فآثرت أن تشارك أهلها الأولين بهذا الصباغ الذي هو لها مما يزين ولا يشين .

وبعد حوالي ٧ كيلات من السير دخلنا ضواحي مدينة زنجبار ولكننا لن ندخل في وسطها الآن لأن مقامنا الذي حجزه لنا مضيفونا هو في فندق في ضواحي المدينة ونحن نقصده لا نقصد غيره .

وعند وصول المنطقة التي فيها الفندق لاحت لنا البنايات الحكومية التي بنتها لعامة الناس ، شامخة البناء ، نظيفة الفناء وان كانت لا تبعد عن أكواخ قديمة من طراز المساكن الزنجبارية القديمة التي هي من الأعواد المطلية بالطين المسقفة بالصفيح .



المجمعات السكنية الحكومية في زنجبار

ووصلنا الفندق واسمه (فندق بواواني) فإذا به من فنادق الدرجة الأولى ولكننا أحسسنا أنه من فنادق الدرجة الفاخرة ، وذلك بالنسبة الى دار الضيافة التي كنا فيها أمس ، ولفندق شاطىء كيقوما الذي كنا فيه قبل أمس .

وكان هذا المكان من هذا الفندق المريح هو خير ما تهفو نفس المرء إلى أخذ راحة فيه ، أو الاستسلام لغفوة بملء جفنيه ولكن أنى ذلك ، والبرنامج حافل ، ونحن بشوق إلى معرفة كل الأشياء التي لا نعرفها في هذه المدينة .

جلسنا قليلاً في قاعة الاستقبال في الفندق وسط مناظر عربية وأثاث مستوحى من المدنية العربية العمانية التي كان بها اختلاط بشيء من المدنية الهندية الإسلامية التي هي في أصلها نتاج ما بين المدنية العربية والفارسية في خراسان .

ففيه باب جميل المربعات منقوش نقشاً عربياً بالخشب المخروط ، وفيه صندوق عليه مسامير صفراء منقوشاً بها بأشكال متناسبة مما كان أهل نجد قد اعتادوا على أن يرسلوه مع مهر العروس ، إلى غير ذلك مما يشعرك بأن ذوق القوم هنا قد خرج من دائرة ذوق الأفريقيين إلى ذوق العرب الجنوبيين ولكن التعصب هو الذي كان قد أعمى بعضهم عن كثير من ذلك . حتى لم يروا في علاقة العرب بهم وبخاصة العمانيين منهم إلا علاقة السيد بالمسود بل العبد بصاحب القيود .

في جامع زنجبار :

سرنا على البرنامج الذي يقول : يجب أن نكون في المسجد الجامع في زنجبار في الساعة الحادية عشرة والنصف مع أن صلاة الجمعة تقام في الساعة الواحدة وذلك حتى نرى القوم من إخواننا ويرونا ، ولما كان الوقت وقت صلاة ، والأمر أمر عبادة فقد رضينا به وان كان طويلاً ، وفي غير هذا المكان يكون مملاً ثقيلاً .

وسار الموكب يتقدمه الجنود بلباسهم الرسمي وعددهم أربعة ومن إنفراداتهم أنهم يتكفلون بفتح باب السيارة لكل واحد من أعضاء الوفد وإغلاقه بعد دخوله في السيارة وهو أمر لا نريده لأننا نعتبرهم إخواناً لنا لا نحب أن يخدمونا أكثر مما يخدمنا أهلنا ، كما أننا نستطيع أن نفعل ذلك بأنفسنا .

ووصلنا المسجد الجامع في ركن من البلدة القديمة ويسمونه (مسجد

الجمعة) فإذا به عربي الطراز أبيض الطلاء ونوافذه طلاؤها أخضر تحمل سقوفه عمدٌ بينها أقواس عربية أصيلة وفوقها أخشاب كالتي تكون في البنايات العربية القديمة .

وقد احتفوا به فأكملوا له ما يلزمه من أثاث وفراش حتى إن عدد الساعات الكبيرة فيه أربع إحداها كبيرة جداً ذات (بندول) ضخم طويل .

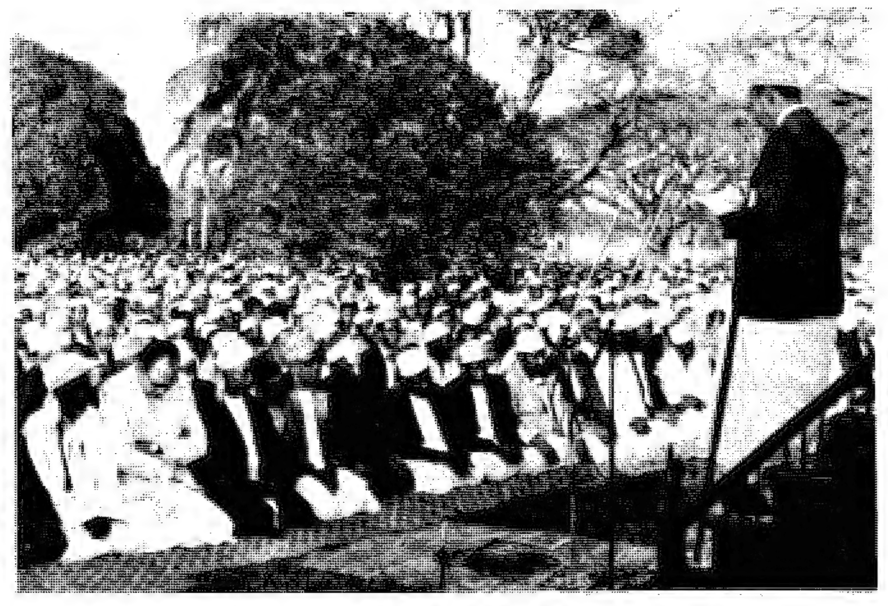
ومحرابه قد أغلق منه ما بين الخطيب وجمهور المصلين بخشب بحيث يرون رأس الخطيب ووجهه ولكنهم لا يرون صدره فما كان أسفل من ذلك من جسده وهذه عادة لهم في بعض مساجد شرقي إفريقية رأيناها قبل أيام في مسجد الجمعة في دار السلام ، وفي هذا المنبر شرفات عربية .

وقد رأينا القوم حضروا مبكرين حتى إنه كان في المسجد في وقت قدومنا قبل الصلاة بأكثر من ساعة عدد من الصفوف تسمع كل واحد منهم يتلو القرآن بمفرده كما يفعل الناس عندنا في المملكة وان كانوا لا يبالغون في رفع أصواتهم في القراءة .

وقد حضر عدد من علية القوم لأداء الصلاة وأدوها في الصف الأول منهم الشيخ عمير تاج رئيس الوزراء في عهد السلطان ، وثابت كومبو وزير التجارة ورئيس الحزب الإفريقي الشيرازي السابق وكان عضواً في الثورة الطائشة ، وقد نجا من الموت بأعجوبة إذْ كان مع عبيد كرومي عندما قتل ، ولكنه لم يصب إلا في رجليه وقبل الخطبة قرأ المؤذن واسمه (صالح سعيد) سورة الصفِّ قرأها قراءة مجودة مرتلة أحسن فيها ما شاء له الإحسان أن يفعل وقد تأثرنا بقراءته وطربنا لها .

وقد دخل الخطيب واسمه (الشيخ علي خطيب) الذي هو أحد خطباء المسجد الجامع فألقى خطبة قصيرة بالعربية كان قد التقطها من أحد الكتب

القديمة بلا شك اتبعها بخطبة قصيرة أيضاً بالسواحلية أعتقد أنها ترجمة لها . وكان ذلك لنا مناسباً لأننا بحاجة إلى التخفيف . وكانت الخطبة الثانية مثلها خفيفة أيضاً أولها العربية وبعدها السواحلية .



منظر لخطبة العيد في زنجبار.

وكان إخواني وبعض القريبين من الوفد قد قالوا : إن الناس ينتظرون من الوفد أن يلقي فيهم كلمة وأنها سيكون لها أثر كبير في نفوسهم لما كانت قد شحنت به من قبل من مشاعر العداء ، ومن الإفك على العرب وبخاصة منهم العمانيين غير أن الوضع السياسي حساس جداً لذلك لا ينبغي أن يلقي هذه الكلمة غيرك لا سيما أنها فرصة ينبغي أن تنتهز حين تخاطب هؤلاء الأخوة المسلمين في هذا الاجتماع العام الذي سيكون مشهوداً من الحاكمين والمحكومين ومن السياسيين ورجال الدين والأمر يقتضي أن تكون الكلمة التي تلقي تصلح لجميع المستمعين .

فصدعت بالأمر ، وألقيت كلمة في جمع ضاق به المسجد الجامع ، وكان مكبر الصوت يلقي بها في المسامع خارج الجامع وأكدت أن التعاون على البر

والتقوى هو الذي ينبغي أن يكون طابع العلاقات بين المسلمين فتلك هي أوامر الدين ، وهي لا تعني التدخل وفرض الإرادة من جانب على جانب .

وكانت في رأيي كلمة مناسبة في موقعها وفيما تضمنته معانيها لا سيما أنني تطرقت فيها إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من خلق رفيع في معاملته وسلوكه مع الآخرين . ولم يكن فيها من عيب إلا عيب خارج عن إرادة ملقيها ألا وهو مترجمها من العربية إلى السواحلية ، فهو كثير السهو ، سيء الحفظ حتى إنه عندما تكلم قبل كلامي ليعرف القوم بالوفد وكان معنا طيلة جولتنا في تنزانيا التي كانت قد استغرقت ذلك اليوم ثمانية أيام ومع ذلك لم يحفظ اسماءنا فكان يقرأها من ورقة إذا أراد ذلك ، وقد لامه الشيخ عباس مصطفى المقبول على ذلك — وليته لم يفعل — إذ كانت نتيجة ذلك اللوم وعداً منه بأن يحفظ الأسماء الأربعة وألا يعود إلى قراءتها من ورقة .

وقد نفذ وعده الذي هو في الحقيقة وعيد فما أن بدأ بذكر أسماءنا حتى نقل اسم والدي (ناصر) إلى موضع اسم والد زميلي الشيخ إبراهيم بن صالح آل الشيخ ، والاسم العائلي له (الشيخ) إلى اسمه الأول . وأما زميلنا الشيخ محمد ابن قعود فقد أعطاه النصيب الأوفر من أسماءنا فأصبح اسمه الشيخ إبراهيم القعودي وأما الشيخ عبدالله بن إدريس الذي هو واضح اسمه فانه لم ينله من التحريف إلا جعل محمد اسم الشيخ محمد بن قعود بديلاً من اسمه عبدالله .

وقد سارع القوم من مرافقينا يحاولون أن يصححوا له الأسماء وهو يحاول أن يثبت لهم أنه يعرفها أو أنه على الأقل قد فهم ذلك التصحيح على وجهه الصحيح ولكنه ضاع فيها وأضاع ، فقلت للقوم : دعوه ليقل ما يريد فمعظم القوم لا تهمهم الأسماء ، وإنما تهمهم الأقوال التي تدل على الأفعال .

ولو كان غلطه مقتصراً على الأسماء لكان ذلك أقل حجماً ولكنه كان ينسى

أول الكلام الذي يريد ترجمته فيطلب مني أن أعيده فأعيد معناه لأنني كما كنت في جميع خطبي وكلماتي في المحافل لا أقرأ من ورقة ، ولا أتلو كلمة معدة .



صورة لصلاة العيد في زنجبار

ولعل من الطريف أن نذكر هنا المنظر اللطيف الذي يسير فيه الشيخ المترجم المذكور ، فهو قصير بدين ، ومع ذلك يلبس ثوباً أبيض واسعاً تزيد من سعته وترفع من أركانه فوطة قد لفها أسفل الثوب على النصف الأسفل من جسمه تطل أطرافها من تحت ثوبه على غير استحياء . ويلبس فوق هذه الثياب الواسعة على جسمه البدين صدرياً (جاكيت) طويلاً واسعاً أيضاً يكاد يضرب إلى الفخذين . وفوق ذلك قلنسوة زنجبارية أو قل أفريقية شرقية أصيلة .

وكأنما أحَسَّ ـــ رعاه الله ـــ بأن هناك نتوّاً من أسفل ثيابه الواسعة فأراد أن يوازيه بنتوء آخر وان كان صغيراً وفي أعلى جسمه ذلك هو شفتاه فانه كان

يبدو دائماً وكأنما قد زم شفتيه ورفعها كالمستهزىء بمن يصغي إليه .

جولـة في جزيـرة زنجبـار :

الهدف من هذه الجولة هو الجولة نفسها ومعها زيارة مسجد قديم بل هو من أقدم المساجد التي يعرف تاريخها في هذه الجزيرة ، ويقع في بلدة أو قل قرية اسمها (كزيمكاري) على بعد (٦٨) كيلومتراً إلى الشمال من مدينة زنجبار .

بدأت الجولة في الساعة الرابعة والنصف عصراً فسار الموكب مع المرافقين وأمامه السيارة العسكرية ذات العلامة فوق ظهرها وفيها عدد من الجنود .

فما أن خرجنا من مدينة زنجبار (مجيني بالسواحلية) حتى وصلنا قرية اسمها (ميقو نقوني) فيها سوق للبيع والشراء حركة البيع والشراء فيه ضعيفة ، والسلع الموجودة فيه محدودة وبيوتها الراقية من الحجارة ومسقفة بالصفيح ، وأطراف القرية ذات بيوت مبنية بالطين ومسقفة بالصفيح .

قريـة عالـم شـاه :

ولم نكد نغادر قرية (ميقو نقوني) حتى وصلنا قرية أخرى اسمها (عالم شاه) سميت على اسم رجل كان عاملاً ضعيفاً ولكنه كافح وناضل حتى استطاع أن يبني فيها مسجداً هو أول مسجد بني فيها فسميت باسمه . وهي قرية ريفية أكثر منازلها أكواخ مسنمة السقوف سقوفها من القش الذي يأخذونه من فروع أشجار النارجيل .

الـريف الأخضـر :

ثم انفسحت الأرض أمام الموكب في ريف أخضر أشجار النارجيل فيه ملتفة نضرة ، والطريق مسفلت سفلتة متوسطة والسائق يسرع في سيره فطلبنا منه أن يتمهل ، وكان الذي معنا في السيارة الأولى من الموكب هو (حبيب كومبا) رئيس القضاة في زنجبار وهو يأخذ بالحكمة القائلة : (من حسن إسلام

المرء تركه ما لا يعنيه) والذي لا يعنيه في رأيه حسبما فهمنا من حاله هو الذي لا ينفعه . فهو يتجاهل أسئلتي التي لا يعرف لها جواباً في أكثر الأحيان وإذا ألححت عليه بالسؤال أخذ يسأل سائق السيارة وهو شاب لا يعرف العربية ، وأعتقد أنه لا يجيد الانكليزية وكان فضيلة القاضي حبيب كثيراً ما يجيب على أسئلتي بضحكة رنانة لا أدري مبعثها ولكن ربما كان لها عنده ما يبررها مثل عدم اعتقاده جدوى الأسئلة .

وقد مررنا في هذا الريف بقرية صغيرة اسمها (فووني) رأينا على قارعة الطريق فيها أكواماً من المحصول الزراعي الرئيسي في هذه البلاد وهو جوز الهند (ثمر النارجيل) .

ثم بقرية (بميني) فسألت عن وجود العمانيين فيها هنا فقالوا : إنها لا يوجد بها أحد منهم .

وفي أطراف هذه القرية منازل الريفيين هنا وهي أكواخ جدرانها من الأعواد المطلية بالطين والمسقفة بسعف النارجيل .

وبعد هذه القرية ضاق الطريق قليلاً إذْ هو قد أوغل في الريف ، والبعد عن العاصمة ، وصار المرء يرى فيه بعض البقع التي تحتاج إلى إصلاح ولكنها لم تصلح . حتى إنه قابلتنا مرتين سيارة كبيرة فكانت تقف في جانب الطريق حتى نتجاوزها . أما السيارات الصغيرة فأنها لا تقف بل تمر على ضيق . هذا مع العلم بأن عدد السيارات التي قابلتنا في هذا الطريق هو قليل جداً .

وسار الموكب في ريف ملتف الخضرة فيه غابات الأشجار ، وغراس الموز ، إلا أن عدد الناس فيه قليل ، ولم أشاهد حيوانات ولا طيوراً هنا .

ومررنا بقرية اسمها (قبيلة) لا أدري ألذلك علاقة بكلمة (قبيلة) العربية ومعظم بيوتها تقع إلى أيمن الطريق .

ثم تنحّت الأشجار العالية . وأفسحت الطريق للنظر لكي ينفذ إلى أبعد مما يجاور طريق السيارات ، وصار الريف أخضر كثيف الخضرة من الأعشاب التي يخيل للمرء أن أكثرها أعشاب طبيعية غير مغروسة ولكنها من الكثافة بحيث تبدو على جوانب الطريق كالسو ر الذي يبلغ ارتفاعه أعلى من قامة الرجل . ولا أدري لماذا أصبح هذا الجزء من الريف خالياً من أشجار الغابات على حين أن الذي قبله والذي بعده كثيف الغابات كما شاهدنا حين تركناه غابات كثيفة ، حتى أن بعض الأشجار قد تشابكت فروعها فوق الطريق فكنت فيها تمشي إذا مشيت كأنما أنت تحت سقف أخضر . وقد كثرت في هذه المنطقة أشجار العمبة (المانجو) الضخمة إلى جانب أشجار النارجيل .

وترى بين الفينة والأخرى بعض الفلاحين ذوي المظهر البائس بأثوابهم الممزقة ، وفي أكثر الأحيان تكون متسخة ثم مررنا بسوق ريفي ليس فيه مما يباع إلّا جوز الهند وما اشتق من النارجيل .

وهنا وقفت الغابات بعد أن جاوزناه قليلاً ليصبح المنظر ريفاً مفتوحاً أخضر خالياً من الأشجار العالية . وعندما سألت الشيخ حبيب عن السبب في ذلك قال : ربما كان ذلك لأنها أرض صخرية قال ذلك بعد أن سأل السائق ، ولكن الأشجار العالية وبخاصة أشجار النارجيل تنبت في الأراضي الصخرية بل هي قد تنمو في صخور ليس فيها ما يكفي من التربة كما هي عليه الحال في جزر القمر .

وهنا لمحنا البحر على يميننا غير بعيد ووصلنا إلى قرية اسمها (أونقوجا أوكو) قال الشيخ حبيب : إنها أول قرية سكنها المهاجرون الأولون هنا ولا يدري من هم ولا من أين جاؤا فزرعوا اللوبياء فيها ، فلما حصدوا المحصول ، وجعلوه في البيدر قالوا (أو نقوجا أوكو) أي : اللوبيا كثير فسميت بهذا الاسم .

وقد تبادر إلى ذهني تساؤل بأن يكون أولئك القوم من العرب القادمين من ساحل الزنج وهو الشاطىء الشرقي لإفريقية ، أو من عمان لكون هذا المكان قريباً من البحر ، ولأن اللوبيا معروف في البلاد العربية ، ولكن لا أعرف مقدار ذلك من الصحة ، وقد يؤيد ما قلت أنني رأيت هنا أشجاراً من أشجار الأثل وهو ليس معروفاً في القارة الإفريقية الداخلية ، ولعله مما أحضره هؤلاء العرب إما من البلاد العربية أو من شجرة في مكان آخر وغرسوه للانتفاع بأخشابه في البناء فهو أسهل استعمالاً من خشب النارجيل الذي يحتاج إلى تهذيب وتشذيب ، وإذا استعمل من غير ذلك كان ثقيلاً صعب الرفع والوضع .

ثم تجاوزنا بعد هذه القرية قرية اسمها (إيتوقان) فيها أكواخ من القش ، وقد لاحت لنا بعد أن فارقناها إلى جهة اليسار تلة خضراء هي التلة الأولى التي رأيناها منذ أن جاوزنا مدينة زنجبار .

وبعد ذلك حاذينا بعض حقول الأرز الضيقة وكنا نلمح بعض النسوة في هذه المنطقة ، وهن لا يرتدين العباءات السواحلية ولعل سبب ذلك أنهن من الفلاحات العاملات بالزراعة ولبس العباءات مما يعوقهن عن العمل ، أو مما تعجز جيوبهن وجيوب أزواجهن عن إدراكه .

وبعد أن سرنا قليلاً حاذينا بلدة اسمها (ميوني) بيوتها أكواخ من الطين والقش وتظللها أشجار الغابات وهناك رأينا بئراً قد تحلق عليها جماعة من النساء يحاولن أن يأخذن الماء منها ، والسبب في ذلك ظاهر إذ هذه المنطقة ليس فيها أنهار ، وليس فيها أنابيب حديثة للمياه لأنها ريفية بعيدة ، وإنما المياه الموجودة فيها هي مياه الأمطار المتوفرة على هيئة مستنقعات وماء البئر أنقى وأصح من ذلك ولكن الظاهر أنه صعب التكاليف ، وان كنت لم أقف عليه في هذه

البلدة وذلك لأنه لو لم يكن كذلك لما كانت بهن حاجة إلى المجيء من بيوتهن لجلب الماء منه ، ولكان الناس يحفرون الآبار في بيوتهم كما يفعل أهالي جزر مالديف التي لا يصعب فيها حفر الآبار لقرب الماء فيها .

ودخلنا في غابات وأراضٍ رطبة ندية وقد جادها الغيث قريباً ربما كان ذلك صباح هذا اليوم أو مساء الأمس ، فشاهدناهم وهم يحرقون الأعشاب والأشجار الطفيلية حرقاً حتى تفسح المجال لهم لزراعة الأرض . وتلك الأعشاب والأشجار النامية تبدو غُفلاً دون زرع أو تهذيب وهي بجانب الطريق كأنها الجُدُر الحصينة تغلق النظر إلى ما خلفها من الأرض القريبة .



من ريف زنجبار

بلدة كزيمكاري :

وهي البلدة التي خرجنا من مدينة زنجبار بقصد زيارتها . خرجنا إليها من الطريق الاسفلتي متجهين جهة اليمين في طريق طيني في جوف الغابة ولا يصح أن توصف أشجار هذه المنطقة إلا بهذا الوصف فسرنا غير بعيد ثم وصلناها ، فكان أن قصدنا مسجدها الجامع قصداً . وهناك رأينا جموع

إخواننا المسلمين من أهالي هذه البلدة قد تجمعوا في المسجد وخارجه ، واستقبلونا استقبالاً مليئاً بالعواطف حتى إن بعضهم لا يستطيع أن يسيطر على حركاته وهو يسلم على إخوانه القادمين من أرض المملكة العربية السعودية التي فيها الحرمان الشريفان فكانوا يرتبكون عند السلام أو المصافحة ، وبعضهم يسارع يحاول أن يقبل أيدينا فإذا منعناهم من ذلك حاولوا أن يقبلوا الثياب .

وبعد أن اخترقنا الجمع الذي كان موجوداً خارج المسجد ودخلناه ألفينا عدداً من الأخوة المنتظرين فيه . غير أن كتابة عربية كوفية في مقدمة المسجد لفتت إنتباهي أنا وزميلي الشيخ عبدالله بن ادريس فأسرعنا نحاول قراءتها وهي كثيرة طويلة خالية من النقط إلا أنهم لحسن الحظ قد نقلوا الجزء الهام منها مصوراً إلى لوحة معلقة بجانب المحراب مع إثبات قراءته بالحروف العربية الحديثة وهذا نصها :

(أمر الشيخ الرئيس جناب السيد أبو عمران موسى بن الحسن بن محمد مفهو ، أبو عمران ، أهلك عدوه ببناء هذا المسجد يوم الأحد من ذي القعدة سنة خمسمائة) .

وقد قارنت هذه الكتابة الحديثة بأصلها القديم فإذا بها صحيحة ، وقد حرصت خاصة على مقارنة تاريخ اليوم الذي ذكر أنه يوم الأحد من القعدة ، ولم يذكر أي يوم هو من أيام الشهر المذكور اللهم إلا إذا كان المراد بالأصل يوم الواحد من القعدة .

والخط كوفي أقرب الخطوط الموجودة المستعملة إليه اليوم هو الخط المغربي .

وتحت النص الكوفي المنقول في اللوحة العبارات التالية (رمم هذا المسجد عام ١١٨٤ هـ ورمم مرة أخرى سنة ١٣٧٩ هـ وقام بإصلاحه الشيخ المحترم

حمود سعيد الخروصي) .

وظني أن الترميم إنما وقع على السقف وما حوله لأن جدران المسجد كلها من الحجارة القوية المهذبة المطلية بالجص أو الآجر ولذلك بقيت هذه الكتابة العربية الكوفية سليمة وهي لا تقدر بثمن من الناحية التاريخية . بخلاف السقف الذي هو من الخشب ويحتاج في هذه البلاد الرطبة إلى ترميمه كل عدة قرون .

ثم قرأت على محراب المسجد الذي هو في جهة الشمال منه لأن قبلتهم هنا إلى الشمال ما يلي بالحرف الواحد : (ندان محراب . أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقران الفجر إنَّ قران الفجر كان مشهوداً) و(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) .

والمسجد على أهميته التاريخية هو صغير المساحة ذو أعمدة غليظة من الحجارة وأسقف من الخشب الغليظ أيضاً .

سألنا بعض أهل البلدة عن الذين بنوه أول الأمر حسبما سمعوه من أهاليهم ، فأجابوا بقولهم : إنهم من بلاد العرب جاؤا إلى هذه الجزيرة هاربين من الحجاج بن يوسف . وقال بعضهم : أو من غيره من الحكام . وهذا كنت قد سمعت به في عدة بلدان مثل مدينة لامو وماليندي وجزيرة سيلان . بل حتى في مقديشو عاصمة الصومال . كلها تقول : إن الإسلام فيها دخل على أيدي أناس من العرب وأحياناً يقولون من السادة فروا من جزيرة العرب إبان حكم الحجاج بن يوسف وبعضهم يعمم ذلك فيذكر أنهم فروا من حكم الأمويين وعلى أية حال فان مثل هذا المسجد ذي التاريخ القديم ليس هو بالوحيد الذي يوضح أن دخول العرب المسلمين إلى هذه الجزيرة كان قديماً وإنما هو لوحة واحدة مقرؤة والا فان المفهوم أن العرب كانوا قد عرفوا بر الزنج أي ساحل

إفريقية الشرقية وجزره قبل ذلك بقرون ، بل إن المسعودي وهو من أهل القرن الثالث قد ذكر مدغشقر وذكر إقليم سفالة الذي هو ساحل موزمبيق وجزء من ساحل جنوب إفريقية الشرقي ، وان كان ذكر مدغشقر بغير اسمها التي تعرف به الآن فقال : (جزيرة القمر) أكبر جزيرة في بحر الزنج .

بل إن بعض المؤرخين يقولون إن العرب كانوا قد عرفوا هذه السواحل حتى قبل ظهور الإسلام وذلك لأن الملاحة العربية بين هذه الجزر وبين سواحل الجزيرة العربية الجنوبية أمر كان معروفاً منذ القديم .



قوارب الصيد على شاطىء زنجبار

الماء من البئر ومن رأس الشجرة :

ألقيت كلمة قصيرة في الإخوان المجتمعين في هذا المسجد بينت لهم فيها الهدف من قدومنا إلى هذه البلاد ثم خرجنا من المسجد الذي كان الحر فيه خانقاً لأن الجو في الخارج أيضاً كان رطباً ثقيلاً ، وكان المسجد إلى ذلك غاصاً بالناس .

ورأيت بئراً بجانب المسجد مطوية تشبه تماماً الآبار الموجودة في البلاد

العربية فقدرت عمقها بثمانية أمتار ، وهي مطوية طياً محكماً مستديراً يشبه طيّ البئر التي رأيتها في ساحل كينيا في مدينة (قيدي) الأثرية بالقرب من بلدة (ماليندي) وعندما كنت أتأمل هذه البئر الزنجبارية سألت أحد الحاضرين بوساطة المترجم لأنهم لا يعرفون العربية ومترجمنا في تلك الساعة هو الشيخ (عمر زهران) أمين المجلس الإسلامي الأعلى في زنجبار فقلت لهم : أماؤها عذب ؟ فأسرع أحدهم يخرج الماء من دلو معلق بجانبها ويسقيني منه ماءً جيداً عذباً ولكن ما أن بدأت بشربه حتى أقبل أحدهم مسرعاً وناولني ثمرة من ثمار النارجيل الأصفر الفاخر ذي الماء الجيد يريد بإسراعه ألا أشرب الماء فيفوتني بذلك شرب الماء من هذه الثمرة فتركت ماء البئر لماء الشجرة ، وكان ماء الشجرة جيداً غير أن فيه شيئاً من الحموضة مع أنهم قطعوا الثمار قبل قليل ، وفتحوها ونحن ننظر .

وبعد شرب ماء النارجيل جاؤا بالسكين الكبيرة التي كانوا يفتحون بها الثمار ففلقوا وعاء الثمرة وقسموها إلى نصفين فأخذنا نأكل من شحمها الذي هو يشبه بياض البيض المسلوق سلقاً كثيراً في اللون والمضغ في الفم غير أنه يخالفه في الطعم إذ فيه دسم لكنه غير خالص بحيث أن المرء لا يحس من عدم الاستساغة عند أكله بما يحس بذلك عند أكل الشحم .

وللنارجيل هناك أهمية كبيرة وهذه المنطقة تنتج منه إنتاجاً وفيراً رأيناهم قد وضعوا بعضه في أكياس من الخيش يعدونه للإرسال إلى مكان آخر .

البيـوت من البيئـة :

تتألف معظم البيوت في هذه البلدة (كزيمكاري) من أكواخ مبنية بالأعواد التي طلي ما بينها بالطين وسقفت بسعف النارجيل على شكل مُسنَّم حتى ينزلق عنها المطر عند نزوله . ولم أر فيها بناء حجرياً غير المسجد ، وإذا

تأمل المرء بيوتها التقليدية وجد أنها كلها مِن البيئة المحيطة بها التي تتوفر فيها تلك المواد مثل الأشجار والأعواد. أما الطين فهو من الأرض التي هي طينية بالفعل وليست سبخة بسبب بعدها عن شاطىء البحر. ولذلك لا يكتفي من يراها وهو غريب عنها بأن يقول: إنها خضراء بل لا بد من أن يقول إنها غابة من الغابات الكثيفة فذلك هو الوصف الحقيقي لها ولم أر لها شبيهاً من قرى المسلمين على كثرة ما رأيته منها إلا أماكن في جنوب جزيرة سيلان تكلمت عليها في كتاب: (أيام في سيلان مسقط قدم آدم).

مدرسة خديجة:

يبقى سؤال له صلة بما سبق وهو هل بناء هذه المنازل غالٍ؟

والجواب: يكون في سرد القصة التالية:

عندما فرغنا من المسجد ومن تناول الضيافة من ماء النارجيل ووقفنا قليلاً هناك ودعنا جمهور الموجودين عند المسجد وركبنا وكنا نظن أننا سنذهب إلى مكان بعيد، وإذا بنا نقف عند مكان في البلدة قريب قالوا: إن هنا مدرسة، ووقفوا في زاوية من زقاق غير منتظم بين عدد من الأكواخ الطينيّة المسقوفة بسعف النارجيل، فتلفتنا نبحث عن المدرسة، ولم نجد غير أمرأة واقفة أشار إليها الجميع وقالوا: إنها المعلمة. فسألناها أين مقر المدرسة؟

فقالت: ههنا وأشارت إلى ركن الزقاق وضعت فيه ثلاثة أو أربعة من عُسُب — جمع عسيب — شجر النارجيل، ولم نر شيئاً فقالت: إننا نعلم التلاميذ هنا لأننا لا نستطيع أن نجد كوخاً أو عشة لهم لأن ذلك يتطلب نقوداً نحن لا نملكها، ولولا أن أهل البلد الموجودين معنا يسمعون كلامها ويؤمنون على ما تقول لما صدقنا قولها غير أنهم قالوا: إنها هي التي تعلم أبناءنا وإن هناك

مدرسة أخرى في جانب منعزل من البلدة يصعب الوصول إليه ، وإنها مثل هذه فسألناها عن اسم المدرسة ؟ فأجابت وأجاب معها زعماء البلدة : إنها المدرسة فقط ولا اسم لها . فقلت لهم : ما اسم المعلمة فأجابت : خديجة بنت خطيب ، وأشار القوم إلى رجل واقف مع الناس لا يشارك في الكلام وقالوا : هذا هو زوجها ، وهنا اقترحت عليهم أن تسمى (مدرسة خديجة) فضحكوا ووافقوا على ذلك . وهنا سألناهم كم يكلف بناء المدرسة إذا كانت من غرفة واحدة كبيرة أو من غرفتين كما هي الحال في أكثر هذه البيوت الموجودة و بمثل بناء البيوت هذه ؟

فأجابوا : إنه في حدود ثمانية آلاف شلن أي : ثلاثة آلاف وخمسمائة ريال وان هذا المبلغ كاف لبناء المدرسة ، فسألناهم : وثمن الأرض ؟ فأجابوا : الأرض لا ثمن لها ، إنها تجد أرضاً مجانية فقيدنا ذلك عندنا على أمل أن نعطيهم هذا المبلغ لينفق لهذا الغرض بوساطة القاضي مع مبعوث رئاسة الافتاء إلى تنزانيا الشيخ عباس مصطفى المقبول .

وسألنا أهل القرية والمعلمة عن عدد الأطفال عندها ؟ فأجاب الجميع : إنه خمسة وثلاثون ما بين طفل وطفلة .

وهنا سأل أحد الإخوان عما إذا كانت المعلمة تحفظ القرآن الكريم ؟ فأجابت : إنها تحفظ بعضه .

إننا نحرص على تشجيع هذه الكتاتيب المسماة بالمدارس الإسلامية لأنها على وجه التقريب هي الوحيدة التي تدرس الدين الإسلامي واللغة العربية ، وهي التي تكون موجودة بين عامة المسلمين في قراهم وأريافهم .

وهنا تأملت هذه المنطقة التي قلت إنها كثيفة الخضرة ، وثم يكن يكدر من السرور بالبقاء فيها مع ضيق الوقت إلا الحر الناشيء عن الرطوبة الشديدة مع

ركود الهواء ، ومظاهر الفقر والعوز .

وكانت ملابس الرجال هنا هي الملابس السواحلية ، وملابس النساء هي اللباس الإسلامي الغالب في هذه البلاد ما عدا العباءة السواحلية التقليدية فانها ليست موجودة هنا حسبما رأيناه .

العودة إلى مدينة زنجبار :

وعدنا مع طريقنا الذي جئنا منه إلا عندما قربنا من المدينة . وكانت السيارات مسرعة في العودة ولم نكن نطلب إليهم أن يتمهلوا بل ربما طلبنا منهم أن يستعجلوا إذْ كان لنا برنامج لا بد من إكماله .

ولاحظت في الطريق شيئاً لم ألاحظه من قبل وهو كثرة الحطب المعروض للبيع من أشجار الغابة الكثيرة في هذه البلاد وقال لي القاضي : إن الوقود الرئيسي للأهالي هنا هو الفحم أما الغاز فإنه يكاد يكون غير موجود .

وصادفنا في العودة مجموعة كبيرة من الأطفال يقدر عددهم بما يزيد قليلاً على العشرين وهم يأكلون فاكهة المانقو كل واحد في يده واحدة يقضم منها بأسنانه ولا أدري كيف اتفق ذلك لجميعهم وكان مرافقنا ومعلمنا في العودة هو مرافقنا في الذهاب الشيخ حبيب . فكان إذا سألناه عن شيء في هذا الريف سأل السائق الذي كان فيما يبدو يتمتع بقسط من الذكاء والنباهة واسمه (علي خميس) وأما صاحبنا القاضي فربما كان يؤمن بالتخصص في المعرفة فهو لا يعرف كثيراً مما نريد أن يخبرنا به .

هذا وقد كان الطريق شبه خالٍ من السيارات فلم يقابلنا منها إلا عدد لا يزيد على خمس في طول الطريق .

ووصلنا إلى مدينة زنجبار أو (مجيني) بالسواحلية مع غروب الشمس وكان

أول ما وقفنا عنده منها مدرسة إسلامية قام عليها الشيخ عمير تاج الذي كان في وقت من الأوقات رئيس وزراء في عهد السلطان العربي ويعمل الآن قاضياً في إحدى المحاكم وهي مدرسة كانت تدرس تلاميذها الذين يبلغ عددهم حوالي (٣٠٠) في ظل شجرة كبيرة فقام عليها الشيخ عمير وبنى لهم غرفة كبيرة واسعة أو قاعة واسعة بلبن الاسمنت القوي ورفع أرضها عن سطح الأرض قليلاً حتى يقيها ذلك الرطوبة الشديدة وهو يجمع لها ما يجده من ماله ومن المحسنين لكي يزيد العمارة ويزيد إسكان الطلاب .

وعند وصولنا لم يكن في المدرسة ويظهر أنه استبطأ وصولنا فذهب لصلاة المغرب إلاأنه عندما أعلم بذلك أقبل يعدو وهو شيخ في حدود السبعين ولكنه قوي البنية قد سلم جسمه من الترهل الذي يصيب معظم الأغنياء في هذه البلاد .

فسلَّم واحتفى ، وقرر الوفد إعطاءه مبلغاً من المال بمثابة معونة عاجلة لهذه المدرسة ثم ودعناه مسرعين بسبب ضيق الوقت وأنا متعجب من إخواننا في هذه البلاد وفي البر الأفريقي الشرقي ذلك بأن ذوي المناصب الكبيرة والأقدار العالية منهم إذا شاب المرء رجع إلى الله وتبنى مشروعاً إسلامياً يقوم عليه ويباشر العمل فيه بنفسه كأن يكون مسجداً تلحق به مدرسة إسلامية أو تكون مدرسة إسلامية كبيرة .

وحبذا لو اقتدى بهم المتقاعدون وكبار السن من الأغنياء والمفكرين في البلاد العربية الذين يقضي معظمهم وقته في المقاهي وينفق أمواله في أشياء تافهة مع جماعة مماثلة له في السن ومقارنة له في الهدف .

مسجد قبـاء :

قالوا : صلاة المغرب في مسجد قباء فقلت متأثراً : نعم في مسجد قباء .

وقد ذهبت ذاكرتي إلى مسجد قباء في المدينة المنورة التي عشت فيها ثلاث عشرة سنة وكنت أصلي صلاة المغرب أحياناً في مسجد قباء في فصل الصيف الشديد الحرارة فذكرني قولهم هذا في هذه الساعة الحارة من آخر النهار بذلك .

وعندما وصلنا المسجد في إحدى ضواحي مدينة زنجبار في حي رأينا بعض الناس فيه جالسين أو مجتمعين خارج بيوتهم هرباً من الحر في داخلها . كان إمام المسجد قد أقام الصلاة . وكانت الكهرباء مقطوعة والحر شديداً والرطوبة عالية . وكانوا قد اوقدوا سراجين من سُرج الزيت لتنيرا المسجد .

وبعد إنتهاء الصلاة قدمنا القوم إلى إمام المسجد وأغلب مساجدهم مستطيلة الشكل وفي هذه الأثناء عادت الكهرباء وكان في المسجد مروحتان كهربائيتان إحداهما في مقدمته ، والأخرى معلقة في مؤخرته ، وإذا بهم يقدمون مكبر الصوت ويتسلمه الشيخ موسى كونقو فيتكلم بالسواحلية كأنه يقدمنا للقوم ونحن لم نعلم أن الأمر فيه برنامج ولا نرغب في ذلك لضيق الوقت وشدة الحر ثم إذا بالبرنامج يبدأ فيقرأ أحدهم آيات من القرآن الكريم بتلاوة مرتلة جيدة ، ويعقبه آخر بإلقاء خطبة مكتوبة بالعربية ، ترجمت إلى السواحلية ، ثم آخر بالسواحلية ترجمت إلى العربية . ثم أراد القوم أن يلقي أحد أعضاء الوفد كلمة فيهم فألقاها الشيخ عبدالله بن ادريس بالنيابة عن الجميع وترجمت إلى السواحلية جملة جملة ، وقد انقطعت الكهرباء في آخر البرنامج . فكان هذا داعياً للإسراع في إنهائه . وقد غادرنا المسجد في حفاوة عظيمة من إخواننا الحاضرين فيه الذين كانوا قد امتلأ بهم المسجد وما حوله لأن مكبر الصوت كان يجلب مزيداً من الحاضرين .

ومن مسجد قباء خرجنا إلى مسجد يسمى (مسجد مبيني) لأنه واقع في حي يسمى بهذا الاسم (مبيني) وكانت الكهرباء عندما وصلناه مقطوعة وقد

أحضروا سراجاً كبيراً وآخر صغيراً فألقينا فيهم كلمة مختصرة ثم ودعناهم إلى الفندق .

نـاكوجـا :

في اللغة السواحلية كلمات واضحة المخارج ، سهلة الحفظ تتردد كثيراً غير أن المرء منا لا يعرف معناها ولما كنت أعرف بضع كلمات من السواحلية بعضها كان قديماً في ذاكرتي وبعضها حديث فقد لاحظت أن كلمة (ناكوجا) ، قد تكررت على سمعي فسألت الشيخ حبيب كومبا رئيس القضاة عنها بعد مغرب هذا اليوم فقال : إن معناها يجيء أو أجيء ، وعندما دخلنا الفندق وجد زميلنا الشيخ عبدالله بن ادريس مكيف الهواء في غرفته في الفندق واقفاً عن العمل فطلبت من الخادم الذي كان واقفاً حول غرفنا إصلاحه فناديته وأريته إياه فانقلب خارجاً من الغرفة وهو يقول (ناكوجا) (ناكوجا) فغضب الشيخ عبدالله وقال والعرق يتصبب من وجهه لماذا ذهب ولم يخبرك بما فيه فقلت له : إنه يقول بالسواحلية أنا قادم ، سيأتي . فسألني كيف عرفت معنى قوله ؟ فقلت له : من غرائب المصادفة أن هذه الكلمة بالذات لم أكن قد عرفت معناها إلا قبل نصف ساعة .

وبعد قليل جاء الخادم معه بعامل كهربائي ففحص الجهاز وقال : سيعود للعمل بعد قليل ، وعاد بالفعل .

يوم السبت **١٣٩٩/٣/٢٧ هـ الموافق ١٩٧٩/٢/٢٤ م** .

صبـاح زنجبـار :

صحوت بعد نوم هنيء في فندق (بواواني) في زنجبار المكيف الغرف بعد حاجة ماسة إلى ذلك النوم لأننا في الليلة الماضية لم نم في دار الضيافة في

الجزيرة الخضراء (بيمبا) وعندما أزحت ستارة نافذتي رأيت منظراً جميلاً. إنه شاطىء البحر الهادىء من كل شيء حتى من الأمواج لأنه ليس هناك صخور تتكسر عليها الأمواج كما أن هناك قرب الشاطىء أرضاً مستوية يغمرها المدّ في بعض الأحيان ولكن الجزر يُظهرها وهذا هو الغالب على منظرها، ولذلك نبتت فيها بعض الأشجار الخضراء التي لا يمكن أن تنبت في أرض بحرية في بلاد قليلة المطر كبلادنا.

ويرى المرء من خلال النور الغامر الذي لم يُجهز بعد على فلول الظلام جزيرتين صغيرتين قبالة الفندق تظهران على البعد وكأنهما إحدى الجزر الكثيرة في (مالديف) التي لم تمح مناظرها من ذاكرتي إذ لم يمض على زيارتي إياها إلا أقل من شهرين.

وقد خلت الأرض تماماً من المشاة الذين هم من الأساس قليل في هذا المكان من مدينة زنجبار لأنه ليس فيه إلا هذا الفندق الضخم وملحقاته ومنازل ليس لعامة الناس فيها نصيب.

وبينما كنت مستمتعاً بهذا المنظر أفكر في التاريخ الذي وطئت فيه أقدام العرب الأولين أرض هذه الجزيرة إذا بعيني تقع على شيء كدرني وأعاد إلى ذهني أخبار الكراهية والبغضاء، إنه منظر لتمثال طاغية زنجبار السابق (عبيد كرومي) وقد جعل تمثاله واقفاً وهو يشير بأصبعه السبابة إلى البحر، فتذكرت ما فعله بالعرب سكان زنجبار فضلاً عن حكامها من قتل الكبار، وهتك الأعراض، وسرقة الأموال، والإستهزاء بالتاريخ.

وهان ما بي عندما تذكرت أن الرجل قد لقي مصيره كما يلقاه كل طاغية، وأنه قد شرب بالكأس التي سقى بها غيره إلا أن الذي اغتاله لم يغتل تمثاله الذي بقي شاهداً على جبروته مذكراً أفعاله، ولكن إذا كان لم يستطع أن يغتال

تمثاله فان الذين خلفوه وعلى رأسهم الرجل الصالح (عبود تشومبي) قد اغتالوا مبادئه الكريهة فصححوا المسيرة واوقفوا الظلم ، وهم الآن يحاولون محو ما يستطيعون محوه من خطأه وخطاياه .

وكان ذلك بعد أن صلينا مع الرفاق أعضاء الوفد صلاة الفجر جماعة وجلسنا قليلاً ثم بادرنا إلى تناول الافطار في المطعم الواسع ذي البناء الفاخر إلا أن الطعام فيه ليس على مقدار ما عمل فيه بانيه ، وذلك لأن الذي يقوم عليه جماعة من الهنود الذين يقتصدون في كل شيء حتى إذا لم يجدوا ما يقتصدونه من الكماليات اقتصدوا من الضروريات لأن هذا الفندق واحد من فنادق (ابروي) الهندية العالمية ولكنهم أسموه هنا باسم وطني والا فليس للوطنيين الزنجباريين فيه غير ذلك وغير جماعة من الخدم الذين كان كل واحد منهم يعرف شيئاً من العربية ولو كلمات معدودة أو عبارات محدودة فيذهب يعصر ذهنه ويكد ذاكرته ليتحفنا بها مثل قراءة الأعداء وأسماء بعض المأكولات وتحية الصباح .

ويذكر أن عدد الذين يتكلمون بالعربية في زنجبار قد نقص كثيراً عما هو عليه في السابق إذ العرب الموجودون فيها قد هجرها منهم أكثر من ٩٨٪ والمعهد الإسلامي الذي كان يخرج طلبة يعرفون العربية قد أغلقه الانقلابيون المتعصبون بقيادة كرومي . والدين الإسلامي ألغي درسه في المدارس .

كان ذلك هو السائد في الماضي أما الآن فان الأمر قد اختلف ولكن الاختلاف بدأ متأخراً وأرجو أن يؤتي أكله قريباً .

وكان موعد السفر إلى دار السلام قد حدّد له الساعة التاسعة وقالوا لنا إن الطائرة الخاصة التي ستقلنا إلى هناك ستوجد قبل هذا الموعد في مطار زنجبار غير أن هناك عدة مواعيد يجب أن ننتهي منها قبل أن يحين ذلك الموعد القريب ،

وهناك عدد من الزوار لا بد من لقائهم مع ذلك قبل ذلك .

وهكذا أسرعنا في الانتهاء من الافطار ، ثم بدأ عمل هذا النهار ، وكانت رئيسة الخادمات في الطابق الذي نسكن فيه من فندق (بواواني) أمرأة لونها قد أخرجها من دائرة السواد إلى شيء لم يصل بها إلى السمرة التي تلي السواد وكانت إلى ذلك ذات خفر وحياء فسألتها عن أصلها وقد جاءت إلى خارج الغرفة لتخبرنا عن شيء يتعلق بغسل ملابس الرفاق : أأنت عربية ؟ فأجابت ، لا ، أنا زنجبارية ولكن آبائي يقولون إن أصلهم من بلاد العرب ، وكان لونها وحياؤها يشهدان لها بذلك أكثر مما يشهد به لسانها ، وكانت هي الوحيدة مع فتى في الإدارة ممن يغلب على الظن لأول وهلة أنهما من أصل عربي . أما الباقون فإما أن يكونوا من الوطنيين الأفريقيين أو أن يكونوا من المستخدمين الذين أحضرتهم إدارة الفندق من الهند .

جولة في مدينة زنجبار :

مدينة زنجبار هي عاصمة جزيرة زنجبار بل كانت عاصمة سلطنة زنجبار كلها التي كانت تشمل جزيرة زنجبار والجزيرة الخضراء (بيمبا) وجزائر أخرى ثلاثاً مسكونة أكبرها عدد سكانها تسعمائة شخص وعدة جزائر صغيرة مأهولة . ويسميها العرب والمستعربون فيما بينهم «المدينة» أي البلدة ، أو (مجيني) بالسواحلية لهذا المعنى ويبلغ عدد سكانها في الوقت الحاضر مائة ألف وعشرة آلاف من السكان .

وقلبها يكاد يكون مدينة عربية في السابق غير أن أهلها العرب هجروها بعد أن طرد أثرياؤهم وزعماؤهم طرداً ، أو قتلوا قتلاً ، وهتكت أعراض بعض نسائهم ، والباقون ممن لم يفعل بهم ذلك ضاقت بهم أسباب المعيشة التي كانوا يتعاطونها من بيع وشراء حددته الطريقة الاشتراكية التي كادت تصل إلى

الشيوعية في يوم من الأيام ، ووظائف إنتزعتها من أيديهم القومية الإفريقية التي رأ ت أن وجود العرب الذين هم الأقلية في الوظائف إعتداء على حق الأكثرية وهو فوق ذلك حسبما رأوه بقية من بقايا الاستئثار ينبغي أن تتوارى عن الأنظار .



مكتب السلطان السابق في زنجبار ويسمى (بيت العجائب)

وكان لا بد من جولة في أقسام من هذه المدينة العريقة بعد أن تيسرت لنا أمْس جولة في ريف جزيرة زنجبار قدمت ذكرها في الحديث عن ذلك النهار .

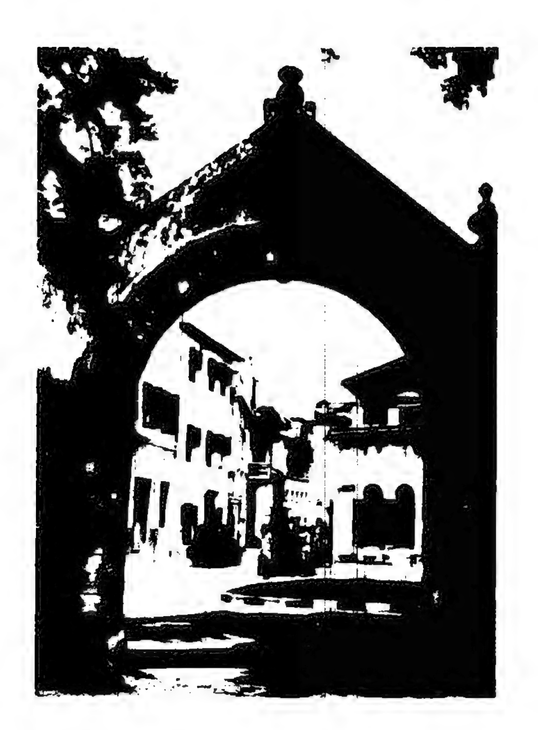
في الساعة الثامنة من هذا الصباح تحرك الموكب المؤلف من خمس سيارات أمامها سيارة عسكرية فيها ثلاثة من الجنود رابعهم سائقهم الذي هو جندي أيضاً . ولم يكن الوقت الباقي على موعد السفر يسمح بأن تكون الجولة لمعالم المدينة كلها وإنما كانت لبعضها على بعض المدارس والمؤسسات الإسلامية .

فكان أول ما رأيناه مسجداً عليه عبارة عربية فقط بخط نسخ جميل (مسجد المنارة) بناه محمد بن عبد القادر المنصبي في عام ١٢٥٠ هـ) .



باب ذو نقوش عربية في زنجبار

ويقع هذا المسجد في حي شوارعه بل أزقته ضيقة لأنه ليس فيه شوارع بالمعنى الذي في ذهن من يعيش في مدينة حديثة . وإنما هي أسواق ضيقة غير مستقيمة وبيوته متلاصقة أكثرها من عدة طبقات وان كانت لا تزيد على الثلاث ويبدو عليها الطراز العربي الجنوبي بارزاً واضحاً بل إن أحد البيوت فيه رواشين ، جمع روشان كما يسمى في الحجاز . ويعني شرفات خشبية في الطابق الثاني وما فوقه بارزة إلى الشارع وهي من الخشب المخرق الذي يسمح لمن يكون بداخلها أن يرى الناس دون أن يروه إذا كان المكان مظلماً .



ويسمى هذا الحي حي (بيمو لم) وقد قادنا الأمين العام للمجلس الإسلامي في زنجبار الشيخ (عمر طرازي) إلى بيت عادي قال إن فيه مدرسة إسلامية فخرجت سيدة كهلة بدينة البدن إلا أن رجلها بدينة أكثر من مستوى البدانة في جسمها إذ هي مصابة بداء الفيل الذي يجعل الرِّجْل تتضخم وتتورم

حتى تصبح أشبه برجل الفيل ويوجد أكثر ما يوجد في البلدان المطيرة التي يكون فيها مستنقعات ومياه ملوّثة ، ولم تكن السيدة المذكورة تعرف شيئاً من العربية إلا أن السيد عمر سألها كم عدد الطلاب عندك ؟ فأجابت بالسواحلية (كومي ناتانو) أي خمسة عشر ، ولم تكن هذه بالتي تستحق أن تسمى مدرسة لا سيما في هذه المدينة التي قد يجد من يريد أن يلحق ابنه الصغير أو ابنته الصغيرة غيرها لذلك لم نقرر لها مساعدة عاجلة كالعادة التي سار عليها الوفد في مساعدة بعض المؤسسات والمدارس الإسلامية وإنما منحنا لها منحة قليلة عاجلة تشجيعاً لها هي ألف شلن تنزاني ويساوي أربعمائة ريال سعودي غير أنه له تأثير يزيد على تأثير أربعة آلاف ريال في بلادنا في نفس من يعطى إياه .

في سوق زنجبـار :

ومررنا بسوق زنجبار أو بجزء منه وهو سوق يجلب اليه الفلاحون إنتاجهم وبعضه كان على سيارات شحن أغلقت الممر بحيث أن الجنود الذي معنا أوقفوا الموكب وأسرعوا يزيحون هذه السيارات عن الطريق يأمرون سائقيها بشدة وصرامة فيطيعون الأوامر بسرعة ودون مراجعة أو تلكؤ مما يدل على أن السلطة في بلادهم لها سطوة وقوة .

وانتهزت هذه الفرصة لتأمل هذا السوق فإذا به إلى أن يسمى سوق الموز أشبه من أن يسمى سوق الخضروات أو أي اسم آخر لأن ٩٩٪ من المعروضات فيه هي من الموز الذي أُحْضر إليه على شكل أعْذاق كبيرة والناس يشترون منها بعضهم يأخذ عذقاً كبيراً لعله يبيعه والآخر يأخذ صغيراً لبيته وأكوام الموز فوقها أكوام وبجانبها أكوام أخرى ، ولكن أين الأشياء الأخرى ؟

إنها غير موجودة هنا فأما أن يكون مرافقونا الزنجباريون لم يدققوا فيما أخبرونا به من أن هذا سوق زنجبار وإما أن تكون السوق مقفرة إلا من الموز

الذي لا يستطيع أحد أن يؤثر فيه لكثرته ولسهولة زراعته ولكونهم يعملون منه أنواعاً منوعة من الطعام وبخاصة ما يقلونه منه قلياً مستعملين زيت النارجيل الذي يخرج من بلادهم وافراً رخيصاً تتكون من ذلك وجبة رخيصة رئيسية أو مكملة لأكلة أخرى .

وبعد هذا السوق شاهدنا عدداً من الحوانيت التي تبيع سلعاً محدودة مما يدل على أن الاستيراد عندهم محدود إن لم نقل إن بابه عندهم مسدود هذا إذا لم تكن العلة هي قلة النقود في أيدي الناس .

واستمرت الجولة:

في قلب المدينـة :

فسرنا على أرجلنا بعد أن أوقف الموكب سياراته بسبب ضيق الأزقة مع أنها بيوت متلاصقة يبدو عليها الطراز العربي واضحاً ليس غير وليس فيها من طراز البناء الإفريقي شيء ، فمررنا بميدان صغير قد أصبح كله أشبه بحديقة من الأعشاب الملتفة المتراكمة التي يصعب السير فيها وإنما يلف الناس حولها لا سيما أن الميدان ربما كان في الأصل موضع بيت أو بيوت خربة لأنه مرتفع عن باقي الأزقة المحيطة به ولكنه أهمل حتى أصبح لا ينتفع به ، ثم دخلنا إلى أزقة رطبة بسبب الأمطار التي هطلت عليها وقد غشيها العشب الا مكان وطأ الأقدام منها .

وبعدها رأينا ميداناً صغيراً آخر قد غرسوا في جوانبه الأربعة أربع شجرات من شجر الظل فامتدت فروعها يميناً ويساراً وتشابكت أغصانها حتى أصبح الميدان منها كأنه في بستان ، ولا عجب في ذلك لأن كل هذه الأشجار في زنجبار لا تسقى ، ولا تحتاج إلى ريٍّ وإنما هو الغيث المدرار . الذي ينهمر أحياناً طول الليل أو طول النهار ، فيسقي الزروع والأشجار .

حي مكونزيني :

بعد ذلك رأينا بعض البيوت التي خالطت البيوت ذات الطراز العربي وهي التي تشبه الأكواخ الإفريقية الكبيرة مبنية بالأعواد المخلوطة فيما بينها بالطين وقد يكون معه بعض الأحجار الصغيرة ، وسقوفها من الصفيح أو من القش ويجعلون أجزاء منه زائدة قليلاً عن مسامتة الجدران حتى تحمي الجدران من المطر .

وذلك في حي يسمى (مكونزيني) وفيه مررنا بمسجد صغير ولم ندخله اسمه مسجد (قوف) ولا أعلم من أمر (قوف) هذه التي هي معكوس (فوق) شيئاً لا سيما وان الأمر قد انعكس في زنجبار حتى أصبح العرب الذين هم كانوا فيها الحاكمين محكومين ثم أصبحوا مطرودين حتى لم يبق لهم منها إلا آثار قد تبلى بعد حين ، ولا يبقى إلا التاريخ الذي فيه ما يزين وما يشين .

فوصلنا إلى مدرسة النور الإسلامية في هذا الحي ذي الاسم الغريب (مكونزيني) والشكل العجيب إلا أن المدرسة الإسلامية فيه وصاحبها مثلها هما خلاف ذلك فاسمها اسم فصيح ، وصاحبها عربي صريح ، وشكله لا يبدو فيه من زنجبار أثر ، حتى شمس أفريقية لم تستبدل سمرته بسواد كما أن ملابسه التي وجدناه قد ارتداها هي الملابس العربية التي يُفرح منظرها الفؤاد . حتى اسمه هو حضرمي شهير وهو (عبدالله أبو بكر باكثير) ومثله في اسمه ورسمه في هذه البلاد في هذا الزمان من الندرة بمكان إلا أن المعروف أن الحضرميين من العرب خاصة لم ينلهم من سخط الإفريقيين الذين سموا أنفسهم ثائرين ما نال العمانيين ، وذلك لأن الحضرميين هم في الأصل من التجار لا من ذوي المناصب الكبار ولم يكونوا من الحكام ولا من ذوي السلطان كما هو حال أهل عمان .

وتفقدنا المدرسة التي كانت قد سبقتنا إلى خُبْرها أخبارها ، ممن ذكر أنه كان قد زارها فرأيناها في قسمين أحدهما للكبار قال مدير المدرسة (باكثير) إن عدد الطلاب فيها كثير ولكنكم جئتم في الصباح حيث لا يحضر أكثر الطلاب ، والثاني للصغار في فصلين منفصلين . وقال إن الطلاب يبلغ عددهم أربعمائة وأن المدرسين هم (١٠) ولكننا لم نشاهد إلا أقل من (هرج العاقل) الذي ينقص النصف .

وتركناها على عجل راجعين أدراجنا في هذا الحي العجيب أو قل في أزقة هذا القسم من مدينة زنجبار القديمة وأنا أحسّ بمتعة ما بعدها متعة وهي الاطلاع على هذه المدينة التي كانت عربية وهي لا تزال إسلامية ولا يزال السواد الأعظم من أهلها يحب العرب لأنهم مسلمون ، ولها مستقبل في أن تكون في صف العرب مضمون .

وخرجنا منه أو على الأصح خرج الموكب بجنوده الذين كانت سياراتهم (الجيب) ذات النور الأزرق في سقفها تلفت الأنظار إلى حي آخر فاخترقنا بعض الشوارع الحديثة ورأيت الذين يعملون فيه هن من النساء وقد انحنين على زهيراته وشجيراته يصلحنها ولا أدري لماذا لا يكون ذلك من نصيب الرجال ، مع أن البطالة ووفرة العمال هي القاعدة التي لا تقبل الجدال .

حي ميكونقوني :

كان الشيخ موسى ماكنقو مدير المعهد الإسلامي في زنجبار أحد مرافقينا في هذه الجولة بل في كل الرحلة ، وكان قد أوعز الى السيارة العسكرية التي تقود الموكب أن تذهب إلى الحي الذي يسكنه رغم ضيق الوقت ويسمى هذا الحي حي (ميكونقوني) وتلاحظ العلاقة بين هذا الاسم والاسم العائلي للشيخ (ماكنقو) .

وقف الموكب وأسرع الشيخ موسى ماكنقو إلينا يقول : هذا هو الحي الذي أسكن فيه انظروه ، هذا هو حيي الخاص لقد أردت أن أريكم إياه ، فما كان منا إلا أن نزلنا في حي بل في أرض فيها أكواخ طينية تعلوها أسقف من الصفيح ومن القش . وليس فيها أسواق أو أزقة ، وانما هي ممرات على غير نظام ، وتلك الممرات هي محاطة بأكوام من الحجارة المهملة التي نمت بينها الحشائش والأعشاب ، وليس فيه أي أثر للنظافة .

وقال الشيخ وهو يشير إلى أحد البيوت : ان هذا هو بيتي . ثم أشار إلى آخر من بعيد وقال : إنه مسجدنا وأسرع ليفتحه غير أننا وجدنا أنه مغلق بالقفل . وقد أسرعنا العودة إلى السيارات بعد أن تأكدنا أن هذا الحي حي محافظ على ما كانت عليه الأحياء السكنية قبل المدنية ، كما أن الشيخ (ماكنقو) هو نفسه بثيابه وإهابه وكلامه ونظامه محافظ على ذلك .

معهد زنجبـار الإسلامـي :

هذا المعهد كان موجوداً أيام الحكم العربي وقد تخرج منه طائفة من الطلاب نفعوا بلادهم في مجال العلوم الإسلامية والعربية ، ولكن ما تسمى بالثورة الزنجبارية قد ألغت هذا المعهد وحولت بناءه إلى شيء آخر وبعد أن وليَّ عهد قائد الهيجة والفتنة عبيد كرومي وحل محله (عبود تشومبي) أعيد هذا المعهد إلى العمل فكان لا بد من زيارته والاطلاع على ما فيه .

ويقع في طريق المطار من مدينة زنجبار وعندما حاذيناه أخذنا ذات اليسار فإذا به غير بعيد ، وإذا به في بنائه القديم اسمنتي جيد على طراز معتاد لا أثر للبناء العربي أو الإفريقي فيه ، فأخذنا الشيخ المدير إلى غرفة الإدارة وهي صغيرة نظيفة وقدم دفتر الزيارة ، فتركنا ذلك إلى ما بعد الجولة التي بدأت بالمرور على السنة الأولى في غرفة واسعة نظيفة هواؤها طلق ، ومقاعدها مرتبة

وفيها ذكور وإناث من الطلاب قد جعلوا الإناث في ركن من الغرفة على شكل صفين متقابلين ، وجعلوا الذكور كذلك فكانوا في الغرفة أربعة صفوف جميعهم وجوههم ليست إلى السبورة وإنما إلى الركن الجانبي من الغرفة وكان الدرس في اللغة الانكليزية ووقفت المعلمة وهي فتاة إنجليزية شابة ، وسيمة الطلعة ، مشرقة الوجه ووجهها مقابل لجوانب الطلبة لأن وجهها كما يكون وجه المعلم في كل مكان إلى الطلبة مولياً ظهره إلى السبورة .

وعندما رأت هذه المعلمة الانكليزية هذا الحشد من الزوار لأنه كان مع الوفد حوالي عشرة أشخاص من المواطنين ازدادت وجنتاها توردا على تورد وهي كما قال مدير المعهد مرسلة من حكومتها للمساعدة في التدريس . ثم صعدنا إلى الطابق الثاني ثم الثالث وكان عنده أحد المدرسين الأزهريين يلقي درساً في التفسير قال إنه مبسط لكون الطلبة لا يجيدون العربية إجادة تامة ويذكر أن عدد المدرسين المصريين في المعهد (٣) وأن عدد المدرسين كلهم (١١) وعدد الطلبة (١٩٠) كما أخبرونا .

وبعد الاطلاع على فصول الدراسة أخذنا إلى المكتبة وقد كتب عليها بالعربية فقط (المكتبة) وهي جديرة بهذه الكتابة لأن أكثر من أربعة أخماس الكتب التي فيها باللغة العربية ولكنها فقيرة بالكتب ، ومقرها أيضاً ضيق غير لائق ، وأكثر اللافتات في المعهد هي بالعربية وقد تطلعت إلى ما حولي من الطابق الثاني في هذا المعهد فإذا به يقع بالفعل في أحضان غابة من غابات النارجيل التي ترفدها وتسندها أشجار أخرى قصيرة وتحت ذلك الحشائش والزرع .

في مطـار زنجبـار :

وكان الرجوع إلى مطار زنجبار الذي وصلنا منه أمس لتكون المغادرة .

وكان الوداع من الأخوة المسلمين الكرام أكبر من اللقاء عدداً ، وأكثر احتفاء ، فكان أن خرج معنا مصور التلفاز ، وكان مندوب الإذاعة والتلفزة التنزانية حاضراً أيضاً وقد طلب حديثاً من الوفد فأحاله الجميع عليَّ فأجبت على أسئلته المختلفة والشيخ (علي خطيب) إمام جامع زنجبار هو الذي كان يترجم الحديث من السواحلية إلى العربية وبالعكس .

ثم حضر مصور خاص قال إنه من مكتب نائب الرئيس وإنه مأمور بأن يأخذ مزيداً من الصور لأعضاء الوفد وأن يأخذ لكل واحد صوراً منفردة . ولا أدري ماذا رأوا في صورنا ، وماذا تنفعهم به .

وبينما كنا في قاعة الاستقبال الخاصة في المطار القديم الذي هو المطار الصغير كنت أستحضر في ذهني تلك اللوحات التي كانت موجودة فيه في عام ١٩٦٤ م إبان ما أسموه الثورة وهي تصور الرجل الأفريقي يكسر القيد (العربي) والآن ليس فيه من تلك الصور شيء وإنما هو تزين بأشياء كلها مستوحاة من فن النقش العربي الجنوبي ومنها صندوق كبير مما كان في بلادنا يدفع مع جهاز العروس لتضع فيه أثوابها وعطرها وحليها وأشياء أخرى صغيرة من الخشب المحفور .

وبالحفاوة البالغة .غادرنا زنجبار على الطائرة الخاصة وليس معنا أحد إلا المرافقون الذين زاد عددهم واحداً هو (عبدالله سالم مغير) مدير مكتب نائب رئيس الجمهورية وهو عربي الأصل أعجمي اللسان .

وبينما كانت الطائرة الصغيرة تدرج على أرض المطار كان سرب من الغرانيق البيض يدرج يطير ويقع في جوانبه مع أن وجوده خطر على الطائرات النفاثة .

وكانت أفكاري أيضاً تطير إلى الذاكرة وتقع فيها تذكر أول مرة جئت فيها

إلى مطار زنجبار فلم أستطع الوصول إلى زنجبار بعد المحاولة والتكرار . ولكنني نزلت في مطارها ، ولم استطع أكثر من النظر إليها من الجو واليوم لا يكون الأمر كذلك وأنا أزور زنجبار وانما ينقلب الأمر من النقيض إلى النقيض فأنا قد زرت زنجبار ضيفاً على حكومتها معززاً مكرماً يسير معي ومع رفاقي موكب من سياراتها ، وتطير بي قادماً ومودعاً طائرة خاصة من طائراتها .

وقامت الطائرة عند الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين ، واستوت في الجو فتمتعنا بمنظر هذه الجزيرة التي كانت يوماً ما سعيدة وواصلت طيرانها حتى غابت زنجبار في الغمام وبدت دار السلام إلى الأمام ، وللحديث عنها مقال في غير هذا المقام .

إلى جزر سيشل

يوم الاثنين ١٣٩٩/٣/٢٩ هـ الموافق ١٩٧٩/٢/٢٦ م .

من موريشيوس إلى سيشل :

خرجنا من الفندق الذي كنا نسكنه في جزيرة موريشيوس في الساعة الرابعة والنصف ووصلنا مطار الجزيرة بعد ذلك بأربعين دقيقة . بعد أن أقمنا في هذه الجزيرة يوماً واحداً في أعقاب زيارتنا لتنزانيا زيارةً رسمية تجولنا خلالها في أنحائها ومنها زنجبار التي قدمت الحديث عنها قبل هذا ، قدمنا تذاكرنا وأمتعتنا إلى الموظف الذي كان في مكتب الشركة البريطانية ، ولكنه كان مثل غيره من الموظفين في هذا المطار ضيق الخلق ، عصبي المزاج ، وربما كان ذلك من أثر الحر في بناية المطار إذْ هي رطبة غير مكيفة .

وعندما دخلنا مع الداخلين إلى قاعة المسافرين كانت تعج بالمتأهبين المغادرين لأن هناك أكثر من طائرة عملاقة تهم بالسفر إحداها تابعة لشركة الطيران الفرنسية والأخرى وهي طائرتنا التابعة لشركة الطيران البريطانية (بريتش اير ويز) .

وقد غادرت الطائرة الفرنسية قبل أن نخرج إلى البريطانية في الساعة السادسة والنصف وكانوا قد أخبرونا أن الطيران سيكون في السابعة والربع .

وقصدنا مقاعد الدرجة السياحية لأن الأصل في تذاكرنا أن تكون من موريشيوس إلى رينيون ومن هناك إلى سيشل وهذه الطائرة البريطانية ستغادر إلى سيشل دون توقف وهذا أمر اخترناه بعد أن علمنا أنه لا يوجد طيران إلى سيشل من هاتين الجزيرتين إلا مرتين في الأسبوع إحداهما يوم الأحد أمس . والثانية يوم الجمعة وهو موعد لا نستطيع أن ننتظره . فقال المسؤل الكسول في

مكتب الشركة إننا لا نستطيع أن نركبكم في الأولى لأن الطائرة ليست ذاهبة إلى رينيون فقلنا : إننا مستعدون لكي ندفع الفرق إذا كان هناك فرق ، فقال : إن معرفة الفرق في القيمة من عدم الفرق أمر يحتاج إلى جمع وطرح للتذكرة كلها وهذا أمر لا نستطيع القيام به الآن ففضلنا الركوب في السياحية على البقاء في هذه الجزيرة الموريشية .

وصعد الناس مثلنا إلى هذه الدرجة وصعدوا حتى لقد خشينا ألا يجدوا أماكن إذا قعدوا . حتى امتلأت مقاعد الطائرة العملاقة التي هي من طراز (بوينج) ٧٤٧ وهي تحمل ما ينوف على أربعمائة وعشرين .

وكانت مقاعدها متراصة ضيقة ومكيف الهواء فيها لا يعمل أو هو يعمل ولكنه لا يؤثر فيها وهي واقفة ونحن نستبطىء موعد تحركها أن يحين . ولكنه حان وفات ، ونحن مشدودون إلى المقاعد وبعضنا مشدود بالحزام حتى قضينا فيها ساعة ونصفاً على هذه الحال .

وجاء الفرج عندما أعلن المكبر أن الطائرة على وشك القيام ، وكان ذلك في الثامنة بالتمام ونهضت الطائرة وقد أشفقنا ألا تنهض بسبب حملها الثقيل ، وكان حمل العمل لهذا الجم الغفير من المسافرين على المضيفين أثقل من حمل الطائرة على الطائرة فكانت المضيفات يركضن ويركضن ولا يستطعن أن يكملن كل عملهن حتى إن مكبر الصوت قد أعلن في الطائرة أن مدة السفر ستكون ساعتين وثلاثين دقيقة فكانت ساعتين وعشر دقائق ، ومع ذلك عندما أعلن المكبر أننا على وشك الوصول كان قد بقي من الضيافة أن يقدموا القهوة أو الشاي وكانت المدة أقصر من أن يستطعن أن يأخذن صحون الطعام التي كان بعضها لا يزال أمام الركاب مما اضطر الطيار إلى أن يخاطبهن قائلاً يجب على الملاحين أن يلزموا مقاعدهم لأننا على وشك الوصول إلى المحطة التي نقصدها .

وكانت هذه الرحلة ليس فيها من الإمتاع شيء بل فيها التعب والنصب وسوء الخدمة ونقص الخادمين مما يعجب له المرء إذ كان هؤلاء القوم البريطانيون في قمة المتقدمين في الإدارة منذ سنين ، ولكنهم الآن أخذوا يقفون وغيرهم يتقدمون ولا نعلم نهاية ذلك ماذا تكون .

هذا وكان ركاب الطائرة في أغلبهم من السائحين الأوروبيين الهاربين من ثلج الشتاء وزمهريره في بلادهم ، ولكنهم كما أخبرني عدد منهم وقعوا في حر الصيف ولهيبه وإن كان هذا أحب إليهم ، وآثر لديهم ، إذ هم جاؤوا إلى هذا النصف الجنوبي من الأرض يطلبون الحر والسباحة في البحر . والشمس الساطعة ، والنجوم اللامعة . أو لنقل إنهم قد هاجروا إليه مثل ما تفعل الطيور التي تهاجر من شمال الأرض إلى جنوبها عند قدوم الشتاء .

في مطار (ماهي) :

ووصلنا مطار جزيرة (ما هي) عاصمة جزر سيشل في الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة حسب توقيت الجزيرتين اللتين أقلعنا من أولاهما موريشيوس وهبطنا في أخراهما (ما هي) ولم نكن عند الهبوط نشاهد شيئاً إذ كان الظلام هو المسيطر .

وفي المطار كان في استقبال الطائرة عدد من المضيفات الأرضيات وعدد من الموظفين فرأيت من بساطتهم ، وسرعة حركاتهم ورفع أصواتهم ما أقنعني بأنهم قوم من الشرقيين غير المتزمتين .

وانتهينا من المرور بموظف الصحة ثم موظف الجوازات بسلام ، ولكن المشكلة كانت عند ضابط الجمرك فقد اشتبه في صندوق من الورق المقوي فيه أشرطة مسجل عليها القرآن الكريم وقال : سوف أفتحه فقلت له : يا هذا نحن جوازاتنا اثنان منها سياسيان ، والثالث خاص وأريته جوازي السياسي والعرف

لا يسمح بتفتيش شيء من أمتعتنا وإذا أصررتم على ذلك فان الأمر بيدكم ولكن لتعلموا أن ذلك لا يعتبر أمراً ودياً تجاهنا إلى جانب مخالفته للعرف الدولي .

ولكنهم اجتمعوا ثلاثة كانت ثالثتهم ضابطة أي أمرأة عليها علامة ضابط ملازم وفتحوه ثم ردوه وفتحوا إحدى الحقائب الصغيرة ثم عادوا فجأة يعتذرون وربما كان ذلك لأمر جاءهم من رئيسهم وتركوا باقي الحقائب وعددها (٨) دون فتح .

ومن عندهم ذهبت إلى امرأة في مكتب حجز الفنادق وكان ضابط الجوازات قد طلب منا أن نكتب عنواننا في سيشل فقلنا له : إننا لا نعرف أي فندق ننزل فيه فقال إذا حجزتم أخبروني وكان رجلاً لبقاً لطيف المعاملة .

وأخذنا من الموظفة عنوان فندق لا نعرفه ولكنها قالت منصفة : إنكم ستقضون فيه ليلتكم وإذا لم يعجبكم غيرتموه إلى فندق آخر في الصباح .

وطلبت سيارة أجرة فنادى عليها الحمال الذي كان يحمل أمتعتنا على عربة يدفعها بيده وسأل السائق فقال : إن الأجرة أربعة دولارات أمريكية ولكن السيارة صغيرة لا تستطيع أن تحملكم مع أمتعتكم فعليكم أن تستأجروا ثانية فقلت له : إنه يمكنك أن تحمل بعض الأمتعة معنا داخل السيارة فقال : هذا خلاف القانون فالتمسنا سيارة أجرة أخرى فلم نجد ، فقلت له : إذا زدناك دولارين أتأخذنا مع أمتعتنا ؟ فأجاب : نعم :

وهكذا أصبح الممنوع جائزاً بسبب زيادة الدولارين .

في جزيرة ماهي :

لم نر شيئاً من الطريق الذي مررنا به إذ كان الوقت قرب منتصف الليل

ووجدنا الغرف الثلاث المطلوبة في فندق من فنادق الدرجة الأولى اسمه (ريف هوتيل) ولو كان الذين أسموه بهذا الاسم يعرفون العربية لقلنا : إن اسمهم صادف مسماه حقيقة فهو في ريف أخضر.

ودخلنا إلى غرفنا المكيفة الهواء، النظيفة الرياش، الحافلة بالماء البارد، بعد الحر الذي لقيناه في الطائرة أول الأمر، وكان الجو في الجزيرة في هذا الوقت من الليل حاراً أيضاً وان لم يكن شديد الحرارة. وتبلغ أجرة الغرفة للشخص الواحد أو (السنقل) كما تسمى بالانكليزية ثلثمائة وستين روبية (سيشيليه) وتساوي مائة واثنين وتسعين من الريالات السعودية أو اثنين وسبعين من الدولارات الأمريكية وذلك مبلغ كبير فهو إذاً فندق غالٍ. وصلينا على الاجتهاد إلى القبلة ثم وقعنا في نوم عميق.

يوم الثلاثاء ١٣٩٩/٤/١هـ الموافق ١٩٧٩/٢/٢٧م.

أصبحنا اليوم لا نعرف من أمر المكان الذي وصلنا إليه أي شيء لأن وصولنا كان في منتصف الليل أمس.

وعندما أزحت ستار النافذة كانت الشمس قد أشرقت على منظر بديع إذ كانت الجهة الشرقية من الفندق هي ساحل البحر بينه وبين غرفتي باب يفتح إلى شاطىء أخضر قد رفرفت فوقه فروع أشجار النارجيل، وكست أرضه الأعشاب المنسقة في عرض يبلغ حوالي عشرة أمتار يأتي بعدها البحر مباشرة وهو ذو شاطىء رملي أبيض تليه مياه ضحلة.

وقد استطال الفندق مع استطالة الشاطىء متمشياً أيضاً مع استطالة هذه الجزيرة شمالاً وجنوباً في لسان ضيق من شاطىء البحر الذي هو شرقي الجزيرة يليه هضاب جبلية مستطيلة هي أيضاً شمالاً مثل استطالة الشاطىء. ويبلغ

استطالة غرف الفندق شمالاً وجنوباً أكثر من مائة وخمسين متراً ويكفي أن تعرف أن عدد الغرف فيه يبلغ الأربعين في الطابق الأسفل وفوقها مثلها في الطابق الأعلى وهي صف واحد ؛ أمامه رواق ضيق . وهو أغرب فندق رأيته من حيث الهندسة . ولكنه مستوحى من طبيعة الأرض كما قدمت لأنهم لو بنوه مربعاً لاحتاجوا إلى أرض عريضة مستوية يصعب حصولهم عليها ويتبع هذا الصف الواحد الذي يبلغ عدد غرفه في طابقين ثمانين غرفة المرافق المعتادة للفنادق مثل بركة السباحة والمطعم والمقهى والإدارة ، وميدان للألعاب الرياضية الخفيفة .

أما جانب الفندق المقابل لشاطىء البحر فقد نثرت فيه المقاعد والسرر المعدة للاسترخاء والتشمس .

وأما نزلاء الفندق فأكثرهم بل كلهم من الأوروبيين السائحين فلو رأيتهم وقد تخففوا من أثوابهم ، لكي يغيروا لون إهابهم لتخيلت أنهم قد ملوا من مدنيتهم ، وزهدوا في جلدتهم .

وقد مضت سحابة هذا النهار دون أن يكون فيها شيء ملفت للنظر ما عدا أن بعض الطيور الصغيرة التي أكبر من العصافير كانت تقع في المطعم بين الآكلين تبحث عن شيء تأكله وأحياناً كانت تقفز فوق الموائد بعد أن يتركها أربابها تلتقط فتات الطعام .

ورأينا عند الغرفة عصفوراً لونه كله أحمر قاني الحمرة ما عدا رأسه فهو أسود . وهو غريب حقاً ولذلك رأيتهم قد رسموا صورته على بعض نشراتهم الدعائية .

وبعد الظهر جادت السحب هذه الجزيرة الصغيرة بوابل من المطر الذي أحال لون الجبل المقابل للفندق من الخضرة إلى لون الرماد وواتت النكتة أحد

الرفاق فأخذ يقرع غرفتي صاحبيه ويقول لهما : «غيث مبارك» كما نفعل نحن في بلادنا إذا نزل المطر إذْ يهنىء الناس بعضهم بعضاً بنزوله .

وفي الأصيل قبل غروب الشمس بأكثر من الساعة أردنا أن نتمشى على أقدامنا لمسافة طويلة لان الجو كان غائماً والشمس مدبرة والجو قد برد بعد نزول المطر ، ومع ذلك فان السير في بلد لا يعرفك فيها أحد هو في حد ذاته متعة إذ تضحك ما شئت إذا شئت ،وتسرع في سيرك إن أردت لا سيما إذا كان معك رفيقان مثل الأخوين الكريمين إبراهيم بن صالح آل الشيخ ومحمد بن قعود فسألت موظفة الفندق عن الطريق الممتد الذي يحسن المشي فيه فضحكت وقالت : إنه طريق واحد ليس غير إنه هو الذي يمتد إلى العاصمة (فكتوريا) ويسمونها هنا (المدينة) وهو الذي يذهب إلى المطار ولا يمكن الضياع فيه لهذا السبب ولأن البحر سيمنعكم من الضياع عن يمينكم والجبال تمنعكم من الضياع لأنها عن يساركم ، فسألتها عن المسافة من الفندق إلى العاصمة ؟ فأجابت : إنها تسعة أميال ؟ أي خمسة عشر كيلاً ، فقلت : والأجرة ؟ فقالت : سيارة الأجرة بأربعين روبية أي ٢٢ ريالاً وهذا غالٍ جداً كما ترى لهذه المسافة القصيرة .

وابتدأنا السير إلى جهة مهب الشمال في طريق اسفلتي جيد إلا أنه ليس واسعاً وهو يقع وسط خضرة كثيفة بل غابات ملتفة من أهم أشجارها النارجيل إلا أنه أمتن عوداً وأقل ارتفاعاً من مثيله في إفريقية وربما كان السبب في ذلك أن هذه الجزر قد تتعرض في بعض الأحيان إلى عواصف وأعاصير تقتلع الشجر الطوال ، أو يكون الشجر كله حديث الغرس ولكنني لا أرجح ذلك .

وبين الفينة والأخرى كنا نمر بحانوت على شكل كوخ ، وأحياناً بمنازل

متفرقة في هذا الطريق ومررنا بأحد الحوانيت التي تبيع المصنوعات اليدوية الوطنية وأكثرها من القش وليف جوز النارجيل ولكنها كلها غالية الثمن إذا قيست بالبلدان المماثلة لها .

السكان واللغة :

ومن خلال ما لاحظناه على مظاهر الناس الموجودين في المطار والمطعم والفندق وفي هذا الطريق يتبين أنهم جنس متميزون عن جيرانهم من سكان موريشيوس التي يصح أن يقال إنها جارة لهم من باب التجاوز ولأنها أقرب بلد يابس معمور منهم إذ هي تبعد عنهم حوالي ألفي كيلومتر تقطعها الطائرة النفاثة في ساعتين وربع أي مثل المسافة ما بين الرياض والقاهرة بالطائرة تماماً .

فأغلب السكان هم جنس مختلط من الإفريقيين ونوع من الناس يشبهون في ألوانهم الصوماليين والسودانيين وكونهم جنساً مختلطاً هو ما يعرفون به أنفسهم إذْ يقولون إذا سألتهم عن أنفسهم إنهم كريول أي مختلطون ولكن اختلاطهم كان بين أقوام ليسوا ببعيدين منهم لذلك لم يكسبوهم ألواناً مميزة فاللون الغالب هنا هو السمرة الشديدة أو السواد غير الحالك كما هو عليه الحال بالنسبة إلى السودانيين .

على أن هناك طائفة من السكان هم سود كالإفريقيين تماماً ، وتقاسيم وجوههم هي تقاسيم وجوه الزنوج أو البانتو وذلك ظاهر لمن ينظره ثم إن هناك شيئاً آخر ظاهراً لبعض الناس وهو أن رائحة أجسامهم كرائحة أجسام البانتو فما أن يمر بك أحدهم في مكان ضيق أو حتى الخادم الذي يقدم لك شيئاً في المقهى حتى تشم تلك الرائحة المميزة التي هي منفرة بالنسبة لك إذا كنت غريباً عن بلادهم على أن أولئك قليل ، وإنما غالب العاملات في الفندق من النساء هن من الجنس الأكثر الذي ذكرته وهو الذي يشبه

الصوماليين في الألوان والتقاسيم إلا أنه يوجد جنس آخر هو موجود في الفندق والمطعم وهو جنس الملاقاش الذين يشبهون سكان الهضبة الوسطى من مدغشقر وهم الذين جاؤا في الأصل من بلاد الملايو ولكن صبغتهم الشمس الأفريقية وإن لم يكونوا في إفريقية ولكن ذلك بحكم المجاورة صبغتهم بصباغ أسمر لم يصل بهم إلى حد السواد ولعل ذلك بسبب ما للجنس الصيني من مناعة وما لديه في أجسام أفراده من مقاومة للون الأسود لا توجد لدى غيرهم من الأجناس التي سكنت في المواطن الخضراء مثل الهنود والأوروبيين .

على أن اختلاطهم بالأوروبيين وبخاصة من الفرنسيين قد أكسب بعضهم ألوان العرب الجنوبيين والحاصل أنك ترى في سيشل كل هذه الأجناس ولكنها ليست خالصة لجنس منها بمفرده وإنما أحسن تعبير عنها هو الجنس المختلط أو الكريول بالفرنسية . وجميع العاملات في الفندق ومطعمه ومطاهيه لسن على شيء من الجمال ، ولا يكاد المرء يرى فيهن من تستحق أن توصف بشيء من ذلك .

ويبلغ عدد سكان سيشل ستة وستين ألفاً منهم خمسون ألفاً في العاصمة ، جزيرة (ماهي) التي عاصمتها بلدة فكتوريا وبقية السكان وهم ستة عشر ألفاً موزعون على بقية الجزر التي تبلغ اثنتين وتسعين جزيرة . وقد نالت الاستقلال من بريطانيا عام ١٩٧٦م

ويبلغ طول جزيرة (ماهي) من الشمال إلى الجنوب ٢٩ كيلومتراً وعرضها في المتوسط عشرة كيلات .

ومن أهم جزر سيشل السياحية جزيرة الطير وتبعد مائة كيلومتر عن (ماهي) العاصمة وأهميتها لا تنبع من عدد سكانها إذْ لا يزيد عدد السكان فيها عن عشرين شخصاً ولكن أهميتها ترجع إلى كونها تركت بمثابة أنموذج للحياة

الطبيعية في هذه الجزر .

أما اللغة فانها التي تسمى (الكريول) وتعني المختلط ولكن بالنظر إلى وجود الكريول في جزر أخرى في هذا المحيط مثل موريشيوس ورينيون فانهم يسمون هذه (سيشليانو) .

وهي فرنسية محرفة في الأكثر دخلتها طائفة من الكلمات الانكليزية . إلا أن اللافتات معظمها بالانكليزية وذلك لأن الانكليز لبثوا فيها مدة طويلة وأثروا فيها غير أنهم لم يستطيعوا أن يمحوا تأثير اللغة الفرنسية في أهلها لأنها أقوى من الانكليزية تأثيراً في النفوس كما هي عليه الحال في موريشيوس التي كانت مثل هذه الجزر مستعمرة فرنسية تأثرت بالفرنسية بل أصبحت تتكلم بها وحدها ولما تغلب فيها الانكليز على الفرنسيين لم يستطيعوا أن يتغلبوا على اللغة الفرنسية :

ولعل السبب في ذلك إضافة إلى طبيعة اللغة الفرنسية كون الفرنسيين أكثر ديمقراطية أو قل أقل عنجهية وعنصرية ولذلك تجدهم يختلطون بالسكان أكثر مما يختلط بهم الانكليز سواء بالزواج أو غيره .



منظر من السوق في جزيرة «ماهي» في سيشل .

يوم الأربعاء ١٣٩٩/٤/٢هـ الموافق ١٩٧٩/٢/٢٨م .

إلى بلـدة فكتوريـا :

بلدة فيكتوريا هي عاصمة جزر سيشل أو على الأدق مدينة جزيرة (ماهي) التي هي عاصمة هذه الجزر وهي أكبرها .

والذهاب إلى فيكتوريا يساوي السفر عندهم مع أن فندقنا لا يبعد عنها إلا ١٥ كيلاً والأجرة إليها هي أربعون روبية وتساوي إثنين وعشرين ريالاً .

وكان الهدف من زيارتها هو الاطلاع عليها أولاً ، ثم الغداء فيها غداء وطنيا لأن الطعام الذي في فندقنا أكثره إن لم يكن كله يقدم على الطريقة الأوروبية . ولأمر مهم آخر وهو الاتصال بكبار المسلمين الموجودين في هذه البلاد لأننا لم نستطع في الفندق أن نتعرف على مكان أحد منهم .

وركبنا سيارة أجرة بأربعين روبية وكان سائقها مثالاً على سكان أهل هذه الجزر فهو أسمر وليس أسود ولكنك لا تستطيع أن تلحقه بأي جنس من الأجناس المعروفة ، ولما سألته عن أصله : قال إن جدي البعيد فرنسي اختلط بالوطنيين وان أمه أصلها هندية مختلطة وقال : إن السكان هنا كلهم مختلطون وكان يحدثنا عن شئون وشجون من أمر هذه الجزيرة وهو لا يسرع في سيره وهو يفعل ذلك انطلاقا من طبيعة الناس في هذه البلاد التي هي طبيعة ودية بالنسبة للغريب وهي طبيعة غير معقدة وثانياً لأنه يطمع في أن نكرر الركوب معه لأن عدد الناس القادمين محدود ، وإن كان يبدو كثيراً لنا نحن الغرباء حتى إنه قال : إنني أعرف تقريباً كل سكان هذه الجزيرة الذين يبلغون حوالي خمسين ألفاً ، وهنا واتت الفرصة فقلنا له : وماذا تعرف عن المسلمين في هذه البلاد ؟ فأجاب إن عددهم قليل جداً ولكنني أعرف في السوق تاجراً مسلماً اسمه (آدم موسى) وسوف اريكم متجره .

وأرانا إياه بالفعل . ولكننا سنتناول طعام الغداء أولاً .

جولـة في فكتوريـا :

أوقفنا سائق سيارة الأجرة المؤدب الذي لا يحتال على الناس ولا يحاول أن يأخذ أكثر مما يستحق شأن غيره من عامة الناس في هذه البلاد عند (مطعم مارميت) وقال : إنه مطعم جيد وهو في قلب المدينة فدخلناه فإذا بصاحبه يستقبلنا وفيه من ملامح الهنود الجنوبيين بقية ضئيلة فَهَلّا ورَحَّبَ على خلاف عادة أهل المطاعم الكبيرة وهو بالطبع يعرف أننا غرباء . ولما عرض علينا القائمة قلنا له ، إننا نريد أكلة محلية ولا نريد أن يدخل فيها شيء من الخنزير أو مشتقاته . فقال : لكم ذلك أنا لا أطعمكم إلا (الحلال) قال هذه الكلمة بالعربية وهنا قال : أنا هندي الأصل من موريشيوس وأعرف ما يأكل المسلمون . والأكلات المحلية هنا كلها من طعام البحر فقلنا : ذلك ما نريد .

وأسرع يسعى ويحتفي وأمرأة تساعده في خدمة الرواد الذين لم يكن عددهم كثيراً ربما بسبب تأخر الوقت فاننا في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وهو موعد متأخر بالنسبة إلى غداء أهالي هذه البلاد لأن جميع المطاعم تغلق في الساعة الثانية ظهراً ، ولا يبقى إلا المشارب التي تقدم أكلات خفيفة حتى الفنادق الكبيرة مثل فندقنا (ريف) تفعل ذلك .

وكان أول ما قدمه حساء أي : شربة طعمها غريب ولكنه ذكرني بطعم حساء القواقع الذي شربته في كوريا الجنوبية ، ولما سألناه عنها قال : إنها شربة السمك) ورأينا بالفعل في أسفلها قطعة من السمك الدسم ، والدسم في السمك كما هو معروف ليس كثيراً .

وبعده جاء بأطباق قال : إنها من لحم أظنه قال : لحم الأخطبوط . وكان قد صنعه مع مرق هندي كثيف فيه من البهارات ما هو معروف وفيه ما لا يعرفه

إلا هو وأمثاله ، ثم جاء بسمك آخر معتاد مقلي في طبق واحد ، وسمك آخر مقطعاً وبمرق غير المرق الأول وبعد كل ذلك السلطة الخضراء ، ومع السلطة الخضراء بعد ذلك الحلوى الوطنية الرخيصة التي هي شائعة في هذه البلاد وهي من بيئتهم المحلية وهي الموز المقلي بزيت النارجيل من إنتاج بلادهم . بل هو يكثر فيها . وبعد ذلك القهوة والشاي . وكان الشراب من الكولا وعصير البرتقال .

ولما انتهى الأكل وجاء دور الحساب جاء بالقائمة حافلة بالروبيات كما كانت مائدته حافلة بالأطباق وكان عدد الروبيات التي طلبها (مائتين وسبع عشرة) أي ما يساوي مائة وثلاثة وعشرين ريالاً لثلاثة أشخاص ثمن أكلات مما تخرجه بلادهم من سمك يفترض ألا يكون غالياً ومن موز ونسيت أن أقول : إن السمك المقلي الذي أحضره كان مقلياً بزيت النارجيل ، والأرز كان مطبوخاً بزيت النارجيل ، ولم يكن بأيدينا أن نفعل الا أن ندفع ، ولكن الذي كان بأيدينا أننا لم ندفع له حلواناً أي (بقشيشاً) وكيف نفعل ذلك وهو قد أطعمنا غالياً وكان يخدمنا بنفسه وهو صاحب المطعم وخرجنا من عنده نتجول في عاصمة جزر سيشل المنعزلة عن العالم في خضم من مياه المحيط المجاور لبحر الهند من جهة الجنوب ، ولبحر الزنج من جهة الشرق .

وهي جزر تمثل الجبال الحافلة بالغابات فيها حوالي ٩٠٪ من أرضها فإذا بالناس فيها من جنس عجيب مختلط ورأينا فيها ما لم نكن نره في مطعمنا من جنس أوروبي الأصل أبيض مختلط بجنس آخر من أهل البلاد فأصبح لونه لون أهل الشرق الأوسط ولكن تقاسيمه ليست لهذا الجنس ولا لذاك ، ومن أجناس غيره لا رابطة بينها ولا جامعة إلا العيش في هذه الواحة الخضراء . الصخرية وسط صحراء المحيط الأزرق .

ولا يعجب المرء لذلك إذا تصور أن هذه الجزر كانت في القديم خالية من السكان عرفها العرب ولكنهم لم يسكنوها أو يقيموا بها وإنما كانوا يتزودون من مائها العذب ويقضون شيئاً من الوقت للراحة ثم يسرعون فيتركونها فكانوا فيما عرفه المؤرخون أول من عرفها . ثم جاء من بعدهم البرتغاليون ، والبرتغاليون من أهل الأندلس كما هو معروف عند العرب القدماء وربما كان بعضهم تجري في عروقه دماء عربية فنزلوا فيها يتزودون منها الماء كما فعل العرب ويصنعون فيها الطعام ثم ذهبوا وتركوها ولم يَحْلُ لهم أنهم بها يقيمون ، وجاء بعدهم الفرنسيون وكانوا المستعمرين المقيمين فأحضروا إليها بضعة عشر رجلاً من فرنسا وعدداً من أهل إفريقية وبعد ذلك تعارك الانكليز والفرنسيون عليها وعلى رصيفتيها البعيدتين موريشيوس ورينيون فكان النصر في هذا التعارك للانكليز فأخذوا سيشل وموريشيوس من الفرنسيين وأعطوهم رينيون التي كانت معهم لأنّ رينيون جزيرة فيها براكين نشطة بخلاف هذه الجزر .

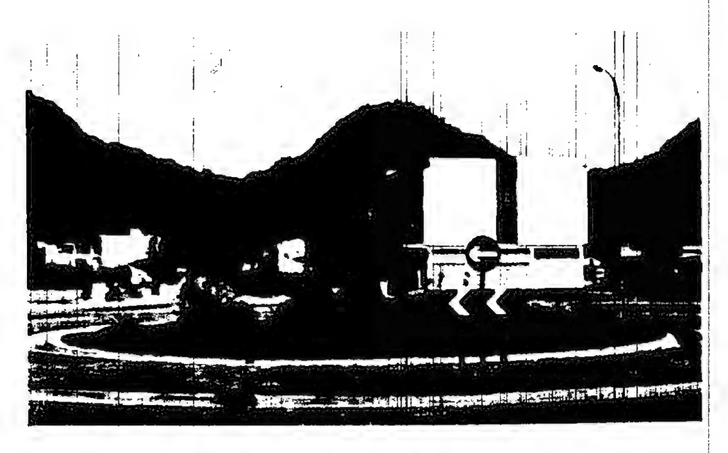
ومن ذلك الحين والبحارة الغائبون عن أهلهم إذا وصلوا إلى هذه البلاد تركوا في أهلها منهم أثراً ، وإن لم يوصلوا في بلادهم عن ذلك خبرا .

ومع ذلك فهذا الشعب المختلط (المنحاس) هو في مجموعه طيب الأفراد ، هادىء الطباع ، بعيد عن الاحتيال والاغتيال ، فضلاً عن الخصام والاقتتال .

والملابس هنا نظيفة في أغلب الأحوال ، وهي هي ملابس الأوروبيين دون أدنى اختلاف في الأشكال ولباس النساء يغلب عليه القصر ، ولباس الرجال ليس للطابع المحلي عليه أثر لأنه ليس هناك طابع محلي إلا أنه اللباس المخفف فالسروال الغليظ الطويل لا يلبسه إلا ذوو الوقار والأقدار ، وإنما الشائع هو لبس السراويلات القصار وبعضهم لا يضع معها فوق الصدر شيئاً

بل هي وحدها وقد رسموا ذلك على عملتهم المحلية بمثابة الانموذج لأفراد الشعب .

وصلنا في تجوالنا في هذه البلدة الصغيرة (فيكتوريا) إلى الميدان الرئيسي في البلدة وهو ميدان الساعة فيما يسمونه بسبب وجود ساعة فيه وهو ضيق المساحة إلا أن ذلك متناسب مع مساحة البلدة الصغيرة ومع مساحة الجزيرة التي تقع فيها .

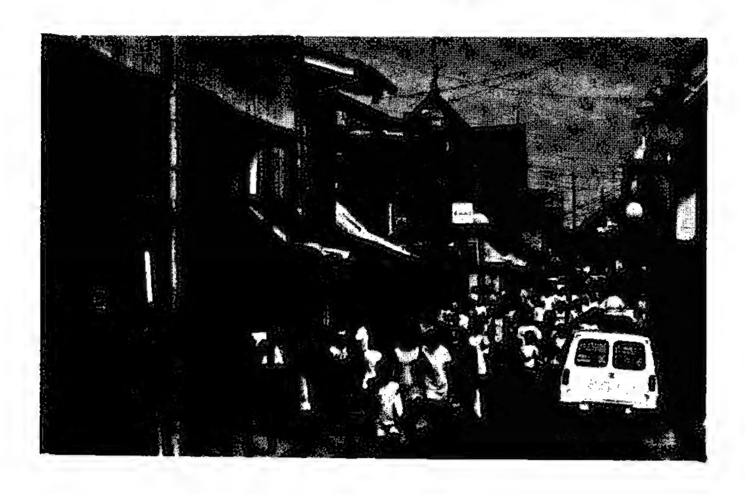


منظر من مدينة فكتوريا

وبلدة (فكتوريا) تقع بين البحر والجبل فهي تشبه مدينة بيروت في هذا الأمر إلا أن هناك فارقاً بينهما في أمور كثيرة بطبيعة الحال فلبنان الذي يسميه أهله (لبنان الصغير) لأنه كذلك بالنسبة إلى البلاد العربية الشاسعة الأركان هو لعمر الحق كبير واسع غني بالنسبة إلى هذه البلاد وأمثالها من الجزر التي استقلت وأصبحت يجب عليها أن تعتمد على نفسها مع أن مساحتها صغيرة وأن البحر يحاصرها من جميع جهاتها ، وليس ذلك فحسب وانما باعد بينها وبين البلاد الأخرى مباعدة شديدة وإذا كنت في (فكتوريا) هذه فانك تشاهد الميناء القديم في نصف دائرة خضراء حولك . وتشاهد الجبل عالياً في السماء أخضر يتفرق السحاب المنخفض عن قمته وتكاد تلمسها معاً بيديك لتلاصقها .

ومع صغر هذه البلدة فإنها منظمة تنظيماً تعجز عنه أكثر المدن الكبيرة الغنية فالأرصفة عامرة ، والشوارع نظيفة حتى إشارات عبور المشاة في الشوارع موجودة في كل الأزقة وهو محترمة من السائقين جميعاً فما أن يراك السائق منهم تريد أن تقطع الطريق مع هذا الممر حتى يقف ولو كان مسرعاً أو كان خلفه عدد من السيارات الأخرى والناس يحترمونها بحيث لا يقطعون الشارع إلا منها والحدائق المنسقة موجودة في كل مكان وان كانت لا تكلفهم أكثر من التنسيق لأنها لا تحتاج إلى السقي وانما يتكفل المطر لهم بذلك . والنظافة العامة هنا معجبة حقاً .

ورغم قلة موارد البلاد فان المتاجر غاصة بالسلع والناس يبيعون ويشترون وكأنما هم كانوا زمن الحكم البريطاني الذي كان يضمن ميزانية مناسبة للبلاد . وهم لا يصدرون شيئاً ذا بال ما عدا جوز الهند ومشتقاته ويستوردون كل طعام ما عدا الموز والجوز (جوز الهند) الذي هو ثمار أشجار النارجيل وما عدا السمك الذي هو أيضاً غالٍ وجميع اللافتات مكتوبة بالانكليزية رغم أن الفرنسية المحرفة (الكريول) هي اللغة العامة لسكان البلاد .



شارع في مدينة فكتوريا

وكان الجو عندما حضرنا أول يوم حاراً رطباً ولكنه تغير تغيراً قليلاً في الليلة البارحة وصباح هذا اليوم إلى رطب ذي نسمات مريحة .

والحديث عن الجو هذه الأيام هو الحديث عن الجو في (سيشل) طول العام فهو حار رطب لا يتبدل ولا يتغير على مدار السنة غير أن المطر الكثير يلطفه . والشمس الساطعة تكثفه فيصبح الجو خلالها حاراً رطباً .

وبينما كنا نتمشى في هذه البلدة الصغيرة وكان السحاب غير كثيف ولا ينذر بالمطر وإذا بأحد الرفاق يلفت انتباهنا إلى سحاب منخفض كان يتفرق عن قمة هذا الجبل الأخضر ، وبعد لحظات قليلة بدأ المطر ينهمر انهماراً ويرسل غيثه مدراراً وهم هنا لا يسمون كثرته غيثاً ، وإنما يسمونها رداءة الجو ، أو سوء الحظ أو شيئاً مختلطاً من هذا وذاك لأن المطر كثر عندهم حتى ملوه ، وكثر نزوله حتى أصبحوا إذا تأخر — إن تأخر — لم يستبطئوه .

أما نحن فقد لجأنا إلى بعض الأروقة بين المتاجر ننتظر انقطاعه حتى نكمل جولتنا أو نعود إلى فندقنا وأما أهالي البلاد فكانوا فريقين فريقاً كان قد أخذ للمطر أهبته من قبل فأخرج (شمسيته) أو لبس على رأسه وكتفيه لباساً واقياً من اللدائن الخفيفة ، وفريقاً مثلنا وقف ينتظر المطر أن يقف ولكنه يواصل الانهمار .

ووقفنا ننتظر ونحن عازمون على أن نبحث عن آدم موسى هذا المسلم الذي ذكره السائق وذلك لكي يدلنا على الشيخ (أبو الفضل محسن إبراهيم) الذي هو داعية إلى الله في هذه البلاد يتسلم مكافأة شهرية على ذلك من المملكة العربية السعودية . إذا بشخص ملتح يسرع إلينا والمطر يهطل ، ويقول موجهاً كلامه إليّ : أأنت الشيخ العبودي ؟

فأجبت : وأنت ؟ أأنت أبو الفضل ؟ وكنت قد رأيته مرة في جزيرة

موريشيوس في العام الماضي وكان قد رآني وسمعني أتحدث في المؤتمر الإسلامي الذي عقد هناك وكنت آنذاك طول الوقت بالملابس العربية . لذلك لم يعرفني بسرعة هنا وقد خرجت من الإهاب العربي إلى الإهاب العالمي المخفف في هذه البلاد الحارة النائية .

وكانت صدفة خيراً من ميعاد ، إذ كنا نريد البحث عنه فوجدناه من دون بحث .

وكان سلام وتعارف وموعد لزيارة المركز الإسلامي غداً وغداء أو عشاء ضرب موعده غداً أيضاً واخترنا العشاء على الغداء لأننا كنا على موعد سابق مع شركة الجولات بالحافلات في الصباح .

وأصرَّ أخونا أبو الفضل على أن يأخذنا بسيارته في جولة في أنحاء هذه الجزيرة فأبينا لأن المطر كان قد انهمر ، وكلما ظننا أنه قد نقص عاد فكثر .

ومع ذلك أصر على أن نركب معه في سيارته فركبنا وطلبنا منه أن يوصلنا إلى فندقنا فكان السير صعباً والمطر كان ينهمر غزيراً إذا فتحت نوافذ السيارة دخل منها وإذا أغلقت تكاثفت الرطوبة داخلها إلى ما يشبه الدخان الذي يحجب النظر والعلاج في بلادنا وفي سائر البلاد الباردة أن يشعل البخار الحار ولكنه عندما أشعله كان كأنه لفح النار .

ما هي الجزيـرة الثانيـة بعد ماهي :

ليس هذا لغزاً وإن كان يبدو كذلك لمن لم يعرف الأمر حتى لمن يعرفه وهو الشيخ أبو الفضل ، الذي تعلم اللغة العربية في باكستان أولاً ثم في مصر ثانياً ويتكلمها بقدر كاف كان يحدثنا بالعربية حتى يسمعها زميلنا في الوفد وصديقنا الشيخ إبراهيم بن صالح آل الشيخ عن هذه الجزر جزر سيشل وعن بعض ما

جريات الأمور فيها ومن ذلك قوله : إن الجزر في هذه البلاد هي (٩٣) جزيرة وأكثرها صغيرة إلى درجة أنها لا يوجد فيها سكان . فأردت أن أسأله عن الجزيرة الثانية من حيث اتساع الرقعة وكثرة السكان في مجموعة جزر سيشل بعد عاصمتها وأكبر جزرها هذه الجزيرة التي نحن فيها والتي اسمها (ماهي) فقلت :

ماهي الجزيرة الثانية بعد ماهي؟ ولم يفهم أول الأمر بسبب بعده عن الكلام بالعربية حتى أوضحت له المراد وهو أن جملة (ماهي) الأولى : أداة الاستفهام بالعربية وكلمة (ماهي) الثانية المراد بها جزيرة ماهي .

فأجاب ضاحكاً إنها جزيرة كذا .

وازداد المطر فلم يسمح لنا بغير الرجوع إلى الفندق .

التمثيل العربي السياسي في سيشل :

ربما لا يكون هذا العنوان وما تحته ضرورياً لكثير من القراء العرب لأنهم ليسوا على علم بكل ما يتصل بسيشل هذه ما عدا التمثيل العربي السياسي أو لأن سيشل نفسها ليس لها من الأهمية عندهم ما يجعلهم يحرصون على أن يعلموا عنه شيئاً .

إلا أن الحديث عن هذا الموضوع له سبب وذلك أننا كنا أثناء جولتنا في مدينة (فيكتوريا) بعد ظهر اليوم وقفنا عند رجل يبيع بطاقات البريد التي يكون عليها في العادة صور لبعض معالم البلاد فسمعني أتحدث مع زميليّ الشيخ إبراهيم بن صالح آل الشيخ والشيخ محمد بن قعود بالعربية وسمع كلمة (سبعة) بالذات فسألني : أأنتم ليبيون؟ فاستوضحت منه كلامه لأنني استبعدت أن يعرف قوماً من مغرب العالم العربي ويتجاوز مشرقه فقال : أأنتم من ليبيا؟ فقلت له : لا نحن من الشرق الأوسط ولكن أين عرفت الليبيين؟

فقال : هنا في هذه البلاد : فقلت له : كيف ظننت أننا ليبيون ؟

فأجاب : لأن ألوانكم كألوانهم ، وكلامكم مثل كلامهم .

وكان بعد ذلك بحث مع غير هذا البائع الذي لا يحسن البحث معه في أمور مثل هذه الأمور لو كان يحسنها وذلك فيما يتعلق بالتمثيل الإسلامي والعربي في سيشل .

وعلمنا أن ليبيا هي الوحيدة بين الدول الإسلامية والدول العربية التي لها سفارة في هذه البلاد حتى باكستان التي لا تعتبر هذه الجزر بعيدة بعداً شاسعاً عنها والتي يظن أنها لا تخلو من أشخاص من أهلها كانوا هنا في وقت من الأوقات ليس لها فيها سفارة .

وتلك من الحكومة الليبية عادة حميدة لو أنها استقامت على الطريق السديدة التي تكفل المصلحة للعرب والمسلمين من ذلك التمثيل وسلمت من اختلاف السياسة ، ومن البعد عن الكياسة . فليبيا لها سفارات في الدول الصغيرة في هذه الجزر المنعزلة فسفارتها في مالديف هي العربية الوحيدة وسفارتها في (موريشيوس) ليس معها من السفارات العربية إلا سفارة مصر ، وسفارتها في مدغشقر لا يوجد غيرها إلا سفارتا الجزائر ومصر ، وكادت ليبيا أن تفتح سفارة لها تكون هي السفارة العربية الثانية في جزر القمر لولا أن الرئيس السابق لتلك الجزر (علي صالح) خشي مغبة الحركات الليبية الطائشة فمنعهم من ذلك بعد أن كان وافق عليه .

وماذا عن العرب ؟

وقد يسوق الحديث عن التمثيل السياسي العربي في سيشل إلى التساؤل والحديث عن العرب في سيشل ، هل هم موجودون وما هو عددهم وكيف هي حالهم إذا كانوا كذلك ؟

والجواب : ألّا حديث عن العرب في سيشل لأنهم غير موجودين أصلاً بل لا يوجد منهم حتى فرد واحد . ما عدا العاملين في السفارة الليبية على حين أنه يوجد في البلاد العربية النفطية عدد من أبناء سيشل الذين يعملون هناك في المشروعات العمرانية .

ريف الصخب :

الغرف في فندق (ريف) الذي نسكنه هي ممتدة طولاً كما قدمت ومن حسن حظنا أن كانت غرفنا في آخر الصف من جهة الشمال التي هي أبعد الغرف عن الإدارة ولذلك كانت هادئة هدؤاً عجيباً ، لا يحرك هدؤها إلا غناء بعض البلابل في بعض الأحيان ، ونوح قمرية أو طائر شبيه بالقمرية على عسيب إحدى نخيل النارجيل كما تفعل زميلتها القمرية حيناً في بلادنا العربية حين تنوح على فروع النخيل .

وأحياناً تُسمع لأمواج البحر صوت خفيف بل هو حفيف لطيف لأن هناك بعيداً من الشاطىء صخوراً قرب السطح تتكسر عليها الأمواج الشديدة ، بخلاف الشاطىء الذي هو رملي .

وفي مطعم الفندق ومقهاته لا تسمع في أكثر الأوقات أصواتاً عالية بل لا تسمع من السكان والنزلاء إلا همساً لأنهم كلهم من الأوروبيين أو الأمريكيين

الذين هم في أغلبهم من المؤدبين وهم في جملتهم من الذين أصبحوا للصخب واللجَب كارهين .

حتى إننا لاحظنا عدة مرات أن الأصوات الغالبة في المطعم أو المقهى ، إنما هي أصوات الخادمات (السيشليات) ببربرتهن بلغتهن (الكريول) أي الفرنسية المحرفة لأنهن يتكلمن فيما بينهن وقد يخيل إليك أنهن أحياناً يتخاصمن وإن كنت لا تستطيع أن تفرق بين هذا وذاك لأنك في المقام الأول لا تستطيع أن تعرف ما يقلنه من لغتهن ولأنك في المقام الثاني لا تستطيع أن تميز الغضب من الرضا في وجوههن لأن المرح والابتسام أمر ليس له مقام عندهن .

ومع هذا الهدوء في الفندق والمطعم والمشرب والمقهى في أكثر النهار فانه يصبح صاخباً بل مزمجراً معربداً في وقت من الأوقات هو وقت الرقص والموسيقى في أول الليل فما أن تحين ساعة العشاء حتى تحضر الفرقة الموسيقية بآلاتها وأدواتها . ثم تبدأ بالعزف الصاخب حتى إذا شارفت ساعة العشاء على الانقضاء في التاسعة والنصف وأوشكت ساعات السهرة على الابتداء جن جنون الموسيقى ، وجن جنون الشاربين الطربين فكانت جريرة ذلك على الأرض يضربونها بأرجلهم ، وعلى أجسامهم يطوحون بها ذات اليمين وذات اليسار ومن لم يستطع منهم أن يطوح بجسمه فأنه يميله ذات اليمين وذات الشمال ومن لم يستطع أن يفعل حتى ذلك لهرم أو مرض فانه يكتفي بهزه وذلك أضعف الإيمان بالرقص عندهم .

ويتملك الحماس للرقص في أكثر الأحيان أولئك الوطنيين السيشليين من أهل اللون الأسود أو ما يقرب منه فيرقصون رقصاً لا يصل إليه رقص

الأوروبيين والأمريكيين أو هكذا يخيل لمن يراهم فيه متفانين .

وذلك في كل ليلة من الليالي إذ يختلط نزلاء الفندق الغرباء بأهل البلاد القرباء فيختلط الحابل بالنابل وتتكون بين الاثنين رابطة ليست قوية من روابط الطرب والشرب والصخب ، لا يعرف شرها ونُكرها إلا من قد كفاه الله شرها .

ومن حسنات هذا الفندق أنه لا يجيز لأي نزيل أن يدخل إلى غرفته امراة أجنبية عرفنا ذلك حين رأينا رجال شرطة على حاشية هذا المرقص المؤدية إلى الفندق فسألنا عن السبب في وجودهم ؟ فقالوا : إنه لمنع المشاجرات أولاً ، ثم لمنع من تسول له نفسه أن يذهب بامرأة أجنبية إلى غرفته ثانياً .

يوم الخميس : ١٣٩٩/٤/٣هـ الموافق ١ مارس ١٩٧٩م .

جولة في جزيرة ماهي :

هذه الجولة مع شركة (كارول لين) للسياحة ومدتها أربع ساعات وثمنها أربعون روبية (سيشيلية) أي اثنان وعشرون من الريالات السعودية وستكون بالحافلة . وقد حجزنا من مكتب لهذه الشركة في فندقنا (ريف هوتيل) .

بدأت في الساعة الثامنة والثلث عندما مرت حافلة بالفندق فحملت منه عدداً لا بأس به ثم ذهبت إلى ميناء صغير في العاصمة فيكتوريا مع الطريق الوحيد الذي سبق ذكره فأنزلت بعضهم هناك عند الميناء لأنهم من هواة السياحة البحرية ، والذين بقوا في الحافلة معنا سارت بهم إلى مكتب للشركة في (فيكتوريا) فوقفت هناك لمدة دقيقة واحدة صعدت أثناءها فتاة سوداء

ولكن سوادها غير حالك إفريقية الأصل إلا أن التقاطيع الإفريقية ليست كلها موجودة فيها ، بل إن فيها شيئاً من الشرق الأوسط هو سعة عينيها ولا أدري من أين جاءها ذلك . وفيها شيء يكون في الناس كلهم لكنه الغالب على أهل آسيا الجنوبية الشرقية وهو قصر القامة وهي بمجموع صفاتها ليست من الدليلات الجميلات .

عندما صعدتْ إلى الحافلة وقفتْ عند الباب الأمامي وألقت بوجهها إلى الركاب قائلة إنني دليلتكم واسم (ربيكا) وسائقكم اسمه كذا ولم أتذكر اسمه لأنني لم أر فيه شيئاً يستحق أن يحفظ اسمه من أجله .

وكان الحديث كله بالانكليزية ، أما الركاب فكانوا بمجموعهم من البيض ما عدانا نحن العرب الثلاثة فنحن وان لم نكن من السود ولكن الناس لا يحسبوننا من البيض الذين هم في اصطلاحهم من كانوا اوروبيين ولو كانوا يعيشون في غير أوروبا وهؤلاء هم رفقاءنا في الرحلة فمنهم أمرأتان من جنوب إفريقية وأخريان من فرنسا وزوجان أصلهما من ألمانيا وهما الآن يعيشان في انكلترا وزوجان عجوزان الرجل أكبر من المرأة بكثير قد هدّه المرض حتى خشي بعض من معنا أن يصاب بمكروه أثناء الرحلة ومع ذلك كان يحمل آلات تصوير على كل كتف من كتفيه ، ويسارع على ضعف حركته وانحناء ظهره إلى تصوير كل منظر يشوقه أو حركة تروقه ، وذلك شأن من الأوروبيين عجيب إذ هم يحبون المعرفة ولا يملون منها ، بل إنهم يطلبون العلم علمهم هم من المهد إلى اللحد .

وكان المطر يهطل رذاذاً وأحياناً ينهمر منذ أن خرجنا من الفندق حتى مضى حوالي الساعة من الرحلة ثم وقف بعد ذلك .



غابة من أشجار النارجيل في سيشل .

تركت الحافلة بلدة (فيكتوريا) وراءها سالكة طريقاً يفضي بها إلى غرب الجزيرة وهو الجانب الآخر منها الذي قد يشبه الجانب الآخر من القمر لأنه لا سبيل إلى اختراق الجبال التي تفصل بين جانبي الجزيرة الشرقي والغربي من وسطها لارتفاعها وصعوبتها ، وانما يمكن ذلك من أحد أطرافها الجنوبية أو الشمالية كما صنعنا نحن ، وكان الطريق جيداً مسفلتاً إلا أنه فيه ضيق وهو أمر لهم العذر فيه بسبب صعوبة أرضه وكونها جبلية وكونها كثيرة الأمطار مما اضطرهم إلى بناء بعض جوانبه بناء حتى لا تنهار عليه الأحجار وتخربه السيول .

وطال الصعود نسبياً ورأينا عمالاً يعملون في جانب الطريق وعلى كل منهم ملابس من اللدائن واقية عن المطر مما يدل على توقعهم المطر في كل لحظة .

أما الجبل فانه كله غابة واحدة ، تتناثر فيها المنازل على قلة ، ولا تجد فيها قرى ، أو بلاداً ذات منازل مجتمعة .



جزء من الحديقة الوطنية قرب ميناء جزيرة «ماهي» .

حتى وصلنا إلى فندق كبير يسمونه فندق (بوفا لوبي) بالقرب من الشاطىء الغربي للجزيرة . فحملوا منه راكبتين أوروبيتين أو من أصل أوروبي وعادت الحافلة إلى صعود الجبل إلى ما يسمونه (ناشنال بارك) أي الحديقة الوطنية ولكننا لم نر لها أثراً إلا أنها غابات كثيفة منعوا استيطانها أو عمارتها . وهي خالية من الحيوانات أو غيرها ما عدا بعض الطيور القليلة .

ثم نزلت الحافلة قليلاً ثم عاودت الصعود والدليلة لا تزيد على قولها نحن نسير مع طريق كذا أو سنذهب إلى طريق كذا لأن المناظر لا تكاد تتغير جبلية

ذات غابات كثيفة وطريق ضيق ولكنه مرصوف رصفاً جيداً .

وفي أحد الأماكن من الجبل التي تطل على شاطىء البحر أوقفتنا الدليلة عند شجرة من أشجار النارجيل غير العادي وقالت : إن هذا اسمه (كوكو دي مير) أي نارجيل مير ومعنى مير بالفرنسية البحر . وشجره أقصر من النارجيل المعتاد وأملس منه عوداً وفروعه تختلف عن فروعه . إلا أن ثمره أكبر بكثير من ثمر النارجيل العادي .

ثم صعدت الحافلة بنا قليلاً فأوقفتها الدليلة في مكان من الجبل عالٍ يشرف على البحر وعلى جزر متناثرة صغيرة فيه عددها سبع جزر كلها خضراء .

ثم انحنت الدليلة إلى الأرض واقتطعت أوراقاً من نبات تشبه أوراقه أوراق قصب السكر ثم أخذت تفركه وتفرقه على الركاب تأمرهم بأن يفركوه ويشموا رائحته وكانت بالفعل رائحة عطرية ثم عاودنا الصعود في الجبل ، وهنا رفعت الدليلة رأسها إلى قمة قريبة وقالت : هنا أعلى قمّة جبليّة في الجزيرة ان إرتفاعها يبلغ ثلاثة آلاف قدم من سطح البحر ولكننا لا نستطيع الوصول إليها .

ثم استمر النزول والصعود في أنحاء الجبل العجيب الذي لا يزيد عرضه لو أمكن اختراقه مباشرة عن عشرة كيلات . حتى أوقفت الدليلة السيارة في مكان متسع ثم أشارت إلى درج في الجبل وسارت فتبعها الجميع ثم من ذلك الدرج إلى درج آخر وسط غابة كثيفة كثيرة المطر بدليل أن جذوع الأشجار الكبيرة كلها قد علاها الطحلب وهو الشيء الأخضر الذي يكون على وجه الماء الراكد عادة . وسرنا قليلاً حتى وصلنا إلى كوخ خشبي يشبه الخيمة ، أو هو بني على شكل الخيمة وثبتت قواعده بالاسمنت أما جوانبه فانها كلها مكشوفة ، وقالت : هنا كان المندوب السامي البريطاني يقضي نزهته وهو الذي بنى هذه الاستراحة بهذا الشكل .

وهو بالفعل مكان يستحق ذلك وأكثر من ذلك لأنه يشرف من موقعه الجبلي العالي على البحر وينظر منه المرء إلى خليج جميل المنظر ذي انحناءات

خضراء السفوح ، بيضاء الرمل عند الشاطىء . وهناك في البحر عدة جزر صغيرة خضراء جبلية التربة خضراء الغابة إلا أنها غير مسكونة لصغرها .

هذا إلى جانب رواب ٍ جبلية خلف الجبال المتصلة بالمكان والهدوء شامل هذه المنطقة لأنه ممنوع فيها منعاً باتاً أن يسكنها إنسان أو أن يذار فيها حيوان إلا أنها ليس فيها من الحيوانات شيء ، وهنا عاودت الدليلة الانحناء على إحدى الأشجار وأخذت منها ورقة تشبه ورقة الأترج أو قل ورقة البرتقال الكبيرة وقالت : هذا نسميه (سيناماي) ونضعه في الطعام وله رائحة جيدة .

ثم تركت ركاب الحافلة كلاً في شأنه فلم يجدوا شيئاً يعملونه إلا بأن يحدث بعضهم بعضاً أو يسأله عن بلده . واجبناهم على أسئلتهم بأننا عرب من الشرق الأوسط ، فسألوا : أي قطر ؟ فقلنا : إن الأقطار العربية كلها واحد من حيث السكان واللغة والدين بل من حيث الآمال والآلام ، وان اختلفت السياسة والأعمال ، مع الأقوال من بعض الحكام .

وملّ الجميع من الانتظار ولكن الدليلة كانت قد تعمدت ذلك إذْ تبين أنه ليس هناك مساحات شاسعة ، ولا أماكن رائعة لتشغل في إطلاعنا عليها كل الساعات الأربع المقررة في الرحلة .

إلا أن المكان هنا جميل حقاً بهدوئه ومناظره بحث لا تقع عينك إلا على شيء أخضر رائق وكأنك — فيما تتخيل — تنظر إليه قبل أزمان سحيقة لأنه ترك غُفلاً بدون أن يمس بشيء وليس حولك حركة اللهم إلا طائراً أبيض كبيراً رأيته وحيداً يطير من غابة جبلية إلى أخرى . وإلا عصافير صغيرة كانت تزقزق زقزقة خفيفة كأنما هي كانت مستحية من أن تمزق هذا السكون .

وعدنا إلى الحافلة بعد أن استمتعنا بهذه الوقفة التي ليس فيها من عيب غير طولها .

وسارت الحافلة مع طريق ينخفض قليلاً ويسير في سفح تلة جبلية قد زرعت بأشجار الشاي ، وهنا سأل أحد الركاب الدليلة أن توقف السيارة حتى يروا الأشجار فقالت : إن هذا في تفكيري ولكن لم يحن وقته بعد .

ولقد أنجزت ما وعدتْ بعد فترة قصيرة إذ أوقفتنا أمام مصنع للشاي بجانب مزارعه وقالت : هنا تستطيعون أن ترو الشاي في أشجاره إذا أردتم وتستطيعون أن تروا مراحل إعداده في المصنع إذا شئتم ثم بعد ذلك تشربون منه أكواباً بالمجان .

ثم أضافت : وليس ذلك فحسب وانما يمكنكم أن تطلوا من هذا المكان الجبلي المرتفع على هذا المنظر البديع للشاطىء المنخفض وجزره الصغيرة ورماله البيضاء ومياهه الزرقاء .

وهكذا كان فقد انطلق الرفاق فرادى وجماعات ، وانطلقت ألسنتهم بالحديث والسؤال عن كل ما يخطر بالبال .

وبعد ذلك قادتهم الدليلة إلى جولة في مصنع الشاي فشاهدنا الأوراق الخضراء التي قطفت وهم يدخلونها آلة تخلطها وتقطعها فتصبح كأنها أوراق البرسيم المخلوطة وليس فيها من رائحة الشاي شيء . ثم تأخذه العاملة وجميع العاملات في المصنع من النساء إلى آلة أخرى تعالجه وتخرجه أصغر من ذلك حتى تجففه آلة أخرى فيخرج صالحاً للاستعمال .

وقد رأينا في ركن من المصنع بعض النساء اللاتي يضعن الشاي في أكياس من الورق ليصبح جاهزاً لوضعه في الفنجان وذلك بعد وزن كل قدر من الشاي في ميزان صغير عندهن ، وهناك في آخر المطاف عمال يضعون الشاي في صناديق من الخشب المضغوط (الابلكاش) مكتوب عليها أنه من شاي سيشل .

وجاء دور الشرب بعد الفرجة وكان بنا إلى ذلك حاجة بعد هذه الجولة في هذا الجو الرطب الذي إذا سطعت شمسه صار صيفاً حاراً ، وإذا سقط مطره صار ربيعاً سارّاً .

فأوقفت الحافلة عند متجر صغير للمصنوعات اليدوية الوطنية . ملحق به مقصف صغير جميع أثاثه من الخشب الرث أي غير المصنوع أو المصقول فتناول الرفاق الشاي وهم وقوف ، وبعضهم قد انتظموا على شكل صفوف يشترون من هذا الحانوت الصغير ما طاب لهم من مناظر وتحف صغيرة .



رجل يفتح ثمار النارجيل لشرب السائل اللذيذ الطعم داخلها .

ثم كان استئناف الركوب ، وقد ذهب ما بالراكبين من لغوب فانحدرت الحافلة من هذه الجبال إنحداراً . وكأنها تطلب في الشاطىء الغربي لهذه الجزيرة قراراً . حتى قر قرارها عند فندق ضخم في مكان منعزل ليس عنده سكان وهو واقع بين البحر والجبال وقالت الدليلة : إنه فندق من الدرجة الأولى وان

اسمه (ماهي بيتش هوتيل) أي : فندق شاطىء ماهي . ولم تقف عند هذا الفندق وانما استأنفت الحافلة سيرها في جنوب الجزيرة جزيرة ماهي مع طريق لا نقول إنه بقرب الشاطىء لأن جميع الطرق التي لا تكون في الجبال هي على الشاطىء لكون الجبال تحاصر الأرض او تزاحم البحر فلا تبقى في بعض المواضع إلا ما لا يكاد يكفي للمرور .

وهكذا ظللنا برهة نسير مع ما يسمى بالكورنيش عن يميننا البحر وعن يسارنا الجبال التي غرست في سفوحها أشجار الموز بين غابات النارجيل . فكنا نسير في الريف ، حتى وصلنا إلى فندقنا (ريف) .

وكانت هذه نهاية القولة في هذه الجولة .

في المركـز الإسلامـي :

كان أخونا الشيخ (أبو الفضل محسن إبراهيم) قد اتفق معنا على أن يصحبنا آخر هذا النهار الذي هو آخر يوم لرفيقيَّ في الوفد الشيخين إبراهيم بن صالح آل الشيخ ومحمد بن قعود في جزر سيشل إذا اتفقت معهما على أن يذهبا اليوم إلى كينيا التي هي آخر مرحلة في جولتنا هذه في أقطار إفريقية الشرقية وجزائر البحر الزنجي ، وأن أتخلف بعدهما يومين في هذه الجزر أقوم أثناءهما بتحرير التقرير على أن الحق بهما بعد ذلك لنكمل باقي الجولة معاً ونسافر عائدين إلى المملكة مساء الخميس القادم باذن الله .

وكان البرنامج المرسوم أن يأتي إلينا بسيارته في الرابعة ظهراً فنذهب في رحلة بحرية إلى إحدى الجزر القريبة نعود بعدها إلى بلدة فيكتوريا لزيارة المركز الإسلامي ، والقاء كلمة في شباب المسلمين الذين كان من المقرر أن يجتمعوا فيه ، ثم من هناك نذهب إلى بيت جد الشيخ أبي الفضل واسمه (سليمان آدم موسى) لتناول طعام العشاء عنده بحضور زعماء المسلمين في هذه البلاد . ومن

هناك نعود للفندق فيحمل أمتعة الرفيقين ليسافرا إلى نيروبي .

وهذه خطة مناسبة إذ ستتيح لي الاطلاع على أشياء هامة .

جاء الشيخ بسيارته إلى فندقنا والمطر يهطل قليلاً وما أن ركبنا السيارة حتى توقف ، وبدأ الجو في الاسفار ففرحنا بذلك . وقصدنا ميناء القوارب الصغيرة في بلدة فيكتوريا . على مسافة ١٦ كيلاً من الفندق ، وبينما كان الشيخ يبحث عن قارب خاص نستأجره لهذه الرحلة إلى الجزيرة إذا به يرفع رأسه إلى أعلا الجبل ، ويقول جاء المطر ، ولا بد لنا من أن نجد قارباً فيه ما يقينا منه أو أن نعدل عن السفر ، ولم نجد القارب وانما وجدنا الفرصة رغم إرادتنا في العدول عن هذا السفر المنتظر إلى الجزيرة الصغيرة .

وعدنا إلى ركوب السيارة قاصدين المركز الإسلامي ، ولم نكد نصل إليه حتى صدق حدس مضيفنا فبدأ المطر يهطل كثيفاً مدراراً .

ووصلنا المركز المؤلف من طابق متسع كان في السابق مخزناً لجد الشيخ أبي الفضل فاتخذوه مركزاً للمسلمين بعد أن أصلحوه ووسعوه ، وقد سمح لهم بذلك من دون أجرة طلباً للأجر من الله تعالى وقد خصصوا غرفة منه لصلاة الجمعة فرشوها فراشاً نظيفاً ووضعوا فيها محراباً مألوفاً وكتبوا على قبلتها الشهادتين (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) وقال الشيخ أبو الفضل : إن عدد الذين يصلون الجمعة معه لا يزيد على العشرين ، من مجموع عدد المسلمين الذي سيأتي ذكره .

وأرانا الشيخ أبو الفضل أعداداً من مجلة إسلامية يصدرها بالانكليزية عنوانها (اقرأ) ومكتبة صغيرة معظم ما فيها من الكتب بالانكليزية .

ثم انتقلنا إلى فصل الدراسة في المركز وفيه مقاعد دراسية وفي مقدمته منصة كبيرة مرتفعة يجلس عليها المدرس ، أو من يريد أن يلقي محاضرة . وقد اجتمع

في هذا المكان من شباب المسلمين قرابة العشرين ما بين صبي وصبية وفتى وفتاة .

وطلب أبو الفضل أن ألقي فيهم كلمة فالقيتها تحث على تمسك المسلم بشخصيته الإسلامية في بلاد الاكثريات الكافرة والأقليات المسلمة وبخاصة في هذه الجزر التي عدد المسلمين فيها قليل جداً .

وبعد إتمام الكلمة التي كانت بالعربية وكان الشيخ أبو الفضل يترجمها لهم بالانكليزية ألقى الحاضرون بعض الأسئلة الدينية ، وطلبوا الإجابة عليها كان أحدها من فتاة اسمها (فريدة يعقوب) وآخر من فتى اسمه حسين عفيف وسألنا بعد ذلك عن المطالب المهمة للمسلمين ، فقالوا : إنها الكتب الإسلامية باللغة الانكليزية . وقال الشيخ أبو الفضل : إن هذا المركز أُنشئَ منذ عام واحد فقط ، وإنه يلقى في شباب المسلمين درساً يعلمهم مبادىء الدين الإسلامي وشيئاً من الكتابة العربية وان ذلك يكون كل يوم لمدة ساعة واحدة ما عدا يوم الأحد .

المسلمـون في سيشل :

دخل الإسلام في سيشل لأول مرة على أيدي عدد من المهاجرين الأوائل الذين جاؤا من بلاد الملايو في القرن التاسع عشر الميلادي وقد مات عدد منهم في سيشل وكان من آثارهم أن خلفوا مقبرة للمسلمين لا يزالون يدفنون فيها موتاهم حتى الآن ولم يخلف هؤلاء ذرية مسلمة إذْ سافر أبناؤهم عائدين إلى بلادهم في الملايو بعد ذلك .

ثم جاء قوم من الهند كان من أقواهم رجلاً اسمه آدم موسى من كجرات في الهند وقد أصبحت الآن أسرة كبيرة من ذريته على رأسهم ابنه سليمان آدم

موسى جد الشيخ أبي الفضل محسن إبراهيم بن سليمان ابن آدم موسى الذي تعلم في باكستان وفي مصر ثم تعاقدت معه دار الافتاء في المملكة العربية السعودية للإرشاد والدعوة في سيشل .

وقد قام بالأمر وذكرنا بعض أعماله التي من أهمها إقامة هذا المركز الإسلامي والمصلى الذي بداخله بمثابة المسجد للمسلمين .

ويبلغ عدد المسلمين في الوقت الحاضر في سيشل مائة واثنين وكلهم من المسلمين القدماء ما عدا فتاتين أسلمتا في السنتين الأخيرتين .

ولا يوجد للمسلمين هنا مسجد ولا قاضٍ ولا صحافة ، ولا أي شيء من مقومات الدين قبل قيام الشيخ (أبو الفضل) بما قام به .

ويسكنون كلهم في بلدة فكتوريا ما عدا أسرتين يسكن أفرادهما في خارجها .

والمستقبل هنا ليس مشرقاً بسبب الجهل بالدين والبعد عن التعليم الإسلامي وقلة المسلمين مع أن جيرانهم المسلمين في موريشيوس أهل قوة وفهم وتفهيم للدين وعندهم المساجد والمدارس ويأتي إليهم الدعاة من الهند وباكستان ومن جنوب إفريقية فضلاً عمن يأتونهم من البلدان العربية .

إلا أن أمل المسلمين في جزر سيشل أخذ يقوى في الأوقات الأخيرة بسبب هذه الحركة التي قام بها الشيخ أبو الفضل والمؤمل أن تزداد وتتوسع مع الزمن ، ولا يقتصر أملهم فيها على حفظ أنفسهم وذراريهم من الضياع الديني وإنما قد يأملون في أن يزداد عددهم بدخول غير المسلمين إلى الإسلام .

ومعظم المسلمين الذين هم من أصل هندي حالتهم المادية حسنة ويشتغل أكثرهم بالتجارة .

مع زعمـاء المسلمين :

كان ذلك في الساعة السابعة والنصف من مساء هذا اليوم في بيت الشيخ سليمان آدم موسى في فيكتوريا وكان الاجتماع على مأدبة عشاء أقامها للوفد ضمت الطعام الهندي الشهي الأصيل المليء بالتوابل والبهارات ، وبالدسم وبعده الحلويات .

وضم الاجتماع فيها عدداً محدوداً من المسلمين الذين عددهم أيضاً محدود كما تقدم ، وكانت فرصة لنا سنحت للبحث فيما نريد معرفته من شئون المسلمين وشجونهم في هذه البلاد .

وكان نجم الحفلة هو الداعي سليمان آدم موسى الذي هو هندي الأصل من مقاطعة كجرات . ونجم آخر لمع معه في الاجتماع هو الشيخ أحمد عفيف من جزائر مالديف كان قد نفي في أول الأمر لاختلافه مع ساسة بلاده في ذلك الزمان . وهو يتكلم العربية لكونه مكث في مصر سنتين لهذا الغرض .

وفي الساعة الثامنة والنصف كان الأخوان الرفيقان في المطار لمغادرة هذه الجزر إلى نيروبي .

يوم الجمعة ١٣٩٩/٤/٤هـ الموافق ١٩٧٩/٣/٢م .

لا بـد مـن التغيـر :

كان مما قررته أن أسافر في هذا اليوم إلى (بيرد ايلاند) أي : جزيرة الطير التي هي جزيرة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على عشرين شخصاً ولكن يوجد فيها أعداد كبيرة من الطيور حتى إن بعضهم بالغ فقال : إن عدد الطيور فيها قد يبلغ في بعض الأوقات خمسة ملايين طائر .

فطلبت الليلة البارحة من أخينا الشيخ (أبو الفضل) أن يقطع تذكرة

ذهاب وإياب إليها وأن يحجز في الحالتين إلا أنه في الصباح اتصل بي هاتفياً وقال إن جدي أخبرني أنه لا يوجد الآن فيها طيور وأنها لا تكون فيها إلا في ابريل ويوليو وأنه ليس فيها شيء يسافَر من أجله إلا الفراغ ، فتذكرت أن الطيور المهاجرة كانت تأتي إلينا في هذين الشهرين خلال رحلتها من جنوب الأرض إلى شمالها في كل عام مرتين . أما الفراغ فإنني أستطيع أن أجده في هذه الجزيرة التي أنا فيها من جزر سيشل .

لذلك قررت تغيير الفندق حباً في التغيير وطلباً للحلول في مكان لا يعرفني فيه من يريد أن يزورني فيضيع عليّ شيئاً من الوقت .

فذهبت إلى فندق كنت قد مررت به وأنا أتمشى مع رفيقيّ واسمه (كيرفري) أي : عناية مجانية ، فسألت فيه خادمة لم أجد في إدارته غيرها عن أجرة الغرفة الواحدة المنفردة ؟ فقالت : إنه لا يوجد لديهم غرف مفردة وإنما جميع ما عندهم هي من ذوات السريرين ، فقلت لها : لا مانع من أن أدفع أجرة الاثنين وأنا أسكن وحدي ، فقالت : إنها مائة وسبعون روبية مع طعام الافطار . فقلت في نفسي : هذا جيد ففيه التغيير والتوفير ، لأن فندق ريف يأخذ منا في كل ليلة ثلثمائة وخمساً وستين روبية للغرفة المنفردة مع الطعام .

ونزلت فيه وهو صغير بجانب البحر هادىء ليس فيه إلا سبع غرف يديره رجل وزوجته وفيه من الخدم حوالي عدد الغرف .

وأخلدت للراحة التي لم يكدرها إلا تحريك القلم بما تقرأه الآن . وبما قد يقرأه الرسميون الذين يطلعون على التقريرات الرسمية .

يوم السبت ١٣٩٩/٤/٥هـ الموافق ٣ مارس ١٩٧٩م .

كان حجزي إلى نيروبي في طائرة يوم الأحد مع الخطوط الكينية على أن

أؤكد الحجز في صباح السبت (اليوم) ولكن صدري ضاق بالوحدة لأول يوم تركني فيه صاحباي ومللت هذه الجزيرة التي لم أكن أظن أنني سأملها بهذه السرعة فأردت الذهاب إلى فيكتوريا العاصمة لأحاول السفر مساء اليوم .

وكنت عرفت مما سبق أن أجرة السيارة إلى هناك هي أربعون روبية في الذهاب ومثلها في الإياب فقلت في نفسي لماذا هذا التبذير؟ ولماذا لا يكون التوفير والتغيير هو الجدير فسألتهم عن حافلاتهم إلى فيكتوريا؟ فقالوا : إن أجرتها روبية واحدة ونصف روبية ، وان محطة وقوفها منك غير بعيدة .

وهكذا وقفت في رواق بيت أمام المحطة اتقاء للمطر الذي كان يهطل وكان هطوله في هذا الصباح استمراراً لهطوله أمس ، وهو أمر قد يضايق المرء إذا طال إلا أنه خير من أن تشرق الشمس فتتبخر مياه هذا البحر الخضم فتكون الحرارة والرطوبة التي تضايق الانسان ولا يسلم منها إلا إذا لزم غرفته المكيفة الهواء .

وجاءت الحافلة ولكنها لم تقف في المحطة فسألت أحد الواقفين عن السبب؟ فأجاب : لأن كراسيها مشغولة وممنوع عندنا أن تحمل الحافلة راكباً لا كرسي له . وجاءت أخرى ففعلت كما فعلت الأولى وجاءت الثالثة فوقفتْ وكان نصف مقاعدها خالية والأخرى مشغولة بركاب من عامة الناس وعندما سارت لمَحطتين أو ثلاث امتلأت فلم تسمح لأحد بالركوب إلا بعد أن يخلو له مقعد من المقاعد . فذكرت عندئذ الحافلات المصرية الذائعة الصيت التي إذا لم يجد المرء منهم فيها موضعاً لقدميه يمكنه من الوقوف فإنه يدخل ببعض جسمه من النافذة ويبقى بعضه خارج الحافلة وإذا لم يستطع حتى ذلك فانه قد يتعلق بجانبها أو (يتشعبط) على حد تعبيرهم .

ونقدت الأجرة روبية واحدة ونصف روبية لا تزيد بدل أربعين وعرفت

من حال القوم في ركوبهم ونزولهم وآدابهم في ذلك ما لم أكن لأعلمه لو ركبت وحدي في سيارة أجرة .

وكانت متعة الركوب معهم لي كبيرة إذْ شاهدت جمهورهم مؤدباً مهذباً رغم أنه مختلط الألوان والتقاسيم إلا أن اللون الأغلب عليه هو السواد .

ووقفت الحافلة في ميدان بجانب البلدة وراح الناس يسعون إلى قلب المدينة مدينة فكتوريا ، وكان المطر قد توقف إلا أنه كان قد ترك في الشوارع والميادين مناقع تتعب السائرين وأتيت الموظفة في مكتب وكالة للسفر فأريتها تذكرتي فقالت : إن حجزك مؤكد غداً وسوف أطبع عليه الورقة اللازمة لذلك . فقلت لها : ألا توجد محاولة لترحيلي في هذا المساء ؟

فأجابت توجد فرصة ضئيلة ولكنها ستوقعك في مشكلة مع فندقك كما أنها ستمنعني من وضع الحجز المؤكد للسفر غداً على تذكرتك . ففكرت ثم قررت أن أنفذ ما سبق أن قررت وكانت الموظفة فتاة جميلة ، باسمة الثغر واسعة الصدر تتكلم بنية أن تخدمك خدمة خالصة ، أو هذا ما شعرت به مما كان قد انطبع في ذهني في أكثر البلدان التي سافرت إليها في أنحاء العالم وهو أن الفتاة الجميلة هي التي تخدم حقاً أكثر من غيرها من النساء والرجال ، وتعلمت في المقابل أن أقل الموظفين لي خدمة ، وأضيقهم بي صدراً هي الفتاة القبيحة ولا أدري أذلك حقيقي يشهد له الأثر غير الصحيح (أطلبوا الخير عند حسان الوجوه) أم أن ذلك معروف لجميع الناس أم أن هذا هو من وهم خيالي الخاص .

وقد قمت بجولة في بعض شوارع بلدة (فيكتوريا) مرة ثانية هذا اليوم ، وملأت عيني من النظر إلى هذا الشعب العجيب الذي هو خليط لا من الوجوه فقط وانما من الدماء والاجسام ، وتخيلت أن هذه الجزيرة هي من أحسن

الأماكن لدراسة تأثير التزاوج بين الألوان والاجناس المختلفة على أنسالهم وأنسابهم . وبخاصة في هذا الوقت الذي لم تستقر فيه لهذا الشعب المختلط صفة خَلْقية جسمية معينة ولا بد أنه سيمضي عليه زمن قبل أن يصبح كذلك .

ولا ينبغي أن يظن أن معنى الاختلاط هنا أنه شعب مختلط من أفراد من أجناس مختلفة ، فذلك موجود في كثير من البلاد وانما المراد أنه مختلط من أنساب مختلفة ، فهذا أبوه أوروبي وأمه إفريقية وذلك أبوه أوروبي وأمه هندية . وآخر والده أفريقي زنجي وأمه مختلطة . وغيره جده أبيض وأبوه ملون وابنه أسود لأن أمه سوداء ، ووجهه فيه من بياض الاوروبيين شيء ولكن تقاسيمه كلها هي تقاسيم الإفريقيين . وقد تجد فتاة سوداء غير حالكة السواد ، ولكن لها شعر مرسل جاء من أحد أجدادها المختلطين وهكذا إلخ .

أنا الغريق فما خوفي من البلل :

عندما اختفت الشمس خلف الجبال الواقفة في الساعة الخامسة والنصف عصراً ، وأقبل البحر في عادته اليومية ماداً مقترباً من الشاطىء الرملي ، كان الحر شديداً في الشرفة التي كنت أجلس على مقعد فيها في الطابق العلوي من مبنى الفندق الصغير المؤلف من طابقين ، وقد مللت الكتابة كما مللت تحية البسطاء المارة من الناس وبخاصة من أطفالهم الذين كانوا إذا حاذوني ورأوني أُحدّ النظر فيهم أستملي وجوههم رفعوا أيديهم بالتحية . وكان الشاطىء خالياً راودتني نفسي أن استمتع بالبحر في هذا الجو المغري فنزلت وليس عليَّ غير ما يكون على من يريد السباحة إلا نعال من اللدائن ما لبثت أن وضعتها فوق جذع شجرة من أشجار النارجيل المنحنية على البحر .

وكان سطح الماء ساخناً لا يحس المرء له بلذة البرودة حتى إذا دخل إلى المياه العميقة نسبياً وجد برودته فيها وكأن مياه المد تدفع المياه السطحية الدفيئة

إلى الشاطىء .

ووجدت متعة في السباحة لوحدي في هذا البحر الذي إذا تخيله المرء تخيل المحيط الذي لا نهاية له إذ هو من جهة الجنوب يمتد إلى القطب الجنوبي دون أن تعترضه أرض يابسة وقد يحس المرء إذا ما وجد نفسه وحيداً في مكان خال واسع أنه يملك ذلك المكان أو أنه على الأقل يملكه في تلك اللحظة والأمر كذلك بالفعل إذ ما دام لا يرده عنه رادّ ، ولا يحجزه من التحرك فيه حاجز فهو يملكه مؤقتاً ولو على سبيل المجاز .

وكان المد يزيد ويزيد حتى يغطي من رمال الشاطىء ما كان ظاهراً قبل ذلك ، وكانت السباحة فيه متعة ما بعدها متعة .

ولاحظت في ركن منعزل تحت شجرتين ملتفتي الفروع من أشجار النارجيل تسندهما شجرة أخرى ضخمة لا أدري ما هي ان هناك أمرأتين جالستين على رمال الشاطىء يخفيهما حاجز المياه عن عيون المارة من شارع (كورنيش البحر) وتخفيهما الأشجار فوقهما عن أن يراهما من يكون بعيداً بحيث لا يراهما إلا من يكون في البحر وليس في البحر أحد . وقد مدت الواحدة منهما رجليها كلتيهما فقربت منهما فإذا مع كل واحدة منهما زجاجة تشرب منها وهما في مظهر سيء إذ هما حافيتا القدمين رثتا الهيئة كلتاهما في متوسط العمر وكلتاهما قد سقطت الثنايا العليا من أسنانها ولا أدري أذلك حدث مصادفة ؟ أم أنه لتقليدٍ شائع عند أهلها فقد كانت بعض القبائل الإفريقية تكسر سنا أو اثنتين من أسنان الفتى عند بلوغه مرحلة معينة من مراحل العمر . وهاتان المرأتان هما أفريقيتا الأصل بل والفرع فهما سوداوا اللون .

فسألتهما : ما الذي تشربانه ؟

فأجابت إحداهما وهي تقدم الزجاجة التي كانت قد وضعت فمها في فمها خذ اشرب ، إنه خمر ! إنه طيب ؟!!!

فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أإثم ومن مثل هذا الفم ؟

وذكرت بذلك حادثة مماثلة حدثت لي في مكان قصي من شمال الأرض ، إنه فنلندا أقصى أقطار الدنيا إلى جهة الشمال فقد كنت فيها أتمشى في هلسنكي مع صديقي الشيخ عبد العزيز المسند ، في صيف عام ١٣٧٧ هـ إذا بنا نمر في جزيرة من الحشائش بين طريقين بفتاتين في نضارة الصبا وهما تبدوان في حالة عقلية سيئة وتضحكان بصوت مرتفع من لا شيء أو من أي شيء فوقفنا من باب الاستطلاع قربهما فإذا بهما تناديان علينا ، وتقدمان زجاجتين من الخمر كانتا تشربان منهما تنزع الواحدة منهما فم الزجاجة من فمها وتقول : خذ اشرب منه ، إنه خمر ، إنه طيب .

ويومها قلت : لو لم أكن مسلماً لأصبحت مسلماً لمجرد أن الإسلام يحرم الخمر ، ويمنع من وجود مثل هذا المنظر .

أما اليوم وقد تذكرت ذلك عندما رأيت هاتين المرأتين البائستين تشربان وتتلفتان ، فسألتهما وما هو عملكما ؟ فأشارتا إلى حزمة كبيرة من الملابس ، وقالتا : إننا نغسل الملابس ، نأخذها من البيوت ونغسلها ونعيدها . ثم أضافت إحداهما التي كانت تعرف الانكليزية جيداً بخلاف الأخرى :

ماذا نصنع ؟ إننا نعمل لكي نعيش إن لي خمسة أولاد وزوجي لا يعمل وهذه لها ثلاثة أولاد وقد مات زوجها وتركهم في عنقها .

فسألتهما : كم ثمن هذه الزجاجة فأجابتا : كل واحدة بثمان روبيات ، أي أربعة ريالات ونصف فقلت لهما : كيف ترضيان بانفاق هذا المبلغ وأنتما

فقيرتان ؟ فأجابتا وهما تضحكان : ماذا نصنع ؟

فسألتهما عن ديانتهما ؟ فأجابتا : كاثوليك .

فتركتهما حامداً الله تعالى شاكراً على نعمه الذي لم يجعل مثل هذا المنظر موجوداً في بلادنا .

وعدت إلى البحر أسبح وأسبح وقد تكاثف السحاب وأظلم الأفق وأقبل المطر تحدوه الريح وإذا أقبل في هذه البلاد فما أسرع من أن يسقط ! ! !

فحدثتني نفسي بأن أتقي المطر بالرجوع إلى الفندق ثم ذكرت الشطر المشهور :

(أنا الغريق فما خوفي من البلل) ؟

فقلت : لأدع المطر يمطرني كيف شاء ، وشاء المطر أن يبللني بالفعل ، ولكنني كنت مبتلاً قبل ذلك بماء البحر ونزل كثيفاً متواصلاً وعزمت أن أخرج من جسمي ما يغسله ماء المطر إلا أنني وجدت أنه بارد لا يحتمل بالنسبة إلى ماء البحر الساخن فغمست نفسي في البحر ولم أدع خارجاً إلا رأسي . ولأول مرة في حياتي تحديت المطر حتى وقف عن النزول ، وكانت الشمس قد غابت والظلام قد حل قبل ذلك بقليل بسبب كثافة السحب ونزول الأمطار .

فعدت إلى الفندق وإذا بصاحبته تقول لي يا سيد محمد ، أريد أن أتكلم معك في شئ فقلت لها : لا يمكنني أن أكلمك حتى أغسل جسمي وألبس بقية ثيابي فلم يلاق ذلك منها ارتياحاً . ولكنني تركتها حتى فعلت ذلك ثم رجعت إليها فقالت :

إن الطباخ أو الطباخة لا أدري فهما في الانكليزية سواء لأنها لم تذكر الضمير المنفصل الذي يميزهما — لم يطبخ طعاماً للعشاء في هذه الليلة لذلك

نأسف إذ نخبرك أنك لن تجد عشاء إلا في فندق ريف ويمكنك أن تركب له سيارة أجرة بعشر روبيات أي خمسة ريالات ونصف وسوف أخبر الحارس إذا عدت من الفندق ليلاً أن يفتح لك لأنه لا يعرفك .

فلم أشأ أن أقول شيئاً وليس بيدي ذلك ، وإلا فكيف تقول في البداية إنها ستؤمن الطعام للنزلاء ثم تقول الآن : إنه لا يوجد لهم طعام .

وقصدت غرفتي وإذا بي أقابل الخادمة التي كانت تقدم الطعام للنزلاء وقد تزينت ومعها ابنة صاحبة الفندق وهي تشبه أمها بل قد تشتبه بها على البعد رغم أنها في السادسة عشرة فكلتاهما بدينة إلى درجة يرثى لها حتى أن للواحدة منهما وبخاصة الأم ثلاث لحى من الشحم أسفل من اللحية التي تكون لسائر الناس ، وإذا جلستْ في الكرسي عجبت في كونه يتسع لها ومع ذلك فانني رأيتها تتناول طعام الغداء هي وزوجها وابنتهما وهم ثلاثة فرأيت من الطعام ما يكفي سبعة — فسألت الخادمة لماذا هذه الزينة ؟ فأجابت لأننا ذاهبون إلى وليمة ، فعرفت أنهم قد رتبوا الأمر ترتيباً وليس من أجل عدم وجود الطباخ أو الطباخة .

وكان المطر لا يزال يهطل وقد ترك مناقع في الشوارع وان لم تكن كثيرة لأن كثرة نزول المطر قد جعلتهم يعتادرن عليه فيأخذون لتصريف مياهه أهبته . فلم يمكنني الذهاب فوراً إلى فندق ريف للعشاء .

فلبثت في غرفتي ثم خرجت فإذا بالحارس قد جاء وجلس على كرسي بجانب الباب الخارجي للفندق وليس هناك أحد غيره ومعه كلب قوي شرس قال : إنه كلبي ، فقلت له ممازحاً : أرجوا أن تقول لكلبك الا يمسني بسوء فأنني أخشى على نفسي منه .

فقال : لا تخف إنه لا يؤذي الرجل الأبيض ، وكان الحارس نفسه يبدو

أنه من نسل أبيض اللون إلا أن الجو الاستوائي قد غير لونه إلى قمحي غير صافٍ ، ثم سألني : أأنت إيطالي ؟

فقلت له : لا ، أنا من بلاد العرب أرأيت عربياً قبل ذلك ؟ فأجاب : لا ، فسألته عن الطريق إلى فندق ريف هل هو آمن في هذا الليل البهيم ؟ فأجاب : نعم . لا يخاف المرء فيه من شيء .

ولم تمر سيارة أجرة فأركبها وفي رجلي استعداد للمشي ، وفي نفسي اشتياق للانطلاق في هذا الليل البهيم الذي غابت نجومه ، وغابت المصابيح الكهربائية عن شارعه أو عن الطريق الرئيسي فيه فليس فيه مصباح واحد فتخففت من فضل النقود ووقفت أنتظر أن يقف المطر ، وعندما خف ودعت الحارس ، وانطلقت مع الشارع لا أرى من الطريق شيئاً في اتجاه (فندق ريف) جهة الجنوب ، وهذا الطريق هو الذي قالت فيه الموظفة في الفندق إنه لا يمكن الضياع منه لأنه طريق واحد ، ولكن المشكلة هي في إبصار جوانبه إلّا أن الخط الأبيض الذي وضعوه فيه يفرق بين السيارتين المتقابلتين كان يرى في أكثر الأحيان وكانت بعض السيارات التي تمر غير مسرعة تنير الطريق فترة .

ووجدت من المتعة في هذا الظلام ما عوضني عن فقدان المتعة في النور . ولم يكن هناك أحد من المارة إلا أقل من القليل يراهم المرء كالاشباح التي تظهر ثم تختفي . وأنا على يقين أن أحداً منهم لن يعرف من أمري شيئاً لأنه لن يبصر من وجهي بل من جسمي ما يعرفه بي .

وزايلني الخوف لهذا السبب من الناس ولكن الخوف أقبل من السماء فقد تحرك الهواء تحت السماء الملبدة بالسحاب وبدأ المطر يرسل رذاذاً فتحيرت في نفسي ماذا أصنع ، وليس هنا ملجأ ، حتى البيوت لا توجد إلا متناثرة وليس بقرب الطريق إلا أشجار واقفة ريانة الأغصان . وركضت ثم دعوت الله تعالى

أن يوقف المطر .

ولم أزل كذلك حتى دخلت (فندق ريف) أو (ريف هوتيل) كما يقولون . ووجدت الموائد في مطعمه الحافل غاصة بالرواد وكلهم من نزلاء الفندق أو من الذين قدموا إليه بالسيارات أما المقصف الذي فيه المرقص ، فانه كان شبه مقفر لأن الاهالي الذين كانوا يأتون إليه من الجهات المجاورة له قد منعهم المطر .

وأقبلت رئيسة الخادمات في المطعم وهي سوداء عمرها في حدود الثلاثين وتعرفني كما يعرفني أكثر الذين فيه أثناء الأيام الثلاثة التي كنت فيها مع زميلي وتخلفت عنهما زيادة يوم رابع وكنا لما أنعم الله علينا به من مال ننفح من يخدمنا منه شيئاً بحيث يظل يذكرنا دون أن نطلب منه ذلك . لذلك بادرت رئيسة الخدم إلى بطاقة في يدها وكتبت فيها شيئاً ثم قالت : إن العشاء اليوم هو بالاختيار ، فعليك أن تختار بنفسك ، والعادة عندهم إذا كان العشاء بالاختيار أن يكون وافر الكم ، مختلف النوع ، بحيث أن المرء يأكل في ثلاثة أطباق أولها للسلطة المختلفة حتى إذا أفرغه في فمه أو فرغ منه جاءت الخادمة فرفعته وهو قد ذهب إلى اللحوم والخضروات المطبوخة فملأ صحناً ثانياً ، وبعد هذا الصحن الثاني يكون الصحن الثالث صحن الفاكهة والحلوى . ثم القهوة أو الشاي حسب طلبه .

وعندما فرغت من الطعام جاءت خادمة تسأل عن القهوة والشاي قلت له استدعي رئيستك فلما جاءت قلت لها : ماذا كتبت في البطاقة ؟ قالت : كتبت رقم غرفتك قلت لها يا هذه ، لقد تركت الفندق يوم أمس وإنني اليوم قادم لأتعشى وأدفع بالنقد . فتهلل وجهها فرحاً ومزقت البطاقة وقالت : لقد أنقذتني من غلطة ستحاسبني الإدارة عليها حساباً عسيراً ، فقلت لها : إن ذلك

لن يحدث بسببي فنحن قوم يأمرنا ديننا بأن لا نأكل مالاً حراماً .

هذا وعندما فرغ العشاء كان قد حان عندهم فصل الرقص والانتشاء ، فأخذت موسيقاهم في مكان الرقص تعزف وتعزف ولكن المطر الذي كان قد



أشجار النارجيل المائلة على شاطىء البحر في سيشل وتقابلها جزيرة أخرى من جزر سيشل

استمر في النزول جعل المواطنين الذين من عادتهم الحضور للرقص يعزفون عنه .

أما أنا فإني عزفت أيضاً عن البقاء أكثر من ذلك في الفندق وأردت الرجوع إلى فندقي غير أن المطر كان مستمراً وكنت أحب أن أذهب إليه ماشياً كما جئت غير أن المطر يمنعني من ذلك .

وأسرعت والمطر يهطل أبحث عن سيارة أجرة حتى وجدتها واقفة عند باب الفندق ، ولما وصلت فندق (كير فري) الذي أنزل فيه لم أجد فيه أحداً غير الحارس وكلبه الضخم .

يوم الأحد ٦ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ الموافق ٤ مارس ١٩٧٩م .

كان هذا الصباح (السيشلي) مشمساً على غير العادة بعد جو ماطر دام يوماً وليلة ، وقد تنفسنا الصعداء من مضايقات المطر المتواصل ، ولكن ما أن ارتفع الضحى وقد جلست في شرفة الطابق الثاني من الفندق حتى اشتد الحر وارتفعت نسبة الرطوبة بسبب سطوع الشمس وصار الجلوس بدون مكيف مما يتضايق منه المرء .

وفي هذه الأثناء جاءت صاحبة الفندق وقالت : يا سيد محمد ، إن إقامتك في فندقنا تنتهي في الساعة الثانية عشرة ظهراً ، وأنا أتوقع مجيء زبائن يحتاجون إلى غرفتك فهل تساعدني على أن تخلي الغرفة في التاسعة أو العاشرة ، ويمكنك أن تبقى في الطابق الثاني ؟

فقلت لها : يا مسز مونثي — وهذا هو اسمها — إن رحلتي كما تعلمين لن تكون إلا في المساء ومن الصعب عليَّ أن أبقى دون مكيف أو استراحة من الآن إلى المساء ولكن من حقك أن أدع الغرفة في الثانية عشرة تماماً .

هذا وعندما مللت الكتابة ، ولم أجد في الفندق من له رغبة في الحديث معي إلا (عجوزاً في الغابرين) وهي خادمة سوداء مترهلة تزعم أنها في الستين من عمرها وهي في أكثر من ذلك من دون شك ، ومرجع رغبتها في الحديث معي كونها سبق لها العيش في أحد البلدان العربية وهو البحرين إذْ أخبرتني أن وجيها ثريا من أهل البحرين زار سيشل ، فأخذها معه خادمة في بيته هناك ، وأنه رجل نبيل كريم متزوج من اثنتين إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة السن والحجم ، وأن بيته واسع ويعج بالناس وقالت : إنها تتمنى العودة إلى البلاد العربية لتكسب راتباً أكثر لأنها هنا لا تعطيها هذه المرأة السمينة — تعني صاحبة الفندق — إلا خمسمائة وخمسين روبية في الشهر — أي ثلثمائة ريال سعودي — مقابل عمل متواصل من الساعة السابعة صباحاً حتى الخامسة عصراً في تنظيف الغرف والحمامات . وقالت : إن الوسيط الذي كان السبب في سفرها إلى البحرين أخبرها وأكد عليها بأن العرب قوم سيئوا الأخلاق ، وأنهم يصعب التخلص منهم لذلك لا ينبغي لها أن تحدث منهم أحداً ، ولا أن تصادق أحداً ، قالت ، ففعلت ذلك أي : انزويت على نفسي ولكنني لم ألحظ أي أمر شائن عندهم .

هذا وعندما استمر حديثي مع هذه الشمطاء مضطراً ذكرت بيتين لأحد الأدباء العرب القدماء حينما وجد نفسه مضطراً لمدة طويلة إلى أن لا يتكلم إلا مع غلام له بليد اسمه (داهر) وهما :

كفى حزناً أني مقيم ببلدة ... يعللني فيها الأحاديث (داهر)
يحدثني مما يلفق عقله ... أحاديث منها مستقيم وجائر

مغادرة سيشل :

في الساعة الخامسة عصراً طلبت لي صاحبة الفندق سيارة أجرة بالهاتف فلم

تستطع الحصول عليها ، فوقفت تنتظر فترة في الشارع حتى مرت واحدة وذلك لأن سائر الناس هنا لا يستطيعون ركوب سيارة الأجرة وإنما يركبها السياح من الأجانب .

وعندما ركبتها قالت : أعطه خمس عشرة روبية أي ثمانية ريالات تقريباً لمسافة خمسة كيلات . فوصلت المطار الذي كنت قد وصلته في القدوم في الليل والانوار فيما حوله خافتة فلم أعرفه معرفة كافية ففوجئت بأن وجدت مكاتب الطيران فيه في الرصيف .

إي نعم : إنها في الرصيف في الشارع لا يفصل بينها وبين الممر المنطلق من الشارع الرئيسي أي شيء فتقف السيارات القادمة بالركاب وأمتعتهم وليس بينها وبين المكاتب إلا هذا الرصيف غير العريض حتى مكتب الجوازات يدخل إليه من هذا الرصيف دون حاجز . ومع ذلك لم أجد ضوضاء ولا فضوليين ولا مودعين في هذا المكان بل لم يكن فيه إلا الركاب والموظفون ، وذكرت بهذا مطارات بعض البلاد العربية وبخاصة مطاري دمشق والقاهرة حيث تمنع إدارة المطار دخول البناية الرئيسية لغير المسافرين أو المودعين المأذون لهم بالدخول ومع ذلك تكون الضوضاء والجلبة والزحام الشديد حول بناية المطار لا تكاد تطاق .

وكان في مكتب الخطوط الكينية التي سأسافر معه أمرأة قمحية اللون ، مختلطة النسب في سن الكهولة ، أنهت عملها بمجامله وسرعة .

ومن هناك انتقلت — عبر الرصيف الخارجي — إلى ممر قصير غير ذي باب كتب على أوله (الجوازات) فوجدت الضابطة امرأة سوداء اللون ، إلا أن تقاسيم وجهها غير تقاسيم الزنوج ، وعلى وجهها آثار جدري أو حبوب أخرى ، وهي تغني وترفع صوتها بالغناء ، وفي يدها اليسرى سيجارة تدخنها فأخذت

جوازي وجعلت تقلبه حتى وصلت إلى الصفحة التي فيها خاتم القدوم — كما هو المعتاد — وأمسكت بالخاتم الرسمي للجوازات باليمنى ، وقالت لي : امسك الجواز حتى أختمه لك لأن يدها اليسرى مشغولة بلفافة التبغ أو هي تريد ذلك ، فأمسكت بالجواز مفتوحاً فطبعته بالخاتم الرسمي وهي تغني بصوت مسموع في هذا المكان الرسمي .

فقلت لها : أهذا يكفي ؟ لأنهم لم يطلبوا مني أن أملأ بطاقة الخروج كما هي العادة في أكثر المطارات ؟ فأجابت برأسها : أن نعم ، ويظهر أنهم قد اكتفوا بورقة كانوا وضعوها عند القدوم في قلب الجواز .

وقد تركتها وهي تغني إلى تفتيش المسافرين من أجل الأمن وكانت الضابطة فيها أيضاً أمرأة سوداء إلا أنها أقل سواداً من الأولى وأكثر رزانة في الحركات وفي الجسم . ففتحت حقيبة اليد ولم أشأ أن أريها جوازي السياسي ما دام أن الأمر ليس فيه مضايقة ، ولم تفتش جسمي لا بآلة كهربائية ولا بغيرها إلا أنه كانت معي عصا من العاج ثمينة أهداها إليَّ رئيس المركز الإسلامي في تنزانيا مع إخواني أعضاء الوفد وكانت مغلفة بالورق واللدائن فأخرجتها من غلافها ، وكادت أن تبحث عن مفصل فيها تديره لتتأكد مما إذا لم تكن هي سلاحاً مقنعاً فأردت أن أمنعها من ذلك لئلا تفسد العصا ولكنها عدلت عن ذلك وأعادت العصا إلى لفافتها .

فنفذت منها إلى قاعة العابرين التي هي قاعة الواصلين وهي صغيرة إلا أنها نظيفة جداً شأن معظم الأماكن في هذه البلاد .

وكانت قد بقيت معي بعض روبيات من عملتهم فبحثت عن شيء أشتريه بها من مصنوعاتهم المحلية في المطار فلم أجد فقدمتها إلى امرأة في محل مكتوب عليه أنه البضائع دون جمرك وطلبت أن تعطيني بها أي شيء فأعطتني زجاجة

صغيرة من العطر أعتقد أنها في بلادنا بنصف ثمنها .

وقبل موعد إقلاع الطائرة بأربعين دقيقة نادى مكبر الصوت على ركاب رحلتنا بالخروج إلى الطائرة ولم يكن عددهم بالكثير بالنسبة إلى أنها من طراز بوينج (٧٠٧) .

وعندما صعدنا إلى الدرجة الأولى لم نجد أمامنا فيها أي شخص من مضيفي الطائرة أو غيرهم فتخير كل واحد مقعداً فيها ولم يكونوا رقموا البطاقات . فكنت في الصف الثاني وكان في الصف الأول رجلاً هندياً وزوجته وهما مسنان غنيان فيما يظهر من حالهما وهما غير مسلمين يدل على ذلك مظهر المرأة وأنهما كانا يعبّان الخمر عباً ، والعجب أنهما ذاهبان إلى نيروبي من تنزانيا بالنظر إلى أنه لا يوجد طيران مباشر لأية شركة من الشركات بين كينيا وتنزانيا . وهناك في الصف الأخير من هذه الدرجة الأولى زوجان مسنان سمعتهما يتكلمان الألمانية فيما بينهما ، وفتى شاب أوروبي دخل إلى الدرجة الأولى وركب فيها وهو يلبس سروالاً قصيراً ، و(شبشباً) يفعل ذلك امتداداً لما كان عليه الأمر في سيشل حيث أن الحر والحرية في تغيير اللباس التي يشعر بها الأوروبيون عندما يصلون إليها يتيح له ذلك . أما نصف مقاعدها فهي خالية .

وقد بحثت أمامي عن المائدة التي يوضع عليها الأكل أمام الراكب ، وذلك لكي أكتب فوقها فلم أجد لها أثراً ، ولاحظت أن جميع مقاعد الطائرة كذلك . وتبين بعد ذلك أنهم يحضرون لكل مقعد مائدة صغيرة من عندهم ذات قضبان قصيرة تدخل في مقدمة يد المقعد مثل ما يكون في مقاعد الصف الأمامي من سائر الطائرات .

وبعد قليل حضر المضيفان وهما رجل إفريقي طويل ذو بطن بارز بشكل ملفت للنظر حتى إن حزامه كان دائماً أسفل من بطنه وفتاة إفريقية أيضاً إلا أن

الذي كان يتولى تقديم الطعام والشراب إلى الركاب كان الرجل أما الفتاة فإنها كانت تقوم بتجهيزه قبل ذلك .

وقبل الاقلاع سأل المضيف الركاب عن الشراب الذي يريدونه وفوجيء بأنني طلبت عصير البرتقال لأن بقية الركاب ينتهزون الفرصة لتناول المشروبات الغالية .

وفي الساعة السادسة والنصف وخمس دقائق مساءً ، كانت طائرة الخطوط الجوية الكينية تغادر مطار سيشل الذي هو شريط ضيق من الأرض مجاور للميناء بحيث أن سفينة كانت واقفة في الميناء لم يكن بينها وبين مدرج الطائرات في المطار الا مسافة لا تتجاوز ثمانين متراً .

وهذا الموعد هو بالتقريب الموعد المحدد لمغادرة الطائرة في الأصل ، وعندما فارقت عجلاتها المدرج كانت تطير على البحر لأن جزءاً من مدرج المطار هو من الأرض المدفونة في البحر ، وكانت محركات الطائرة تواصل هديرها المزعج وهي تحاول أن ترتفع بسرعة وأنا أنظر إلى الشمس التي كانت قد اختفت عن الأنظار خلف الجبل الغربي الذي هو الجبل الوحيد في هذه الجزيرة ، وقد بانت لنا من جديد فكأنما قد أشرقت من الغرب لولا أن صفرة الغروب والحزن الذي يلف الشمس عند الفراق كما يقول العشاق يفضحها وجبال جزيرة (ماهي) الخضراء التي بدت مع باقي الجزيرة كالحائط الأخضر غير المنسق ، تبتعد وبعض الجزر الأخرى الصغيرة تبتعد أيضاً وقد ولت الطائرة وجهها شطر مغيب الشمس في طريقها إلى نيروبي حيث من المقرر أن أسافر من نيروبي إلى جدة ، وأنا أحمد الله تعالى وأشكره على أن لم يجعلني من سكان جزر سيشل .

فهرس الكتاب